المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم
القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم
بطاقة تعريفية لكتاب "المفاهيم القرآنية من سورة الحديد"

أولا ً: التعريف بالكتاب

.١اسم الكتاب: المفاهيم القرآنية من سورة الحديد) مدخل تمهيدي لتفسير واستنباط المفاهيم القرآنية.(

.٢موضوع الكتاب: يقدم الكتاب دراسة تفسيرية تحليلية متكاملة لسورة الحديد، تتجاوز التفسير اللغوي التقليدي إلى استنباط المفاهيم النفسية والتربوية والسلوكية والدعوية والحضارية من آيات السورة، مع ربطها بواقع الحياة والتطبيق العملي .يركز الكتاب على قضية التوازن بين الإيمان النظري والعمل العملي، وبين القوة المعنوية والمادية، وبين الدين والدنيا.

.٣طبيعة الكتاب: كتاب تفسير موضوعي تحليلي تطبيقي، يجمع بين التفسير اللغوي والبياني، و التحليل النفسي والتربوي، والتطبيقات السلوكية العملية، والرؤية الحضارية الشاملة .يمتاز بطابعه التكاملي الذي يربط بين العقيدة والسلوك، وبين الروح والمادة، وبين الفرد والمجتمع والحضارة.

.٤المؤلف: أحمد عبد الرزاق مربوش العامري.

.٥المراجعة والتدقيق: الأستاذ منير عبده عثمان الصلوى.

ثانياً: محاور الكتاب ومحتواه

.١المقدمة التمهيدية: بيان التناسب بين خاتمة سورة الواقعة وافتتاحية سورة الحديد، والارتباط الموضوعي بينهما في سياق الانتقال من "اليقين الروحي" إلى "التنفيذ العملي"، ودور هذا الانتقال في إعداد الداعية وبناء الإنسان والمجتمع والحضارة.

.٢تفسير الآيات١) -(٦: قوله تعالى: "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"، مع تحليل عميق للتسبيح الكوني، ودلالات أسماء الله) العزيز، الحكيم، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن(، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، والاستواء على العرش، وعلم الله المحيط.

.٣تفسير الآيات٧) -(١١: دعوة الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق مما جعل الله الإنسان مستخلفاً فيه، بيان حقيقة الاستخلاف، والأجر الكبير للمؤمنين المنفقين، والتفاضل بين من أنفق قبل الفتح وبعده.

.٤تفسير الآيات١٢) -(١٥: مشهد يوم القيامة ونور المؤمنين، ونفاق المنافقين، وطلبهم الاقتباس من نور المؤمنين، وضرب السور بينهم، وبيان أن باطنه الرحمة وظاهره العذاب.

.٥تفسير الآيات١٦) -(١٧: العتاب الإلهي للمؤمنين على بطء خشوع قلوبهم، والتحذير من قسوة القلب بطول الأمد، وبيان أن الله يحيي الأرض بعد موتها، وإقامة الحجة بالآيات.

.٦تفسير الآيات١٨) -(٢١: وصف المتصدقين والمتصدقات، والقرض الحسن، والأجر الكريم، وبيان حقيقة الدنيا) لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر(، والمثل الزراعي بسرعة زوالها، والأمر بالمسابقة إلى مغفرة الله والجنة التي عرضها السماوات والأرض.

.٧تفسير الآيات٢٢) -(٢٤: بيان أن كل مصيبة في الأرض والأنفس مكتوبة في كتاب من قبل، والحث على عدم التأسي على ما فات وعدم الفرح بما آتى، والتحذير من كل مختال فخور، ومن البخل والأ مر بالبخل.

.٨تفسير الآية(٢٥) : قصة إرسال الرسل بالبينات والكتاب والميزان لإقامة القسط، وإنزال الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وبيان أن النصرة بالغيب، وأن الله قوي عزيز.

.٩تفسير الآيات٢٦) -(٢٧: استعراض تاريخ الرسل من نوح وإبراهيم وعيسى، وبيان أن النبوة والكتاب في ذريتهما، وذكر الرهبانية التي ابتدعها النصارى، وبيان أنهم ما رعوها حق رعايتها.

.١٠تفسير الآيات٢٨) -(٢٩: النداء الإلهي للمؤمنين بتقوى الله والإيمان برسوله، والوعد بالكفلين من

الرحمة والنور والمغفرة، وبيان أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأن الله ذو الفضل العظيم.

١١.ملاحق تطبيقية: وقفات تدبرية عملية، خواطر من الآيات، معادلات سلوكية، مفاهيم البناء وإعداد الدعاة، أسئلة محرك للتفكير العميق، ومهارات حياتية ومعرفية وعملية.

ثالثاً: منهجية الكتاب

١.المنهج التكاملي: يجمع بين التفسير اللغوي والبياني، والتفسير الموضوعي، والتحليل النفسي، و التربوي، والدعوي، والسلوكي، والحضاري في آن واحد، مع ربط ذلك كله بالواقع المعاصر.

٢.منهج التناسب: يبدأ ببيان التناسب بين سورتي الواقعة والحديد كمدخل لفهم السياق القرآني، ثم يتتبع التناسب بين الآيات داخل السورة، وبين السورة والسور الأخرى.

٣.منهج التحليل المتدرج: لكل آية أو مجموعة آيات يقدم: التفسير اللغوي والبياني، والرسائل النفسية والفكرية والتربوية والعملية، والأهداف والأغراض والمقاصد، والتصوير البياني وأغراضه، والأبعاد البلا غية والتربوية، والمفاهيم المستخلصة.

٤.المنهج التطبيقي: يقدم معادلات سلوكية، ووقفات تدبرية عملية، وخواطر، وأسئلة محرك، وتطبيقات عملية يومية، ومهارات حياتية ومعرفية، مما يحول الآيات إلى برنامج عمل متكامل.

٥.منهج استنباطي: يستنبط المفاهيم التربوية والنفسية والدعوية والحضارية من الآيات، ويصوغها في قوالب مفهومية واضحة.

٦.المنهج التاريخي الاستعراضي: يستعرض تاريخ الرسل والأمم السابقة للعبرة والاعتبار، ويربط الماضي بالحاضر.

٧.منهج الموازنة: يقدم رؤية متوازنة بين الروح والمادة، والدين والدنيا، والخوف والرجاء، والقوة و الرحمة، والفرد والمجتمع.

رابعاً: أسلوب المؤلف وأهميته

١.أسلوب المؤلف: يتميز الأسلوب بـ:

- الوضوح والسهولة مع العمق الفكري.
- التقسيم المنهجي الدقيق مع الترقيم والتنظيم.
- التكرار الهادف لتثبيت المفاهيم.
- التنويع بين السرد التحليلي والأسئلة الاستفهامية والتوجيهية.
- الاستشهاد بالأمثال التقريبية التوضيحية.
- الأسلوب التربوي الهادئ الموجّه للقلب والعقل معاً.
- التدرج من النظري إلى العملي والتطبيقي.
- الربط بين النصوص القرآنية والواقع المعاصر.
- الحوار الداخلي مع القارئ من خلال الأسئلة المحركة.

٢.أهمية الأسلوب:

- يجعل القارئ شريكاً في عملية التدبر وليس مجرد متلق.
- يربط الآيات بالواقع المعاصر والسلوك اليومي.
- يزود القارئ بأدوات تحليلية يستطيع تطبيقها على باقي سور القرآن.
- يخاطب الداعية والمربي والمؤمن العادي بلغة تناسب كل فئة.
- يقدم القرآن كمنهج حياة متكامل لا مجرد كتاب يتلى.
- يبني في القارئ رؤية حضارية شاملة للإسلام.

خامساً: ما يتميز به الكتاب عن بقية التفاسير

١.الجمع بين التفسير والتحليل النفسي العميق: لا يكتفي بشرح معاني الآيات، بل يحلل حالات النفس

البشرية التي تعالجها الآيات) الخوف، القلق، البخل، الكبر، الفخر، النفاق، قسوة القلب، التعلق بالدنيا.(

.٢التطبيق السلوكي المباشر: يقدم معادلات سلوكية وتطبيقات عملية يومية ومهارات حياتية، مما يجعله كتاب تدريب عملي وليس مجرد مرجع نظري.

.٣الرؤية الحضارية الشاملة: يربط آيات السورة ببناء الحضارة، ويستخرج منها خريطة طريق لنهضة ا لأمة، عبر الجمع بين العلم والقوة والعدل والرحمة.

.٤توجيه الدعاة والمربين: يخصص أقساماً كاملة لمفاهيم البناء وإعداد الدعاة، ويستخرج الدروس التربوية والدعوية من كل آية.

.٥التفصيل الدقيق مع التنظيم الشامل: يجمع بين التفصيل الدقيق لكل آية والرؤية الشاملة للسورة كوحدة متكاملة.

.٦الاعتناء بالتصوير البياني والبلاغي: يحلل الصور البيانية وأغراضها البلاغية، ويبين أثرها في النفس.

.٧أسئلة المحرك والوقفات التدبرية: ابتكار أدوات تدبرية غير مألوفة في التفاسير التقليدية، تحفز القارئ على التفاعل الذاتي مع الآيات.

.٨ربط الآيات بالواقع المعاصر: يترجم مفاهيم السورة إلى مصطلحات ومفاهيم معاصرة، ويطبقها على قضايا العصر.

.٩المنهج التكاملي: يجمع بين الجوانب العقدية والنفسية والتربوية والسلوكية والدعوية والحضارية في تفسير واحد.

.١٠التوازن والوسطية: يقدم رؤية متوازنة بين الأطراف المختلفة، دون إفراط أو تفريط.

سادساً: الجمهور المستهدف بالكتاب

.١الدعاة والعاملون في الحقل الدعوي: يجدون فيه منهجاً عملياً لبناء شخصيتهم الدعوية، وتوجيهاً لكيفية التعامل مع قضايا الإيمان والنفاق والإنفاق والجهاد.

.٢المربون والمعلمون: يستفيدون من المفاهيم التربوية والنفسية في تربية النشء وبناء الشخصية المتوازنة.

.٣طلاب العلم الشرعي: يجدون فيه نموذجاً متكاملا ً للتفسير الموضوعي التحليلي الذي يجمع بين العلوم المختلفة.

.٤المهتمون بالتزكية النفسية والسلوكية: لأن الكتاب يقدم برنامجاً عملياً للتغيير والنهوض من خلال معالجة أمراض القلوب) البخل، الكبر، النفاق، قسوة القلب.(

.٥المهتمون ببناء الحضارة والنهضة: يجدون في الكتاب خريطة طريق لبناء حضارة إسلامية متوازنة تجمع بين العلم والقوة والعدل والرحمة.

.٦المهتمون بالإعجاز النفسي والتربوي والحضاري في القرآن: يجدون فيه تحليلا ً متخصصاً لهذه الجوانب.

.٧كل مسلم يريد تطبيق القرآن في حياته اليومية: لأن الكتاب يترجم الآيات إلى سلوكيات يومية ومهارات حياتية.

سابعاً: أهداف المؤلف وغاياته

.١بيان التناسب التكاملي بين سورتي الواقعة والحديد: وإظهار أنها تشكلان منهجاً تربوياً متكاملا ً من اليقين النظري إلى العمل العملي.

.٢استنباط المفاهيم القرآنية للبناء النفسي والتربوي والحضاري: من خلال تحليل الآيات واستخراج دلا

الاتها العميقة في مختلف المجالات.

٣.تحويل الآيات إلى محرك سلوكي: بغية جعل القرآن منهج حياة عملي، وليس مجرد تلاوة وحفظ.

٤.ترسيخ عقيدة التوحيد في النفوس: من خلال عرض أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وبيان أنها الأساس الذي تبنى عليه كل مفاهيم السورة.

٥.علاج أمراض القلوب: من خلال معالجة النفاق، قسوة القلب، البخل، الكبر، التعلق بالدنيا، الخوف من المخلوقين.

٦.بيان حقيقة الدنيا: وكشف زيفها وزينتها الخادعة، وتوجيه طاقة التنافس من الدنيا إلى الآخرة.

٧.ترسيخ الإيمان بالقضاء والقدر: وبيان أن كل شيء مكتوب في كتاب من قبل، مما يمنح المؤمن الطمأنينة والثبات.

٨.بيان أهمية القوة) الحديد (في إقامة العدل: مع التأكيد على أن القوة ليست غاية بل وسيلة للحماية والبناء.

٩.استعراض تاريخ الرسل: للعبرة والاعتبار، وبيان وحدة الرسالة الإلهية، والتحذير من التحريف والا بتداع.

١٠.تعزيز الأمل والرجاء في نفوس المؤمنين: من خلال الوعد بالكفلين من الرحمة والنور والمغفرة، وبيان أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

١١.بناء رؤية حضارية متكاملة: تجمع بين الروح والمادة، والدين والدنيا، والعدل والقوة، والعلم و العمل.

ثامناً: المفاهيم المستخلصة من الكتاب

١.مفهوم التدرج التربوي: الانتقال من مرحلة اليقين النظري) سورة الواقعة (إلى مرحلة العمل و المواجهة) سورة الحديد.(

٢.مفهوم التسبيح الكوني: أن كل المخلوقات تسبح لله، وأن الإنسان مطالب بأن يكون متسقاً مع هذا الناموس الكوني.

٣.مفهوم الاستخلاف في المال: أن المال مال الله، والإنسان مستخلف فيه، وهو مسؤول عن إنفاقه في طاعة الله.

٤.مفهوم النور الإيماني: أن الإيمان يتحول إلى نور يسعى بين يدي المؤمن يوم القيامة، وأن النفاق يتحول إلى ظلمة.

٥.مفهوم القسوة القلبية: أن طول الأمد والغفلة والتعلق بالدنيا يسبب قسوة القلب، وأن علاجها ب القرآن والصدقة والتذكر.

٦.مفهوم حقيقة الدنيا: أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، وأنها متاع الغرور، ومصيرها إلى زوال ك الزرع الذي يخضر ثم يصفر ثم يتحطم.

٧.مفهوم المسابقة إلى الآخرة: تحويل طاقة التنافس من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية، والمسارعة إلى مغفرة الله وجنته.

٨.مفهوم التسليم بالقضاء والقدر: أن كل مصيبة مكتوبة في كتاب من قبل، مما يمنح المؤمن الطمأنينة ويمنعه من الحزن المفرط والفرح المذموم.

٩.مفهوم التحرر من البخل والكبر: أن البخل والكبر من أمراض القلوب التي تمنع النصرة، وأن الله هو الغني الحميد.

.١٠مفهوم القوة المتوازنة: أن الحديد) القوة (نعمة من الله، لها وجهان: بأس شديد لردع الظالمين، ومنافع للناس في البناء والعمران.

.١١مفهوم النصرة بالغيب: أن الجهاد الحقيقي هو ما كان خالصاً لله، لا يرجو من الناس جزاء ولا شكوراً.

.١٢مفهوم وحدة الرسالة: أن جميع الرسل جاءوا برسالة واحدة هي التوحيد، وأن النبوة والكتاب في ذرية نوح وإبراهيم.

.١٣مفهوم التحذير من الابتداع: أن الرهبانية التي ابتدعها النصارى دليل على أن النية الحسنة لا تبرر الابتداع في الدين.

.١٤مفهوم الفضل الإلهي: أن الفضل كله بيد الله، يؤتيه من يشاء، وليس محصوراً في أحد.

.١٥مفهوم التوازن الحضاري: أن الحضارة الإسلامية تقوم على التوازن بين الروح والمادة، والدين و الدنيا، والعدل والقوة، والعلم والعمل.

تاسعاً: لماذا يجب أن تقرأ الكتاب؟

.١لتفهم سورة الحديد فهماً عميقاً متكاملا ً: لا يقتصر على المعاني اللغوية بل يتعداها إلى الرسائل النفسية والتربوية والسلوكية والحضارية.

.٢لتتعلم كيف تحول القرآن إلى منهج حياة: الكتاب يقدم تطبيقات عملية يومية ومهارات حياتية لكل آية، مما يجعلك تتفاعل مع القرآن تفاعلا ً عملياً.

.٣لتكتشف حقيقة الدنيا وكيفية التعامل معها: بتحليل أوصاف الدنيا الخمسة) لعب، لهو، زينة، تفاخر، تكاثر (والمثل الزراعي بسرعة زوالها.

.٤لتبني شخصيتك الدعوية والتربوية: إذا كنت داعية أو مربياً، ستجد في الكتاب توجيهاً شاملا ً لصفات الداعية والقائد من خلال الآيات.

.٥لتفهم قضية النفاق وأسباب الهلاك: من خلال تحليل أسباب دخول المنافقين النار) فتنة النفس، التربص، الريبة، الأماني الكاذبة، الغرور بالله.(

.٦لتترسخ في قلبك عقيدة القضاء والقدر: ببيان أن كل شيء مكتوب في كتاب من قبل، مما يمنحك الطمأنينة والثبات في الشدائد.

.٧لتتعلم كيف توازن بين الدين والدنيا: من خلال الرؤية المتوازنة التي تقدمها السورة بين العمل للدنيا والعمل للآخرة.

.٨لتكتشف أهمية القوة في إقامة العدل: مع التأكيد على أن القوة ليست غاية بل وسيلة للخير.

.٩لتتعرف على تاريخ الرسل والعبر المستفادة: من خلال استعراض تاريخ الأنبياء من نوح إلى عيسى، والتحذير من الانحراف والابتداع.

.١٠لتجدد أملك ورجاءك في رحمة الله: من خلال الوعد بالكفلين من الرحمة والنور والمغفرة، وبيان أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

عاشراً: مخرجات الكتاب

.١فهم متكامل لسورة الحديد: من حيث أسباب النزول، التفسير اللغوي والبياني، الأهداف والمقاصد، و التصوير البياني، والأبعاد المختلفة.

.٢حصيلة من المفاهيم النفسية والتربوية والدعوية والحضارية: يمكن الاستفادة منها في بناء الذات وتربية الآخرين وبناء المجتمع والحضارة.

.٣برنامج عملي يومي مستخلص من الآيات: يتضمن) التقوى، تجديد الإيمان، الإنفاق، التسبيح، التذكر، المسابقة، التسليم، التحرر من البخل، التوبة.(

.٤معادلات سلوكية تحويلية: تحول كل آية إلى محرك سلوكي وسلوك عملي في مجالات متعددة.

.٥خواطر تدبرية تثري الفكر والقلب: وتجعل القارئ يستصحب الآيات في حياته اليومية.

.٦وقفات تدبرية عملية: تساعد على الاستثمار العملي للآيات في بناء النفس والمجتمع.

.٧تصور كامل لمنهج البناء الدعوي والحضاري من خلال السورة: من التسبيح إلى الإنفاق إلى الجهاد إلى التمكين.

.٨أدوات تحليلية: يمكن تطبيقها على باقي سور القرآن) تحليل لغوي، نفسي، تربوي، بلاغي، سلوكي، حضاري.(

.٩إجابات عن أسئلة محرك عميقة: حول الإيمان، النفاق، الإنفاق، القضاء والقدر، حقيقة الدنيا، الجهاد، النصرة بالغيب.

.١٠خطة عملية للداعية والمربي والمؤمن: للنهوض من حال الغفلة إلى حال اليقظة، ومن حال الا نكماش إلى حال المواجهة، ومن حال الضعف إلى حال القوة، ومن حال التعلق بالدنيا إلى حال التعلق بالآخرة.

.١١مهارات حياتية ومعرفية وعملية: يمكن تطبيقها يومياً في مختلف مجالات الحياة.

الحادي عشر: أقوال مأثورة وردت بلسان المؤلف

.١"الواقعة تبني اليقين، والحديد تبني العمل .لا يُطلب من الإنسان الإنفاق وبذل النفس والمال إلا بعد أن يتطهر قلبه ويستيقن بالحقائق المطلقة."

.٢"التسبيح هو المفتاح الإدراكي الذي يجعلك ترى يد الله في كل حركية كونية من حولك."

.٣"الداعية الذي يفتقر لليقين ينهار أمام أول امتحان للواقع."

.٤"لا يطلب من الإنسان الإنفاق وبذل النفس والمال إلا بعد أن يتطهر قلبه ويستيقن بالحقائق المطلقة."

.٥"إن أي علم لا يورث خضوعاً ولا ينتج صلابته هو علم لم يكتمل بناؤه في نفس صاحبه."

.٦"الحديد رمز للقوة المادية، ولكنه يظل أداة تدمير إذا افتقد البوصلة الأخلاقية."

.٧"التسليم بالقدر ليس سلبياً، بل هو الذي يحررك من أسر الماضي والخوف من المستقبل."

.٨"الدنيا متاع الغرور، لا تغتر بها، واجعلها وسيلة لا غاية."

.٩"المال ليس ملكك، بل أنت مستخلف فيه .فكيف تخاف على ما لا تملك؟"

.١٠"البخل ليس مجرد إمساك للمال، بل هو إمساك للقلب عن الله."

.١١"النور يوم القيامة يحتاج إلى صدق في السر .تعاهد مع الله على أعمال خفية لا يعلمها إلا هو."

.١٢"من لا يصلحه القرآن، يصلحه الحديد."

.١٣"النصرة بالغيب هي أعلى درجات الإخلاص، أن تنصر الله وأنت لا تراه، ولكنك توقن أنه يراك."

.١٤"الرهبانية التي ابتدعها النصارى دليل على أن النية الحسنة لا تبرر الابتداع في الدين."

.١٥"الفضلة بيد الله يؤتيه من يشاء .لا تحقرن أحداً، فربما كان عنده من الفضل ما ليس عندك."

.١٦"المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء: يخاف من تقصيره، ويرجو فضل ربه."

.١٧"القوة ليست للتمدد فقط، بل للبناء والتعمير."

.١٨"الشفافية والصدق هما اللذان يمنعان النفاق من أن يتسلل إلى قلوب المؤمنين."

.١٩"لا تظن أن الحديث شر كله، فهو نعمة من الله إذا أحسنت استخدامه."

.٢٠"التسبيح الذي يسبقه تفكر ينتج عبادة مقصودة، حيث تعرف جيداً لماذا تعبد الله، وما هي غاية وجودك."

الخلاصة

.١كتاب "المفاهيم القرآنية من سورة الحديد" هو عمل تفسيري تحليلي متكامل، يخرج عن النمط التقليدي للتفسير إلى آفاق واسعة من التحليل النفسي والتربوي والسلوكي والدعوي والحضاري، مع ربط ذلك كله بالواقع المعاصر والتطبيق العملي.

.٢يقدم الكتاب سورة الحديد كمنهج متكامل للبناء الإيماني والسلوكي والحضاري، بدءاً من التسبيح الكوني والتعريف بالله، مروراً بدعوة الإيمان والإنفاق والجهاد، وانتهاءً بالوعد بالكفلين من الرحمة و النور والمغفرة.

.٣يعتمد المؤلف منهجاً تطبيقياً عملياً، يحول الآيات إلى معادلات سلوكية ووقفات تدبرية وأسئلة محرك ومهارات حياتية، مما يجعل القارئ شريكاً في التدبر وليس مجرد متلق.

.٤الكتاب يخاطب الدعاة والمربين والمؤمنين العاديين، ويقدم لهم أدوات عملية لبناء الذات، وفهم قضايا النفاق والإنفاق والجهاد، وترسيخ الإيمان بالقضاء والقدر، والاستعداد للقاء الله.

.٥من أبرز مميزات الكتاب: جمعه بين التفسير اللغوي والتحليل النفسي، وتوجيهه للدعاة والمربين، وابتكاره أدوات تدبرية غير مألوفة، وربطه للآيات بالواقع المعاصر، وتقديمه لرؤية حضارية متكاملة.

.٦المخرجات الأساسية للكتاب تشمل: فهماً متكاملا ً للسورة، ومفاهيم تربوية ودعوية ونفسية وحضارية، وبرنامجاً عملياً يومياً، ومعادلات سلوكية، وخواطر تدبرية، ووقفات تطبيقية، ومهارات حياتية متنوعة.

.٧القول الجامع للمؤلف: "سورة الحديد جاءت لتؤكد عملياً ما انتهت إليه سورة الواقعة نظرياً .ف التسبيح الذي أمر به النبي في ختام الواقعة، هو حقيقة كونية عامة بدأت بها سورة الحديد .إنها سورة الإنفاق والجهاد والتمييز بين الإيمان الصادق والمنافق."

.٨الكتاب باختصار هو خريطة طريق للمؤمن من التسبيح إلى التمكين، ومن اليقين النظري إلى العمل العملي، ومن العبادة الفردية إلى بناء الحضارة، ومن الخوف إلى الرجاء، بأسلوب يجمع بين التحليل العلمي والموعظة المؤثرة والتطبيق العملي والرؤية الحضارية الشاملة.

بسم الله الرحمن الرحيم
بطاقة تعريفية بسورة الحديد

أولا ً: عدد آيات السورة

عدد آيات سورة الحديد ٢٩ آية .وعدد كلماتها ٥٧٥ كلمة، وعدد حروفها ٢٤٧٥ حرفاً.

ثانياً: مكان نزول السورة

سورة الحديد مدنية باتفاق جمهور المفسرين .قال النقاش: إنها مدنية بإجماع المفسرين .غير أن بعض العلماء - كابن عطية وابن عاشور - ذهبوا إلى أن صدرها قد يكون مكياً، مع الإقرار بأن فيها آيات مدنية قطعاً .وذكر ابن عاشور أن الاختلاف في كونها مكية أو مدنية خلاف قوي لم يختلف مثله في غيرها .لكن الراجح أن معظم السورة مدني.

ثالثاً: ترتيب السورة

أ- الترتيب في المصحف المرتل: السورة السابعة والخمسون (٥٧) في ترتيب المصحف، وهي آخر سورة في الجزء السابع والعشرين، وتقع في الحزب الرابع والخمسين، والربعين السابع والثامن.

ب- الترتيب من حيث النزول: السورة الخامسة والتسعون (٩٥) في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الزلزلة وقبل سورة محمد) القتال .(وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "ما كان بين إس لامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية:} أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ {إلا أربع سنين".

رابعاً: أسماء السورة وسبب التسمية

.١أسماء السورة: تعرف سورة الحديد بهذا الاسم منذ عهد الصحابة، ولا يُعرف لها اسم آخر.

.٢سبب التسمية: سميت سورة الحديد بهذا الاسم لورود لفظ "الحديد" فيها، وتحديداً في قوله تعالى: }وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) {الحديد: .(25 والحديد رمز للقوة والنفع، وهو من أهم العناصر التي عليها العماد في الازدهار العمراني والمظاهر المدنية والحضارية، ويُصنع منه الكثير من الأ دوات المفيدة في السلم والحرب .وهي السورة القرآنية الوحيدة التي تحمل اسم عنصر من العناصر المعروفة.

خامساً: الأجواء التي نزلت فيها السورة

.١في المدينة المنورة: نزلت في المدينة في المرحلة المدنية من الدعوة الإسلامية، أي بعد الهجرة النبوية.

.٢في السنة الرابعة للهجرة) تقريباً(: يستدل من قول ابن مسعود رضي الله عنه أن بداية السورة - آية الخشوع - نزلت بعد أربع سنوات من إسلامهم، أي حوالي السنة الرابعة للهجرة.

.٣جوهر الدعوة المدنية: تمتاز السورة بطابعها المدني الذي يركز على التشريع والتربية وتنظيم المجتمع، وتتناول قضايا: الجهاد، والإنفاق، وأحوال الناس قبل الفتح وبعده، ومواجهة النفاق، وبناء الدولة والمجتمع.

.٤ارتباطها بسورة الواقعة: خُتمت سورة الواقعة - وهي قبل الحديد - بطلب التسبيح لله، وافتتحت سورة الحديد بالتسبيح، فكان أول سورة الحديد واقعاً موقع التعليل لما في آخر سورة الواقعة.

سادساً: أسباب النزول

.١سبب نزول قوله تعالى:} لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ) {الآية(١٠ : روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: بينا النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال، إذ نزل جبريل عليه السلام وقال: "يا محمد، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال؟" فقال: "يا جبريل، أنفق ماله قبل الفتح عليّ"، فأقرأه من الله السلام وقال: "قل له: أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟" فالتفت النبي إلى أبي بكر وأخبره، فبكى أبو بكر وقال: "على ربي أغضب؟ أنا عن ربي راض".

.٢سبب نزول قوله تعالى:} أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) {الآية(١٦ : وردت عدة روايات:

· عن عائشة رضي الله عنها: خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون، فسحب رداءه محمراً وجهه، وقال: "أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه غفر لكم؟ ولقد أنزل عليّ في ضحككم آية:} أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ{".
· وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي فقالوا: حدثنا عما في التوراة، فنزلت هذه الآية.
· وعن مصعب بن سعد: أن الصحابة طلبوا من النبي ﷺ أن يقصص عليهم، فأنزل الله:} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ{، ثم طلبوا أن يحدثهم، فأنزل:} اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ{، ثم طلبوا أن يذكرهم، فأنزل:} أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ.{

سابعاً: أهداف السورة وأغراضها

.١الهدف العام: إعداد الأمة إيمانياً ومادياً لنصرة الدين، وتجاوز عقبات البخل وقسوة القلب، وبناء القوة الإيمانية والمادية معاً.

.٢التعريف بالله وصفاته: الحديث عن مظاهر قدرة الله تعالى وصفاته الجليلة، وإثبات أنه الأول والآخر والظاهر والباطن، وأن له ملك السماوات والأرض.

.٣دعوة المؤمنين إلى التمسك بتعاليم دينهم: وتجديد الإيمان بالله ورسوله.

.٤الحث على الإنفاق والجهاد: تحفيز المؤمنين على البذل والعطاء في سبيل الله، وبيان فضل الإنفاق قبل الفتح.

.٥التمييز بين المؤمن الصادق والمنافق: كشف حقيقة النفاق وأسباب الهلاك، وبيان مصير كل فريق يوم القيامة.

.٦علاج أمراض القلوب: معالجة قسوة القلب، والبخل، والكبر، والتعلق بالدنيا.

.٧بيان حقيقة الدنيا: كشف زيف الدنيا وزينتها الخادعة، وتوجيه الهمة إلى الآخرة.

.٨ترسيخ الإيمان بالقضاء والقدر: بيان أن كل شيء مكتوب في كتاب من قبل، لمنح المؤمن الطمأنينة.

.٩بيان أهمية القوة: إثبات أن القوة) الحديد (نعمة من الله، وأنها ضرورية لحماية الدين وإقامة العدل، مع التأكيد على أنها وسيلة لا غاية.

.١٠بناء المجتمع على أساس العقيدة: تربية المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية والخلق الكريم والتشريع الحكيم.

ثامناً: الموضوع الرئيسي للسورة

الموضوع الرئيسي لسورة الحديد هو "الإعداد الإيماني والمادي لتحقيق النصرة والتمكين" .تدور السورة حول:

· إثبات قدرة الله وأسمائه وصفاته.
· دعوة المؤمنين إلى تجديد الإيمان والتقوى.
· الحث على الإنفاق والجهاد في سبيل الله.
· التمييز بين المؤمنين والمنافقين.
· بيان حقيقة الدنيا وسرعة زوالها.
· التأكيد على أن القوة المادية) الحديد (ضرورية، ولكنها ليست غاية في ذاتها.
· استعراض تاريخ الرسل والعبر المستفادة.
· الوعد بالرحمة والمغفرة والنور للمؤمنين.

تاسعاً: محاور السورة والمواضيع التي تتحدث عنها

١.التوحيد وأسماء الله الحسنى) الآيات١ -(٦: التسبيح الكوني، وبيان أسماء الله: العزيز، الحكيم، مالك السماوات والأرض، المحيي المميت، القدير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، وخلق السماوات والأ رض في ستة أيام، والاستواء على العرش.

٢.دعوة الإيمان والإنفاق) الآيات٧ -(١١: الأمر بالإيمان بالله ورسوله، والإنفاق مما جعل الله الإنسان مستخلفاً فيه، وبيان الأجر الكبير للمؤمنين المنفقين، وتفاضل السابقين في الإنفاق والجهاد.

٣.مشهد يوم القيامة والتمييز بين الفريقين) الآيات١٢ -(١٥: وصف نور المؤمنين يوم القيامة، وظلمة المنافقين، وطلب المنافقين الاقتباس من نور المؤمنين، وضرب السور بينهم.

٤.العتاب الإلهي والتربية القلبيّة) الآيات١٦ -(١٧: عتاب المؤمنين على بطء خشوع قلوبهم، والتحذير من قسوة القلب بطول الأمد، وإحياء الأرض بعد موتها كمثل لإحياء القلوب.

٥.الصدقة والقرض الحسن وحقيقة الدنيا) الآيات١٨ -(٢١: وصف المتصدقين والمتصدقات، والقرض الحسن، والأجر الكريم، وبيان حقيقة الدنيا) لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر(، والمثل الزراعي بسرعة زوالها، والأمر بالمسابقة إلى المغفرة والجنة.

٦.الإيمان بالقضاء والقدر والتحرر من البخل) الآيات٢٢ -(٢٤: بيان أن كل مصيبة مكتوبة في كتاب من قبل، والحث على عدم التأسي على ما فات وعدم الفرح بما آتى، والتحذير من الكبر والفخر و البخل.

٧.القوة والعدل) الآية(٢٥ : إرسال الرسل بالبينات والكتاب والميزان لإقامة القسط، وإنزال الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، والنصرة بالغيب.

٨.تاريخ الرسل والتحذير من الابتداع) الآيات٢٦ -(٢٧: استعراض تاريخ الرسل من نوح إلى عيسى، وبيان أن النبوة والكتاب في ذريتهما، وذكر الرهبانية التي ابتدعها النصارى.

٩.النداء الختامي والوعد بالكفلين) الآيات٢٨ -(٢٩: نداء المؤمنين بتقوى الله والإيمان برسوله، والوعد ب الكفلين من الرحمة والنور والمغفرة، وبيان أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

عاشراً: خصائص السورة وفضائلها

١.من السور المدنية: سورة الحديد مدنية بإجماع المفسرين.

٢.من السور المسبحات: تبدأ السورة بفعل "سَبّحَ"، وهي من السور التي تبدأ بتسبيح الله.

٣.السورة الوحيدة التي تحمل اسم عنصر: سورة الحديد هي السورة القرآنية الوحيدة التي تحمل اسم عنصر من العناصر المعروفة.

٤.آخر سورة في الجزء السابع والعشرين: ترتيبها٥٧ ، وهي آخر سورة في الجزء السابع والعشرين.

٥.من سور المفصل: سورة الحديد من المفصل.

٦.فضل قراءتها: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: "من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة فريضة أدمنها، لم يعذبه الله حتى يموت أبداً" .وورد: "من قرأ سورة الحديد كان في جملة من يلحق بالأنبياء عليهم السلام".

٧.ارتباطها بسورة الواقعة: ختمت سورة الواقعة بالتسبيح، وافتتحت سورة الحديد بالتسبيح، مما يظهر التناسب المحكم بين السورتين.

٨.فيها إشارة إلى إعجاز علمي: ذكر الحديد وإنزاله من السماء، وقد أثبت العلم الحديث أن الحديد ليس أرضي المنشأ، بل نزل من الفضاء.

الحادي عشر: ما انفردت به السورة

١.الاسم المرتبط بعنصر مادي: انفردت سورة الحديد بأنها السورة الوحيدة في القرآن التي تحمل اسم عنصر كيميائي.

٢.ذكر إنزال الحديد بصيغة "أنزلنا": قوله تعالى:} وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ {يشير إلى حقيقة علمية أن الحديد لم ينشأ في الأرض، بل نزل من السماء.

٣.التفصيل في صفات الله الأربعة المتقابلة: جمعت السورة صفات الله المتقابلة في آية واحدة:} هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ{، وهي صياغة فريدة في القرآن.

٤.الجمع بين القوة المادية والمعنوية: انفردت السورة بالجمع بين الحديث عن الحديد) القوة المادية (والإيمان والكتاب والميزان) القوة المعنوية (في سياق واحد.

٥.وعد الكفلين من الرحمة: وعد الله للمؤمنين بهذه الأمة بالكفلين) الضعفين (من الرحمة، وهو وعد خاص بهذه الأمة.

٦.مشهد السور بين المؤمنين والمنافقين: التصوير الدقيق لمشهد السور الذي يضرب بين المؤمنين و المنافقين يوم القيامة، وهو مشهد فريد في القرآن.

٧.ذكر الرهبانية وابتداعها: انفردت السورة بذكر الرهبانية التي ابتدعها النصارى، مع بيان أنهم ما رعوها حق رعايتها.

الثاني عشر: مقاصد السورة

١.إثبات وحدانية الله وكماله: التعريف بالله من خلال أسمائه وصفاته، وإثبات أنه الأول والآخر و الظاهر والباطن، وأن له الملك والقدرة المطلقة.

٢.تزكية النفوس وتربية القلوب: معالجة أمراض القلوب: قسوة القلب، البخل، الكبر، النفاق، التعلق بـ الدنيا، والخوف من المخلوقين.

٣.الحث على الإنفاق والجهاد: تحفيز المؤمنين على البذل والعطاء في سبيل الله، وبيان فضل السبق في الإنفاق والجهاد.

٤.التمييز بين المؤمن والمنافق: كشف حقيقة النفاق وأسباب الهلاك، وبيان مصير كل فريق يوم القيامة.

٥.بيان حقيقة الدنيا: كشف زيف الدنيا وزينتها الخادعة، وتوجيه الهمة إلى الآخرة، وتذكير الإنسان بأن الدنيا متاع الغرور.

٦.ترسيخ الإيمان بالقضاء والقدر: بيان أن كل شيء مكتوب في كتاب من قبل، لمنح المؤمن الطمأنينة والثبات.

٧.إقامة العدل والقسط: بيان أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتاب والميزان لإقامة العدل في الأرض، وأن القوة) الحديد (وسيلة لحماية هذا العدل.

٨.استعراض تاريخ الرسل للعبرة: تذكير الأمة بتاريخ الأنبياء والرسل، والتحذير من الانحراف والابتداع في الدين.

٩.الوعد بالرحمة والمغفرة: بشارة المؤمنين بالكفلين من الرحمة، والنور، والمغفرة، وبيان أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

١٠.بناء الأمة إيمانياً ومادياً: إعداد الأمة للنهضة والتمكين، بالجمع بين القوة الإيمانية والقوة المادية.

الخلاصة

١.سورة الحديد سورة مدنية بإجماع المفسرين، عدد آياتها ٢٩ آية، وهي السورة السابعة والخمسون

في ترتيب المصحف، والخامسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الزلزلة.

.٢سميت بهذا الاسم لورود لفظ "الحديد" في الآية الخامسة والعشرين، وهي السورة القرآنية الوحيدة التي تحمل اسم عنصر كيميائي.

.٣نزلت في المدينة المنورة، في جوهر الدعوة المدنية التي تركز على التشريع والتربية وتنظيم المجتمع، وتتناول قضايا الجهاد والإنفاق ومواجهة النفاق وبناء الدولة.

.٤تدور السورة حول موضوع "الإعداد الإيماني والمادي لتحقيق النصرة والتمكين"، وتجمع بين القوة المعنوية) الإيمان والكتاب والميزان (والقوة المادية) الحديد.(

.٥من أبرز محاورها: التعريف بالله وأسمائه، دعوة الإيمان والإنفاق، مشهد يوم القيامة ونور المؤمنين ، العتاب الإلهي للمؤمنين، بيان حقيقة الدنيا، الإيمان بالقضاء والقدر، القوة والعدل، تاريخ الرسل، و الوعد بالكفلين من الرحمة.

.٦تمتاز السورة بأنها من المسبحات، وأنها السورة الوحيدة التي تحمل اسم عنصر، وأنها تجمع بين القوة المادية والمعنوية، وتحتوي على مشاهد فريدة كالسور بين المؤمنين والمنافقين، ووعد الكفلين الخاص بهذه الأمة.

.٧مقاصد السورة تتلخص في: إثبات وحدانية الله، تزكية النفوس، الحث على الإنفاق والجهاد، التمييز بين المؤمن والمنافق، بيان حقيقة الدنيا، ترسيخ الإيمان بالقضاء والقدر، إقامة العدل، استعراض تاريخ الرسل للعبرة، والوعد بالرحمة والمغفرة، وبناء الأمة إيمانياً ومادياً.

.٨السورة تمثل "خريطة طريق للنهضة"، حيث تبدأ بالتسبيح والتعريف بالله، وتنتقل إلى دعوة الإ يمان والإنفاق، ثم إلى التربية القلبية وعلاج أمراض النفوس، ثم إلى بيان حقيقة الدنيا، ثم إلى الحديث عن القوة والعدل، وتنتهي بالوعد بالكفلين من الرحمة والنور والمغفرة، لتجمع المؤمن بين الخوف والرجاء، وبين القوة والرحمة، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم
المفاهيم القرآنية من سورة الحديد
مقدمه تمهيديه كمدخل لتفسير واستنباط مفاهيم سورة الحديد
اولا التناسب بين خاتمه سورة الواقعة وافتتاحية سورة الحديد والارتباط الموضوعى بينهما
يُمثل الانتقال من خاتمة سورة الواقعة إلى افتتاحية سورة الحديد نموذجاً فريداً من التناسب القرآني الذي يربط بين **"اليقين الروحي"** و **"التنفيذ العملي"** في منهج التغيير.
إليك بيان هذا التناسب والارتباط الموضوعي:
1. التناسب في سياق "الحق"
* **خاتمة الواقعة:** تنتهي السورة بتقرير حقيقة إيمانية كبرى ومطلقة، وهي أنّ هذا القرآن وحي من الله، قال تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، ثم تختتم بـ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ.
* **افتتاحية الحديد:** تبدأ السورة بالإعلان عن تسبيح المخلوقات كلها لله تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ ما في السَّماواتِ وَالأَ َرض، وكأنما جاءت "الحديد" لتؤكد عملياً ما انتهت إليه "الواقعة" نظرياً؛ فالتسبيح الذي أُمِر به النبي ﷺ في ختام الواقعة، هو حقيقة كونية عامة بدأت بها سورة الحديد.
2. الارتباط الموضوعي: من "الاستيعاب" إلى "التطبيق"
يرتبط الموضوعان في سياق البناء النفسي والعملي:
* **الواقعة (الاستيقان):** تركز على تثبيت "اليقين" بالمبدأ والمنتهى (الجنة والنار، قدرة الله، عظمة القرآن). هي سورة تبني في قلب المؤمن "الرؤية الكلية" للوجود.
* **الحديد (التكليف):** بعد أن استقر اليقين في ختام الواقعة، تأتي سورة الحديد لتنقل هذا اليقين إلى "ميدان العمل والابتلاء". فهي سورة **"الإنفاق، والجهاد، والتمييز بين الإيمان الصادق والمنافق"**.
* **الخلاصة:** لا يُطلب من الإنسان الإنفاق وبذل النفس والمال (في سورة الحديد) إلا بعد أن يتطهر قلبه ويستيقن بالحقائق المطلقة (في سورة الواقعة).
3. التناسب في "التنزيه والتعظيم"
* في ختام **الواقعة**، خُتمت بـ سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ، وهي صيغة أمر بالتنزيه.
* في افتتاح **الحديد**، جاءت الجملة الخبرية سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالأَ َرض، وكأنها استجابة كونية واسعة لهذا الأمر. وهذا الانتقال من "الأمر بالتسبيح" إلى "واقع التسبيح الكوني" يعكس سعة الربوبية التي يعيش في ظلالها طالب المعرفة.
4. دلالة ذلك لـ "طالب المعرفة"
يرى المحللون للمناهج الفكرية أن هذا الارتباط يُعلم طالب المعرفة أن **العلم لا يظل حبيس التنظير**:
* إذا كان العلم (الواقعة) يوصلك إلى التسبيح والتعظيم، فإن هذا التسبيح يجب أن يترجم إلى "حديد" (سورة الحديد)؛ أي إلى قوة في الحق، وصلابة في الموقف، واستعداد للبذل.
* إن أي علم لا يورث "خضوعاً" (تسبيحاً) ولا يُنتج "صلابة" (حديداً) هو علم لم يكتمل بناؤه في نفس صاحبه.
بهذا، يكون الانتقال من خاتمة الواقعة إلى افتتاحية الحديد انتقالاً من **"معرفة الله تعالى"** إلى **"العمل بأمره في الأرض"**، وهو المسار الطبيعي لترقي السالك في درجات المعرفة والمسؤولية.
ثانيا:دور هذا الانتقال والترتيب فى إعداد الدعاه ودورها في بناء الانسان والمجتمع والحضاره الاسلا ميه
إنّ هذا الترتيب المحكم في الانتقال من "سورة الواقعة" (التي تؤسس للرؤية الكلية واليقين) إلى "سورة الحديد" (التي تؤسس للبذل والحركة) يضع خريطة طريق متكاملة لإعداد الداعية، ومن خلاله يتم بناء الإنسان والمجتمع والحضارة. يمكن تفصيل ذلك في ثلاثة مستويات:
1. إعداد الداعية: من "بصيرة العقيدة" إلى "حكمة التمكين"
الداعية الذي لا يمرّ بمرحلة "الواقعة" (التشبع بالقرآن، وتعظيم الله، واليقين بالجزاء) سيكون دعاؤه "هباءً" أو مجرد شعارات خالية من الروح.
* **بناء الداعية:** هذا الانتقال يُعلمه أنّ "التسبيح" (الخضوع لله) هو الذي يمنحه "الحديد" (الصلابة في الحق). فالداعية الذي يفتقر لليقين (مقام الواقعة) ينهار أمام أول امتحان للواقع.
* **التزكية قبل التمكين:** الترتيب يؤصل أنّ قوة الداعية لا تأتي من كثرة الكلام، بل من استقرار الحقائق الغيبية في قلبه، مما يجعله يدعو إلى الله بوقار المؤمن لا بحماس المتهور.
2. بناء الإنسان: التوازن بين "القلب المستنير" و"الجسد الفاعل"
الإنسان في المنظور الإسلامي ليس كائناً روحياً محضاً، ولا مادياً محضاً، بل هو جامع بينهما:
* **العمق الإنساني:** سورة الواقعة تملأ قلب الإنسان بالمعاني التجريدية السامية (التفكر، التوحيد، استحضار الآخرة).
* **الفاعلية الإنسانية:** سورة الحديد تدفع هذا الإنسان للتعامل مع "الحديد" (المادة، المال، السلطة ، إدارة الموارد، الجهاد).
* **النتيجة:** هذا الانتقال يمنع انفصام الشخصية لدى المسلم؛ فلا يترهبن فيهرب من الحياة، ولا

يغرق في المادية فينسى الغاية. الإنسان المتوازن هو الذي يرى "الحديد" في يده وقلبه متعلق بـ "الواقعة" (الآخرة).
3. بناء المجتمع والحضارة: "سلطان الروح" يُحرك "قوة الحديد"
الحضارة الإسلامية لا تُبنى بالحديد وحده، بل بالحديد الذي يُحركه الوعي.
* **أخلاقيات القوة:** سورة الحديد تبدأ بـ سَبَّحَ لِلّهِ وتنتهي ببيان فضل الله، لتقول إن القوة (الحديد) إذا تجردت من التسبيح (الصلة بالله) تحولت إلى طغيان ودمار. لذا، فإن حضارة الإسلام هي "حضارة حديد مسبح"؛ أي قوة مادية منضبطة بقيم روحية.
* **تماسك المجتمع:** المجتمع الذي يتشرب قيم "الواقعة" (العدل، الرحمة، الجزاء) هو المجتمع الذي يستطيع حمل أمانة "الحديد" (الإنفاق، الدفاع عن المستضعفين، إقامة القسط). فالحضارة الإسلامية قامت على هذا التوازن: **زهد في الدنيا مع قدرة على إدارتها، وتعلق بالآخرة مع بناء للأرض.**
خلاصة الرؤية:
إنّ طالب المعرفة يدرك من هذا الترتيب أن **"الحضارة" هي نتاج تفاعل مستمر بين عقل مستنير (الواقعة) ويدٍ تعمل بإتقان (الحديد)**. فإذا اختل هذا الميزان – بأن استغرق الناس في المادة دون روح، أو في الروح دون إتقان للعمل – فقدت الأمة مقومات شهودها الحضاري.
هذا الترابط الموضوعي يُعيد صياغة العقل المسلم ليكون "فاعلاً في الواقع" بقدر ما هو "متصلٌ بالمطلق"، وهذا هو جوهر السر في قدرة الإسلام على بناء حضارة استمرت قروناً؛ لأنها لم تكن قائمة على "الحديد" فقط، بل على "الحديد" الموجه بـ "التسبيح واليقين".
ثالثا اهميه استحضار هذا التوازن في واقعنا المعاصر
باعتباره المدخل الاساسي لمعالجه أزمه التنظير المنفصل او العمل العشوائي التي تظهر في بعض اوساط طلبه العلم اليوم
نعم، إن استحضار هذا التوازن هو** المدخل الجذري والضروري**، بل ربما يكون "علاج الأزمة" في واقعنا المعاصر الذي يعاني من انفصام حاد بين "المنصة" و"الميدان". ويمكن تأصيل ذلك من خلال مخرجات هذا التوازن في واقع طالب العلم:
1. معالجة "التنظير المنفصل" بالتحويل إلى "رؤية فاعلة"
مشكلة التنظير المنفصل غالباً ما تنبع من تحول "العلم" إلى غاية في ذاته (مجموعة من المعلومات)، بينما في الترتيب القرآني) من الواقعة إلى الحديد(، العلم هو** "مقدمة للفعل".**
* طالب العلم حين يدرك أنّ بلوغ "مقام الواقعة") اليقين والتعظيم (يستلزم بالضرورة النزول إلى "ساحة الحديد") العمل والبذل(، فإنه يتوقف عن اعتبار المعرفة مجرد ترف فكري أو حشو ذهني.
* هذا الاستحضار يحوّل طالب العلم من "باحث عن النصوص" إلى "مستوعب للمقاصد"، حيث يصبح كل حكم شرعي يدرسه مربوطاً بمدى تأثيره في إصلاح النفس أو حركة المجتمع.
2. معالجة "العمل العشوائي" بـ "المنهجية القرآنية"
العمل العشوائي غالباً ما يكون ردة فعل عاطفية تفتقر إلى "الأساس العقدي المتين".
* عندما يستحضر طالب العلم أن "الحديد") قوة التأثير (لا قيمة له في ميزان الله إلا إذا صدر عن "تسبيح") إخلاص وانضباط شرعي (-كما بدأت به سورة الحديد-، فإنه يدرك أن العشوائية في العمل هي خلل في "المنطلقات الروحية".
* التوازن يفرض على طالب العلم التمهل في "التزكية") الواقعة (قبل التسرع في "الإنفاق" أو "القيادة") الحديد(، مما يجعل عمله نابعاً من بصيرة لا من اندفاع، وموجهاً بضوابط الشرع لا بأهواء الواقع.
3. التوازن كـ "صمام أمان" للهوية
إن أزمة طالب العلم اليوم ليست في "قلة المعلومات"، بل في "تشتت البوصلة".
* التوازن بين) الواقعة والحديد (هو ما يحمي طالب العلم من السقوط في "فخ الدنيوية") عندما يغرق في العمل دون روح (أو "فخ الانعزال") عندما يغرق في الروحانيات دون عمل.(
* هذا التوازن يُنشئ شخصية "الراشد"، الذي يقرأ الواقع بقلب متصل بالله، ويتحرك فيه بوعي المحصن بالبصيرة، مما يجعله قادراً على تقديم حلول عملية لمشكلات الأمة، لا مجرد مقالات نظرية لا تمس الواقع.
4. الخلاصة: طالب العلم "القائد"
طالب العلم الذي يتبنى هذا المنهج التكاملي لا يعود "مستهلكاً للمعرفة"، بل يصبح** "مهندساً للوعي" .**هو الذي يُزاوج بين ثقل "الواقعة") عمق الفهم (وصلابة "الحديد") قوة التنفيذ.(
لذلك، فإن المدخل لمعالجة هذه الأزمات ليس في ابتكار مناهج جديدة، بل في** إعادة قراءة المنهج القرآني في الترتيب والبناء**، واستلهام الروح التي كانت تربط بين آية الوجود وآية العمل .إنّ استحضار هذا التوازن هو ما يجعل العلم "ميراثاً حياً" يغير وجه التاريخ، لا "أرشيفاً معرفياً" يتكدس في المكتبات والصدور دون أثر .وهذا ما يتضح من خلال الاتى

القسم الاول
الآيات (1-6) من سورة الحديد:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۖ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (1) لهُ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الأَوّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثمّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَينَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لهُ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(6)

مقدمة تحليلية للقسم الأول من سورة الحديد (الآيات 1-6)أسس بناء الشخصية المسلمة والمجتمع و الحضارة

أولا ً: المناسبة والربط بين ختام سورة الواقعة وافتتاحية الحديد

ترتبط افتتاحية سورة الحديد ارتباطًا وثيقًا بختام سورة الواقعة التي أمر فيها النبي ﷺ بقوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ). فكأن سؤالا ً يتبادر إلى الذهن: من هو هذا الرب العظيم الذي أمرنا بتسبيحه؟ وما هي صفاته؟ لتأتي افتتاحية الحديد مجيبة عن هذا السؤال مباشرة: (سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۖ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)، فتُعرّف الإنسانَ بربه، وتكشف له أن كل ما في الكون يسبح بحمده.

ثانيًا: قضية السورة المحورية.. التوفيق بين الدين والدنيا

تطرح السورة معادلة جوهرية لطالما شغلت الفكر الإنساني، وهي: كيف نوفق بين متطلبات الدين للوصول إلى مرتبة "أهل الإيمان" و"السابقين المقربين"، وبين طموحات الدنيا وعمارتها؟ إن موضوع السورة الأساسي هو بيان كيفية تحقيق هذا الهدف، وكيف يكون بناء الإنسان، والمجتمع، والدولة، و الحضارة الإسلامية وفق هذا المقصد دون طغيان جانب على آخر. ولهذا افتُتحت السورة ببيان أهم عامل في تكوين الشخصية المسلمة، ألا وهو عامل الإيمان، لتؤكد أهمية عقيدة التوحيد وأثرها البالغ على كل مناحي الحياة.

ثالثًا: عقيدة التوحيد.. المنطلق الأساس للبناء الشامل

عقيدة التوحيد هي المرجعية التي ينطلق منها المسلم في كل شأن من شؤونه؛ فجميع النظم الا جتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، والسلوكيات الشخصية مرتبطة بهذا المنطلق، وجزئياتها تابعة له. وهذا ما ينتج عنه ما يسمى بـ"وحدة التصور"، حيث إن هيمنة عقيدة التوحيد على كل ما جاء به الإسلام -من عبادات، وقيم، ونظم تحكم العلاقة بين الإنسان وخالقه وسائر المخلوقات- تجعل كل ما يصدر عن المسلم من فكر، أو قول، أو عمل منسجمًا تمام الانسجام مع بعضه.

رابعًا: عصمة التوحيد من التناقض والانفصام

بهذا الانسجام والترابط، تنجو الشخصية المسلمة من الوقوع في التناقض الذي وقع فيه الكثيرون من المنتسبين لغير الإسلام. ففي المناهج غير الإسلامية، تنطلق مجالات الحياة من منطلقات منفصلة ومادية؛ مما يولد صراعًا حادًا بين مطالب الدنيا وطموحاتها من جهة، ومطالب الدين من جهة أخرى، أو يحدث فجوة عميقة بين المنظومة الأخلاقية وبين النظم العملية كالسياسة والاقتصاد. أما في الإس لام، فإن إطار التوحيد يجمع هذا الشتات، ويوحد منطلقاته، فتتحول الدنيا إلى مزرعة للآخرة، وتصبح الأخلاق موجّهًا حاكمًا للسياسة والاقتصاد لا منفصلة عنهما.

خامسًا: خلاصة الافتتاحية.. التعريف بالله أساس الانطلاق

لهذا كله، افتُتحت السورة بتعريف الإنسان بربه، ليدرك أن هذا الإله الذي يأمره بالتسبيح، ويهيمن على هذا الكون، هو نفسه الذي يضع له نظام حياته. فإذا استقر هذا التوحيد في القلب، انطلق الإنسان لبناء حضارة متوازنة وقوية بقوة "الحديد"، ونقية بنقاء "الإيمان".

ا

سادسا : توطئة قبل التأويل التفصيلي.. معالجة الأزمات الوجودية

قبل الخوض في التأويل التفصيلي لما تضمنته الآيات، تجدر الإشارة إلى أن مجمل ما تتناوله آيات هذا القسم هو بيان قواعد التوحيد التي يجب أن تبنى عليها العقيدة الإسلامية، وتصورات الفرد، و الجماعة، والحياة، والحضارة. وتحمل الآيات معاني التوحيد بشقيه:

· توحيد المعرفة والإثبات: بإفراد الله بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات.
· توحيد القصد والطلب: بإفراد الله بالعبودية والتوكل والاستعانة وحده.

وقد جاء تفصيل هذه القواعد لمعالجة الرواسب التي علقت بالفطرة البشرية، وإزالة الأزمات النفسية الناتجة عن طبيعة هذا المخلوق الذي وصفه الله بقوله: (وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا). فالإنسان كائن لا يكف عن طرح الأسئلة، وإرادته الحرة تشكل له أزمة وجودية كبرى عند غياب التوحيد، فيسأل نفسه: لماذا خُلقنا؟ ولماذا خُلق الكون والسموات والأرض؟ ولماذا خُلق إبليس والشر؟ ولماذا نموت وأين نذهب؟ وكيف نعود للحياة؟ ومتى يكون الإنسان مخيرًا ومتى يكون مجبورًا؟... إنها أسئلة وجودية تشكل أزمات نفسية عميقة يطرحها الإنسان منذ طفولته.

من هنا، جاءت هذه الآيات لتخرج الإنسان من أزمة تجاذب الأهواء والتخبط الفكري، من خلال بيان وافٍ حول تلك الأسئلة. فهي تعرّف الإنسان بربه المعبود الفرد الصمد، الذي ليس له ولد ولا مثيل ولا شبيه، وتعرّفه بأسمائه وصفاته، وبما يجب عليه تجاه هذا الإله العظيم. لقد خاطبت الآيات العقل، و القلب، والمشاعر، لإزالة الستائر التي تحجب الرؤية الحقيقية، ووهبت الإنسان منهجًا سماويًا فيه الخلا ص من الأزمات وتحقيق السعادة الحقيقية، منهجًا يقوم على التقدير السليم وينسجم مع سنن الله في الكون.وذلك من خلال القواعد الاتيه

القاعده الاولى
قاعده انسجام حركه الانسان مع حركه الكون
(سبح لله مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم)
اولا

المقدمة: الآية الأولى من سورة الحديد.. مفتاح التوازن والانسجام

تخيّل معي إنساناً يعيش في داخله صراعٌ دائم، تجاذبه أهواؤه يميناً وشمالا ً، فيتخبط في قراراته، ويضطرب في مساره. هنا تأتي الآية الأولى من سورة الحديد كقاعدة عظيمة من قواعد التوحيد، وكأنها طوق نجاة يُخرجه من هذه الأزمة.

إنها تعالج داء التخبط هذا من جذوره، لا بتقديم حلول سطحية، بل بتوجيهٍ جوهري للقلب والعقل معاً. إنها تدعونا لنشهد بأبصارنا وبصائرنا هذا الكون الفسيح، والنواميس الدقيقة التي تحكمه. تخبرنا ا لآية بأول وأهم قاعدة للحياة: كل مخلوق في هذا الكون، من أصغر ذرة إلى أعظم مجرة، خُلق لغاية واحدة، وهي عبادة الله وفق نواميس معينة، وبأداء هذه الوظيفة يتحقق كماله وغاية وجوده.

وأنت أيها الإنسان، بحاجة ماسة إلى ذلك المنهج الرباني الذي يضمن لك الانسجام بين حركتك في الحياة، وهذه النواميس الكونية التي تسير بلا كلل. ألا ترى معي أن هذه القاعدة تعني أن جوهر التوحيد وحقيقته هو العبودية والاستسلام والخضوع لله تعالى؟

وهذه ليست قاعدة نظرية، بل هي حقيقة عملية تتضح أمام ناظريك كل لحظة، فها هو الكون كله من حولك يخضع لله بالتسبيح والتنزيه، طوعاً وكرهاً. يخبرنا الحق سبحانه في محكم تنزيله، بذلك الإ يقاع البديع: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

دعنا نضع أصابعنا على الأفكار الرئيسية التي تنبض بها هذه الآية، قبل أن نبحر في أعماقها:

1.الكون كله في حالة عبادة دائمة لله: الله وحده هو الذي تألهه المخلوقات وتعبده، محبةً وتعظيماً وخضوعاً، وإليه وحده تفزع في الحوائج والنوائب.
2.الله هو المهيمن العزيز: هو الغالب الذي لا يُقهر، صاحب القدرة المطلقة التي خضع لها كل شيء.
3.أفعاله وأقواله حكمة مطلقة: كل ما يصدر عنه سبحانه يقوم على أساس رشيد وسليم، ويتناسب تماماً مع ما يصلح شأن المخلوقات.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة في الأعماق

والآن، لنبدأ معاً في تفكيك حروف وكلمات هذه الآية، لنستخرج منها كنوزها.

المحور الأول: في رحاب "سَبّحَ لِلّهِ"

انظر كيف افتتحت الآية بكلمة "سَبّحَ". إنها ليست مجرد كلمة عابرة، بل هي مفتاح إدراكي عظيم.

.1دلالة الافتتاح بـ "سَبّحَ" ومعناها:
في اللغة، التسبيح يعني الانتقال السريع، وكأن فيه إشارة إلى المسارعة في تنزيه الله وتبرئته من كل نقص .أما في حقيقته، فهو إعلان استقلال الله بالكمال المطلق، وتوجيه كل معاني الخضوع و التعظيم له وحده .هل شعرت يوماً أن مجرد استحضار معنى "سبحان الله" يضع عقلك في حالة من اليقظة الدائمة لجلال الله؟ هذا بالضبط ما تفعله هذه الكلمة، فهي تحررك من الاستغراق في المادة، وتفتح أفق التفكير في النواميس الإلهية التي أودعها الله في هذا الكون .التسبيح هو المفتاح الإ دراكي الذي يجعلك ترى يد الله في كل حركة كونية من حولك.
.2صيغة الماضي "سَبّحَ" ودلالتها في الثبات:
توقف معي قليلا ً عند سر استخدام الفعل الماضي "سَبّحَ" بدلا ً من المضارع "يُسَبّحُ" .الماضي هنا يشير إلى الثبوت والتحقق، أي أن التسبيح قانون كوني مستقر، وأصل أصيل في بنية المخلوقات لا ينفك عنها .إنها ليست حالة مؤقتة، بل هي هوية وجودية .أما المضارع فيوحي بالتجدد .من منظور تربوي، ألا ترى أن هذا يدعوك لتكون "مُسبّحاً" بالمعنى الثبوتي؟ أن يكون إيمانك وعملك كياناً مستقراً على منهج الله، لا مجرد ردود فعل لحظية متغيرة .هذا هو الاتزان الداخلي الذي تبحث عنه وسط تقلبات الحياة.
.3الحديد كرمز للقوة واستثماره في التسبيح:
هل تأملت يوماً في عظمة أن يكون اسم هذه السورة "الحديد" وأن تفتتح بمبدأ التسبيح؟ إنه اقتران عجيب يربط بين "القدرة" و"البوصلة" .الحديد رمز للقوة المادية الصلبة والبأس، ولكنه يظل أداة تدمير إذا افتقد البوصلة الأخلاقية .إن استثمار هذه القوة في التسبيح يعني أن تحوّل طاقاتك المهنية، وإدارتك للنفوذ، وقدرتك على التأثير، إلى "عبادة منتجة" .فالحديد يُطوّع بالنار، وقوة الإنسان تُطوّع بحرارة الإخلاص لله .وبذلك يصبح العمل الإداري والقيادي لبنة في بناء الحضارة وتنمية الإ نسان.
.4التأثير النفسي للتسبيح في قلب القائد:
دعني أخبرك بسرّ عظيم: التسبيح يفعل في القلب ما لا تفعله أي ممارسة أخرى .إنه يفرّغ همومك ، لأنك عندما تنزه الله وتكبره، فإن مشاعر العجز والضعف تتطاير من قلبك .وفي نفس الوقت، هو يشحن همتك، لأن التعظيم يربط قلبك بالقوي العزيز الذي لا يغلب .هذا الارتباط يمنحك اتزاناً شعورياً عجيباً، فتجد نفسك ترى المسؤوليات ثقلا ً يُحتمل بروح عالية، لا عبئاً يؤدي للتخبط .فالتسبيح هو دواء "التخبط"؛ لأنه يثبت القلب على "الواحد" في وسط كثرة التجاذبات.
.5الرسائل والتوجيهات العملية:
أتدري ما الذي تدعونا إليه هذه المعاني؟ إنها دعوة صريحة لنكون "عناصر مُسَبّحة" في منظومتنا الإدارية والاجتماعية، وذلك من خلال:
· الرسالة العقلية: أن تدرك أن المادة لا قيمة لها إلا إذا كانت تحت سلطان التوحيد.
· الرسالة التربوية: أن تتذكر أن المربي الناجح هو من يُعلِم أتباعه أن الإتقان في العمل هو الوجه العملي للتسبيح.
· الرسالة الفكرية: أن توجّه "قوة الحديد" التي منحها الله لك) سلطتك، مهاراتك، نفوذك (بروح "التسبيح" التي تتسم بالرحمة، والحكمة، والعدل، لتتحول كل حركة في عملك إلى سعي نحو بناء الإ نسان ونهضة الحضارة.

المحور الثاني: "مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".. الكون عابدٌ من حولك

والآن، لندخل في قلب الآية، حيث المشهد الأوسع: {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. ما الذي تعنيه هذه الإ شارة إلى عالمية التسبيح؟

دلالة عالمية التسبيح ووحدته الوجودية:
إن الإشارة إلى أن كل ما في السماوات والأرض يسبح لله تعني أن هذا الكون ليس مجموعة من الكيانات المتنافرة الصماء، بل هو "منظومة متناغمة" تتوحد على هدف واحد وهو خضوعها لخالقها. و الغرض من هذه الإشارة لك هو إخراجك من شعور "الغربة" الذي قد ينتابك. حين تدرك أن الجبال، وا

لأشجار، والجمادات، والملائكة، وكل الكائنات التي لا تراها، كلها في حالة تسبيح مستمر، ألا تشعر فوراً بالانتماء لهذا الكون العابد؟ هذا الشعور هو ما يمنحك "سكينة وجودية" ويقلل من حدة صراعك النفسي مع الحياة.

أغراض هذه الدلالة:
اسمح لي أن أوضح لك الغرض من هذه الدعوة للتأمل في الكون المسبح:

.1لتدرك أنك لست وحدك: في هذا الكون الفسيح، لست وحدك من يسبح الله، فكل ما حولك، حتى الجمادات والأحجار، في حالة تسبيح دائم.
.2لتدرك غنى الله عن البشر: الكون كله خاضع لله، يعبده ويسبحه، وهذا يجعلك تستيقن أن الله غني عن العالمين، لا تزيده طاعتك ولا تنقصه معصيتك.
.3لتفهم أن جميع الكائنات تعرف الله: إنها تتجه إليه بالتسبيح والسجود، حتى ما يصعب علينا إدراك كيفية سجوده، كالنجم والشجر، والجبال التي سُخرت مع داود تسبح، والطير والرعد .إنها خلائق لا تُحصى، تشترك في معنى التسبيح لله بطريقتها الغامضة التي لا ندركها نحن .ألا تذكرك هذه المعاني بقوله تعالى:} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ] {الإسراء:[44 ؟

قد يقول قائل: كيف تسبح الجمادات؟
هذا سؤال مشروع. إن التسبيح قد يكون ب- "لسان الحال" الذي ينطق بجلال الله وكماله في إتقان صنعه. وقد يكون "حقيقة" بأسلوب لا ندركه نحن، فنصوص الوحي الصادقة أثبتت أن للمخلوقات إدراكاً ووعياً يخالف وعينا المادي، كشهادة الجمادات للمؤذن يوم القيامة. فالجمادات والحيوانات لها "طريقتها الغامضة" في التسبيح، وهي في جوهرها تسليم وتنزيه لله. ألا يدعونا هذا إلى التواضع أمام عظمة الخالق الذي جعل الجماد شاهداً ومسبحاً؟

غنى الله عن طاعة البشر:
إن إدراكك أن الكون كله خاضع لله، يصحح لك مفهوماً عقدياً جوهرياً: وهو أن الله غني عن البشر. عبادتك لله ليست "واجباً ثقيلا ً" يفرضه عليك، بل هي "منحة" ترفعك ليلتحق بركب هذا الكون المتناغم، بدلا ً من أن تكون النشاز الوحيد في هذه المنظومة العابدة.

الرسائل التربوية والنداء الإنساني:
والآن، اسمح للآية أن تخاطب قلبك مباشرة بهذا النداء: إذا كانت الجمادات والجبال والنجوم، وهي مسخرة لخدمتك، تسبح الله وتخضع له وتعرف غايتها، فهل يليق بك، وقد أكرمك الله بالعقل و التكليف، ألا تكون أكثرهم تسبيحاً وخضوعاً لمنهجه؟ ألا يوقظ هذا النداء في نفسك "حس المسؤولية" ؟ إن التسبيح هنا لم يعد مجرد كلمات، بل هو دعوة لتطويق حركة حياتك كلها بمنهج الله، لتكون سيداً في هذا الكون بفضل عبوديتك، لا بفضل طغيانك.

سؤال للتأمل:
بما أن التسبيح هو "حالة وجودية" للكون تضمن له الاستمرار والانسجام، فكيف يمكننا كقياديين تعميم هذا المفهوم ليصبح "ثقافة مؤسسية" تمنع التنافس السلبي وتستبدله ب- "التكامل التسبيحي" بين أفراد الفريق، حيث يؤدي كل فرد دوره في تكامل مع الآخرين؟

المحور الثالث: العلاقة الوثقى بين التسبيح والمنهج الرباني

دعني الآن أربط لك بين "التسبيح" و"المنهج الرباني" برباط وثيق، ليخرج التسبيح من كونه مجرد لفظ إلى كونه "ممارسة وجودية" تبدأ بالمعرفة وتنتهي بالاستسلام.

.1العبودية كشرف ومقام أعلى:
إن اقتران التسبيح بالعبودية في القرآن -كما في قوله تعالى "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ"- ليس مجرد وصف، بل هو إعلان أن مقام "العبد" هو أسمى المقامات .تسبيحك لله هنا ليس انفكاكاً عن الواقع، بل هو دخول في حيز "العبودية الواعية"، حيث تترجم تسبيحك إلى امتثال لأوامره واجتناب لنواهيه، محولا ً كل حركة في حياتك إلى خضوع محب ومعظم للخالق.
.2التسبيح كقانون للانسجام الكوني:
يمتد معنى التسبيح ليشمل خضوع المخلوقات لنواميس الله .فكل كائن يسبح الله من خلال "التزامه بناموسه" .هذا الفهم يربط بين التسبيح واستقامة المخلوقات .وحين تقول الملائكة "وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ" فهي تشير إلى أن التسبيح هو الطريق الوحيد لتجنب الإفساد .ومن هنا،

يصبح المنهج الرباني في حياتك هو "قانون التناغم" الذي يضمن لك الاستقامة بعيداً عن التخبط و الفساد في المهام والمسؤوليات.

.3التسبيح كثمرة للذكر والتفكر:

المنهج الرباني يعلمنا أن التسبيح ليس عملا ً أعمى، بل هو نتيجة طبيعية لعملية معرفية تبدأ ب ـ "الذكر الكثير" ثم "التفكر في خلق السماوات والأرض" .تأمل قوله تعالى:} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا] {الأحزاب:41 - .[42ترى كيف قدّم الذكر على التسبيح؟ الذكر هو الإطار العام الذي يستحضر عظمة الله، والتفكر هو المحرك العقلي الذي يولد "اليقين"، ثم يأتي التسبيح كإعلان تنزيهي ناتج عن هذا العلم والمعرفة.

.4العبادة المقصودة والوعي بالغاية:

التسبيح الذي يسبقه تفكر يُنتج "عبادة مقصودة"، حيث تعرف جيداً لماذا تعبد الله، وما هي غاية وجودك .هذا النوع من العبادة يحمي منهجك التربوي والقيادي من الترهل أو الانحراف .فعندما تتفكر في قوله تعالى:} رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا] {آل عمران:[191 ، تدرك أن عملك ليس باطلا ً، وأن وظيفتك هي جزء من عمارة الكون .ألا يمنحك هذا دافعاً قوياً للإنجاز القائم على الحب والتعظيم، لا على الإكراه أو التقليد؟

سؤال للمتابعة:

بما أن التسبيح هو ثمرة للتفكر والذكر، كيف يمكننا تصميم "جلسات تفكر" دورية للفريق، تحول العمل الإداري اليومي من مهام روتينية إلى "مشروع حضاري" يستشعر فيه الفرد تسبيحه لله من خلال إتقان أداءه؟

المحور الرابع: دلالة التعقيب {وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}

بعد أن تحدثت الآية عن خضوع السماوات والأرض، يأتي هذا التعقيب الإلهي ليكمل الصورة. لماذا ورد هنا تحديداً؟

ماذا يعني العزيز؟

العزيز هو المهيمن، الغالب الذي لا يُقهر، صاحب القوة والمنعة المطلقة.

وماذا يعني الحكيم؟

الحكيم هو الذي ما يقرره من شرائع وأحكام يصدر عن حكمة بالغة وعلم محيط. أفعاله وأقواله كلها في كمال الصواب، تناسب المخلوقات وتصلح شؤون أحوالهم.

العلاقة التي تربط هذا التعقيب بالآية:

عندما نعلم أن الكون كله خاضع لله، يأتي وصف "العزيز" ليُشعرنا بأن الله هو المهيمن الغالب الذي لا يقهر. هذا الخضوع ليس عن ضعف من الكون، بل عن عزة قاهرة من الله. ووصف "الحكيم" يبين لنا أن هذا الخضوع لله فيه رعاية وحماية للمخلوقات، وليس تعسفاً. فهو الحق، وما دونه الباطل، وفي منهجه ونظامه رعاية للجميع.

إن التسبيح باللسان يثبت بالتفكر في مخلوقات الله، والتسبيح العملي هو الخضوع لله بالجوارح. وهذا هو جوهر ما ترمز إليه الآية؛ فكل المخلوقات تقبل بحكم الله وتنقاد له. فهي تخاطب عقولنا ونفوسنا: إن الله قد أعطانا منهجاً كاملا ً ينسجم مع حركة الناموس الذي يحكم الكون. فالكون كله يعرف كيف يعبد الله بالفطرة، وهو مجبور على ذلك، مسلوب الإرادة. فكيف لك أيها الإنسان، وقد منحك الله العقل والإرادة وسخر لك الكون، أن تتمرد عن هذا المنهج؟ كيف تنحرف عن غايتك التي خُلقت لها: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56]؟

إن صفات كمال الله وجلاله التي خضع لها الكون، تدعوك أن تخضع أنت أيضاً بإرادتك الحرة. أن تذوق بقلبك جمال الله فتحبه، فيكون هذا الحب قوة دافعة تجعلك لا تبالي بالمصاعب في امتثال أوامره. وإن انحرفت، فاعلم أنك تقف محارباً لله العزيز الذي لا يقهر، وأنت الضعيف الذي لا طاقة له بمواجهته. والله ليس بحاجة إليك، بل أنت المحتاج إليه. من يختار منهج الله، فبنعمته وحكمته ينال الخير والمنفعة والسعادة، ويطمئن قلبه بأنه على الطريق السديد الذي يحفظه الله فيه. أما المخالف، فيعيش في التخبط والقلق.

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات العملية

بعد هذه الرحلة، لنجمع الثمار ونستخرج الكنوز العملية.

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

استخراج "القاعدة السلوكية" يكون بربط التنزيه (التسبيح) بضبط حركة الكون والإنسان. هذا هو جوهر تحقيق التوازن. ولنحول ذلك إلى واقع عملي من خلال:

· أبعاد "التسبيح" كقاعدة لضبط المسار:
تسبيح ما في السماوات والأرض ليس مجرد كلمات، بل هو "استقامة وجودية" .كل مخلوق له "تسبيح" خاص، أي وظيفة يؤديها وبها يتحقق كماله .الدرس التربوي هنا: عندما يدرك الفرد أن "تسبيحه" هو انضباطه بناموس الله في عمله، يتحول الأداء المهني إلى عبادة .التخبط الذي يعاني منه الإنسان ناتج عن "النشوز" عن الناموس الذي خُلق له، فإذا عاد للانسجام مع منهج الله، استقرت نفسه وتضاعفت إنتاجيته.
· العلاقة بين "العزة" و"الحكمة" في الإدارة:
اقتران اسمي الله) العزيز الحكيم (يضع لنا دستوراً للإدارة والتأثير:
.1 العزة) القوة والمنعة(: تعطيك الثقة بالمنهج، فلا تتردد في الحق، ولا تلين أمام ضغوط الأهواء.
.2 الحكمة) وضع الشيء في موضعه(: هي التي تمنع الغلو والشدة، فترى في الآخرين طاقات تحتاج إلى توجيه لا إلى إقصاء، وتضع النظم التي تراعي الطبيعة البشرية واحتياجاتها.

الأمر الثاني: ما الذي يريده المولى منا في هذه الآية؟

يريد الله منا أن نعي أن منهجه هو الوحيد الذي يضمن لنا الانسجام مع الكون وسعادتنا. يريدنا أن نتحول من التخبط إلى التوازن، ومن الصراع إلى الاستسلام والسلام. إنه يدعونا إلى العبودية الواعية الحُرة.

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغيرها جذرياً، فتجعلنا نرى الحياة ساحة للعبادة والاستقامة، وليس للصراع العبثي. نرى الكون صديقاً منسجماً معنا، ونستشعر أن أعمالنا اليومية، إن صلحت النية، تتحول إلى تسبيح نرتقي به.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس: الاستقامة تجلب السكينة والطمأنينة.
· التطبيق: اجعل لكل عمل تؤديه نيةً وغايةً تعبدية، واسأل نفسك: هل أنا منسجم مع ناموس الله في هذا الموقف؟

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الانسجام.

يمكننا صياغة معيار تقييم ذاتي يومي مبني على أسئلة عملية:

.1معيار الانسجام: هل أشعر أن قراري هذا نابع من الاستسلام لمنهج الله أم من تجاذب الأهواء؟
.2معيار التسبيح العملي: هل أديت مهامي اليوم بإتقان واستحضرت أن هذا العمل هو وجه من وجوه تسبيحي لله؟
.3معيار الثمرة: هل أشعر بسكينة داخلية واتزان نفسي بعد أدائي للعمل، أم بضيق وقلق وتخبط؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا.

في كل صباح، قف وقفة مع "سَبّحَ لِلهِ". استحضر أن الكون كله بدأ يومه في طاعة، واسأل نفسك: أين موقعي من هذا الركب؟ وعند أي قرار، قف مع "العزيز الحكيم". استلهم من العزة قوة في الحق، ومن الحكمة رفقاً وتدبراً في العواقب.

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً: مهارة التفكر في آيات الله في الأنفس والآفاق.

· حياتياً: مهارة إدارة الذات وضبطها لتكون منسجمة مع النواميس الإلهية.
· عملياً: مهارة تحويل كل عمل مهما كان صغيراً إلى عبادة بالنية الصالحة والإتقان.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

الأمر الأول: أبعاد وآفاق الآية.

تفتح لنا الآية آفاقاً واسعة: بعداً كونياً حيث الإنسان جزء من منظومة عابدة، وبعداً نفسياً حيث السكينة والاتزان، وبعداً حضارياً حيث العمل المتقن هو عبادة تنهض بالأمة.

الأمر الثاني: القيم التي تغرسها الآية في نفوسنا.

تغرس فينا قيمة العبودية لله، وقيمة الإتقان، وقيمة التواضع أمام عظمة الخالق، وقيمة الاستقامة على المنهج.

الأمر الثالث: مفاهيم البناء والتنمية من الآية.

مفهوم "التسبيح العملي" هو حجر الزاوية في بناء الإنسان، لأنه يحول كل طاقاته إلى إعمار وإصلاح. ومفهوم "التناغم" يقضي على الصراعات الداخلية والخارجية.

الأمر الرابع: مفاهيم الآية في حياتنا العملية وكيفية تطبيقها.

أهم مفهوم هو "الاستخلاف". أنت خليفة في هذه الأرض، مهمتك عمارتها بمنهج الله. ففي عملك، أنت لا تجمع مالا ً فقط، بل تعبد الله بإتقان صنعتك وخدمة الناس.

الأمر الخامس: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة بناء للإنسان وصناعة الشخصية المسلمة المتزنة؟

ذلك بأن نجعل من هذه الآية "بوصلة" داخلية دائمة. قبل كل عمل، استحضر "سبحان الله" لتنزهه عن أن يُعصى، واستحضر "العزيز الحكيم" لتعلم أنك تمتثل لأمر عزيز حكيم، يريد بك الخير. هذه الممارسة اليومية تبني الشخصية المتزنة التي ترى أن تطورها ونهضتها الحقيقية هي في مدى اقترابها من هذا الانسجام الكوني العظيم.

وهكذا، نكون قد أخذنا جولة إيمانية وحضارية مع هذه الآية العظيمة، جاعلين منها خارطة طريق لحياة مطمئنة ومنتجة.
القاعده الثانيه

تفسير الآية الثانية من سورة الحديد
قال الله تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

المقدمة: الآية الثانية من سورة الحديد.. منبع الأمان والقوة والتشريع

بعد أن أرست الآية الأولى قاعدة الانسجام والتسبيح الكوني، تأتي هذه الآية كالإعلان الدستوري الذي يفسر لماذا يجب أن نسلم وجهنا لله وحده، وكيف يمكننا تحقيق هذا الانسجام. إنها تنتقل من وصف الفعل (سَبَّحَ) إلى وصف المَلِك وصفات المالك.

تخيّل معي إنساناً يعيش في خوف دائم من المستقبل، من الفقر، من المرض، من الموت. تراه يلهث وراء أسباب القوة الوهمية، متعلقاً بالبشر، خائفاً من فقدان ما يملك. هنا تأتي هذه الآية كالبلسم الشافي الذي يعيد ترتيب علاقات القوة في قلبه وعقله. إنها تعالج داء "الخوف من غير الله" و"التعلق بالدنيا" من جذوره، لا بتقديم طمأنة وقتية، بل بترسيخ حقيقة كونية: كل ما تراه وتتصارع عليه هو ملك لله، والحياة والموت بيده، والقدرة المطلقة له وحده.

إنها تنقلك من حالة "التصرف كمالك" إلى حالة "التصرف كمستخلف"، ومن "الخوف من الفناء" إلى "الأمان في يد من بيده الحياة والموت"، ومن "الإحباط أمام العقبات" إلى "الثقة في القدرة الإلهية المطلقة". تخبرنا الآية بالقاعدة الثانية للحياة: طالما أن ملك السماوات والأرض لله، فإن مالك الحقيقي

واحد، وطالما أن الحياة والموت بيده، فإن رزقك وأجلك ليسا بيد أحد سواه، وطالما أنه على كل شيء قدير، فلا عائق أمام مشيئته إذا أراد أن يمنحك خيراً أو يصرف عنك سوءاً.

وهذه القاعدة هي التي تبني شخصية المؤمن المتوازن، الذي لا يذل لمخلوق، ولا يخاف من مستقبل، ولا ينكسر أمام عائق. يخبرنا الحق سبحانه في محكم تنزيله، بهذا الإعلان المهيب: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

دعنا نضع المفاتيح الرئيسية لفهم هذه الآية، قبل أن نبحر في أعماقها:

1. وحدة المالك وشمول ملكه: كل ما في الكون، وما تظن أنك تملكه، هو في الحقيقة ملك خالص لله.
2. بيده الحياة والموت: هو المتصرف المطلق في الوجود، في بدايته ونهايته، وفي كل ما بينهما.
3. القدرة المطلقة: لا يعجزه شيء، ولا يحول بينه وبين مراده حائل، فهو الفعال لما يريد.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة إلى مقام التوحيد والأمان

والآن، لنغص معاً في كلمات هذه الآية المقتضبة، الغنية بالمعاني الجليلة.

المحور الأول: في رحاب "لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".. إعادة تعريف الملكية والحرية

انظر كيف افتتحت الآية بـ "لَهُ" المفيدة للاختصاص. فالملك كله لله وحده، لا شريك له فيه.

1. دلالة "مُلْكُ" وليس "خَلْقُ":
لم تقل الآية "له خلق السماوات والأرض" كما في الآية الرابعة، بل قالت "له ملك السماوات والأرض". لماذا؟ للإشارة إلى أنه بعد الخلق، بقي المُلك له، وإليه المرجع في التصرف والتدبير والقضاء. الملكية هنا ليست تاريخية، بل هي دائمة ومستمرة. من الناحية النفسية، هذا يحررك من وهم "الملكية الذاتية". أنت لا تملك شيئاً في الحقيقة، حتى نفسك ومالك وأولادك هم ملك لله، وأنت مجرد "مستخلف" و"وكيل" عليهم. هذا الفهم يزيل غشاوة الطمع والخوف من الفقد من قلبك. فمن يخاف على ما لا يملكه؟
2. دلالة "السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ":
كما في الآية الأولى، ذكر السماوات والأرض يرمز للكون كله. إنه يشمل كل ما يُتصور أنه مصدر قوة أو غنى أو نفوذ. إنها دعوة لتوسيع مداركك، وأن تعلم أن كل قوى العالم، وكل ثرواته، وكل ممالكه هي جزء من ملك الله، فكيف تخاف من صاحب مال أو نفوذ، وهو نفسه مملوك لله، وما بيده هو جزء من ملك الله، والله قادر على نزعه منه في لحظة؟
3. الرسائل العملية:
· التحرر من عبودية المال: لست عبداً لما تملك، بل أنت سيد على ما استخلفك الله عليه، تؤديه بأمانة.
· التحرر من الخوف من ذوي النفوذ: قوتهم مستمدة من الله، وهي في قبضته، فلا تهن ولا تحزن.
· بث روح القناعة والكرم: طالما أن كل شيء ملكه، فهو يعطي ويمنع بحكمة، فاقنع بما عندك، وكن كريماً بما استخلفك عليه، فهو مال الله أعطاك إياه لتنفع به.

المحور الثاني: "يُحْيِي وَيُمِيتُ".. ضبط إيقاع الحياة والتعامل مع المصير

بعد تقرير الملكية، تأتي هذه الجملة لتتوجها بأعظم صفات التصرف والقدر: الحياة والموت.

1. دلالة "يُحْيِي وَيُمِيتُ":
هما قطبا الوجود. لا يستطيع أحد أن يدعي القدرة عليهما. وهما ليسا مجرد حدثين بيولوجيين يحدثان مرة واحدة، بل هما دليلان على الفعل الإلهي المستمر في كل لحظة. إنه يحيي النطفة، ويحيي الأرض بعد موتها، ويحيي القلوب بعد قسوتها، كما أنه يميت الأحياء، ويميت الطغاة، ويميت الباطل. إنه تصريف دائم للحياة والموت في الأنفس والآفاق.
2. التأثير النفسي والتربوي:

· الأمان من فزع الموت: لماذا يخاف الناس الموت؟ لأنه نهاية كل شيء في تصورهم. أما المؤمن فيعلم أن من أماته هو الذي أحياه، وهو الذي سيبعثه. الموت ليس فناءً، بل انتقال من دار إلى دار، بيد مالك الملك. هذا يملأ القلب سكينة وطمأنينة عند مواجهة المصير المحتوم.
· تصحيح بوصلة الحياة: إذا كان الله هو المحيي والمميت، فهو الذي يمنح الحياة، وهو الذي يحدد قيمتها وغايتها. أنت لا تحيا لتعيش وتأكل فقط، بل لتحقق الغاية التي منحك الحياة من أجلها، وهي عبادته.
· قوة الأمل وإحياء الهمم: الذي يحيي ويميت قادر على أن يحيي أملك بعد يأس، وأن يحيي مشروعك بعد فشل، وأن يحيي قلبك بعد موات. إنها طاقة أمل لا تنضب.
.3الرسائل والتوجيهات العملية:
· لا تستعظم مخلوقاً مهما بلغت قوته، فموته بيد الله.
· لا تيأس من روح الله، فالذي يحيي الموتى قادر على إحياء ما اندثر من آمالك وقيمك وأمتك.
· استشعر قيمة الحياة التي وهبك الله إياها، ولا تضيعها فيما لا ينفع، فالذي منحك إياها سيحاسبك عليها.

المحور الثالث: العلاقة الوثقى بين "الملك" و"الإحياء والإماتة" و"القدرة".. منظومة التوكل والعمل

دعني الآن أربط لك هذه الصفات في منظومة واحدة لتنظر كيف تبني شخصية المؤمن المتوازن.

.1من "الملكية" إلى "المسؤولية":
إدراك أن الله هو المالك يجعلك تعيش بقيمة "الأمانة". أنت مؤتمن على صحتك، وقتك، مالك، ومنصبك. هذا الوعي يحول كل حركاتك إلى مسؤولية أخلاقية أمام المالك الحقيقي. إنه جوهر الا نسجام مع الناموس الكوني، حيث كل مخلوق يؤدي وظيفته، وأنت أعلى المخلوقات، فوظيفتك يجب أن تكون في قمة الإتقان والأخلاق.
.2من "الإحياء والإماتة" إلى "التسليم والرضا":
عندما تستقر في قلبك حقيقة أن الحياة والموت بيد الله، تصل إلى أعلى مراتب التسليم. تسعى بكل طاقتك، ولكنك تعلم أن النتائج النهائية بيده. تسعى للرزق، لكنك لا تقلق على رزق الغد، لأن من كتب لك الحياة هو من كتب لك رزقها. إنه "التوازن بين السعي والتوكل". هذا التسليم لا يعني السلبية، بل يعني العمل بطاقة عظيمة وراحة قلبية تامة، لأنك فوضت العاقبة لمالكها.
.3من "القدرة المطلقة" إلى "الثبات والإيجابية":
"وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" هي الوقود الذي يحرك المؤمن. لا يوجد مستحيل مع الله. أي مشكلة تواجهك، وأي عدو يقف في طريقك، وأي عجز تشعر به، يقابله قول الله: "وهو على كل شيء قدير". هذه الجملة:
· تطرد الوهن: لا مكان للضعف والاستسلام في نفس من يوقن بأن الله على كل شيء قدير.
· تمنح الجرأة: تجعلك تتخذ القرارات الصعبة وتقتحم العقبات، وأنت تعلم أن نصر الله يأتي بقدرته، لا بقدرتك أنت.
· تجعلك إيجابياً: لا تقف عند تحليل المشكلة، بل تتجاوزها فوراً إلى البحث عن الحل، مستمداً قوتك من القادر على كل شيء.

سؤال للتأمل:
كيف يمكننا تحويل "المؤسسات" التي نديرها إلى كيانات تحكمها قيم هذه الآية، بحيث يشعر كل فرد فيها بأنه "مستخلف" على مهمة، يعمل بأمانة ويسعى بجد، ولكنه لا يصاب بالقلق والاحتراق الوظيفي، لأنه يؤمن أن مالك الملك هو المتصرف؟

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآية

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية" في هذه الآية، عليك أن تربط بين صفات الله الثلاث (الملك، المحيي المميت، القدير) وحالتك النفسية والعملية.

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "بناء التصورات والمواقف على أساس التوحيد الكامل في

الملك والتصريف والقدرة". هذا هو جوهر تحقيق الأمان الداخلي والقوة العملية.
· أبعاد الآية كقاعدة لضبط المسار:
1. ضبط علاقة التملك: أن ترد كل ما تملكه إلى مالكه الحقيقي، فتصبح بهذا "حارساً أميناً" لا "م الكاً شحيحاً خائفاً". هذا هو "فقه الاستخلاف".
2. ضبط عاطفة الخوف: أن تحصر خوفك المطلق فيمن بيده الحياة والموت، فتتحرر من كل خوف من مخلوق، لأن ضرره ونفعه، بل حياته وموته، بيد الله. هذا هو "فقه الأمان".
3. ضبط بوصلة العمل: أن تجعل من "وهو على كل شيء قدير" شعارك عند كل تحدي، فتستمد منه الطاقة التي لا تنفد، والثبات الذي لا يتزعزع. هذا هو "فقه القوة الإلهية".

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون عباداً أحراراً. أحراراً من كل عبودية لغير الله.

· في حياتنا العملية، تدعونا الآية إلى:
· تحويل مكان العمل إلى ساحة للاستخلاف: أن ترى أن وظيفتك أو تجارتك هي مجال استخلافك، تؤديها بأمانة وإتقان لله المالك.
· التعامل مع الأزمات بثبات: عندما تواجهك أزمة مالية أو خسارة، أن تتذكر أن "له ملك السماوات والأرض"، وأن الرزق بيده، فلا تجزع أو تنهار.
· اتخاذ القرارات بشجاعة: أن تكون جريئاً في الحق، وفي اتخاذ القرارات المصيرية، لأنك لا تخشى على رزق أو حياة، فكل ذلك بيد الله "يحيي ويميت".
· عدم اليأس من الإصلاح: ألا تيأس من تغيير واقع فاسد، أو بناء مشروع نهضوي، لأن الله "على كل شيء قدير".

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغير الآية نظرتنا للحياة تغييراً جذرياً من ثلاث زوايا:

.1من منظور الصراع إلى منظور الأمانة: لم تعد الحياة ساحة صراع للاستحواذ على "المُلك"، بل هي دار استخلاف لأداء "الأمانة" بنجاح.
.2من منظور الخوف إلى منظور الأمان: لم يعد المستقبل مخيفاً والمجهول مرعباً، بل أصبحا في يد حكيم رحيم، يحيي ويميت، ويدبر الأمر بحكمة.
.3من منظور العجز إلى منظور القوة: لم تعد هناك مشكلة بلا حل، ولا عدو لا يُقهر، ولا حلم مستحيل، لأن كل شيء يصبح ممكناً في ضوء "وهو على كل شيء قدير".

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآية وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول: الملك لله، فلا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما أتيتَ فرح البطر.
· التطبيق: عند خسارة مالية أو فقدان منصب، رد الأمر لله فوراً وقل: "اللّهم لك الملك، تؤتي الملك من تشاء". هذا يخفف وطأة الصدمة ويجعلك تنظر للأمر كابتلاء واختبار.
· الدرس الثاني: الله هو المحيي والمميت، فلا تهن ولا تحزن وأنت في طريق الحق.
· التطبيق: إذا هددك أحدهم، أو خفت من عدو، تذكر أن روحه بيد الله، وأن ناصيته بيده، فاطمئن وامض في طريقك، طالما أنه طريق الحق.
· الدرس الثالث: الله على كل شيء قدير، فابذل أقصى ما تستطيع، ولا تلتفت للعوائق.
· التطبيق: عند التخطيط لأي مشروع، لا تجعل حجم التحديات يوقفك. خطط وبادر واجتهد، واستشعر أن قدرة الله تعمل بعد بذلك للأسباب.

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآية في واقعنا العملي.

يمكننا صياغة معيار تقييم ذاتي يومي مبني على أسئلة عملية مستخلصة من الآية:

.1معيار الاستخلاف) له ملك السماوات والأرض(:
· هل تصرفت اليوم في أمانتي (مالي، وقتي، منصبي) بصفتي وكيلا ً عن الله، أم بصفتي مالكاً مستقلا ً؟
· هل شعرت بقلق على رزق الغد، أم أني واثق بأن المالك سيرزقني؟
.2معيار الأمان) يحيي ويميت(:

· هل كان خوفي اليوم من مخلوق أشد من خوفي من الله، أم أني واثق أنه لا يمكن لأحد أن يضرني أو ينفعني إلا بإذنه؟
· هل كنت أبحث عن رضا الناس وخشيَت عدم رضاهم، على حساب الحق والأمانة؟
.3معيار القوة والطاقة) وهو على كل شيء قدير(:
· عند أول عقبة واجهتني اليوم، هل كان رد فعلي هو اليأس والإحباط، أم استحضار قدرة الله و التوكل عليه لتجاوزها؟
· هل بدأت اليوم في مشروع أو مهمة صعبة دون تردد، ثقة بقدرة الله؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا اليومية.

· وقفة الصباح مع "لهُ مُلكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ": استقبل يومك بهذا الذكر. قل لنفسك: أنا اليوم مستخلف، سأعمر الأرض وأؤدي الأمانة، والله هو المالك، وهو حسبي ونعم الوكيل.
· وقفة الأزمة مع "يُحْيِي وَيُمِيتُ": عند سماع خبر وفاة أو مرض، تذكر أن الأمر لله. وعند الخوف من عدو أو مستقبل، قل: "اللهم أنت المحيي والمميت، وأنت على كل شيء قدير، أحيني حياة طيبة، وأمتني على الإيمان".
· وقفة التحدي مع "وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ": كلما استصعبت أمراً، أو شعرت بعجز، قف وقفة وردد هذه الآية بخشوع. ستجد في قلبك قوة لم تكن تعهدها.

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة التحليل التوحيدي: القدرة على تحليل الظواهر الحياتية (نجاح، فشل، غنى، فقر، حياة، موت) وإرجاعها إلى مشيئة الله وقدرته، مع الأخذ بالأسباب.
· مهارة بناء التصورات الصحيحة: بناء تصور عن الذات (كمستخلف)، وعن الكون (كمسخر)، وعن الحياة (كميدان اختبار).
· حياتياً:
· مهارة إدارة الضغوط: التحرر من القلق والتوتر بالتوكل على الله المالك القادر.
· مهارة الشجاعة واتخاذ القرار: الجرأة على ركوب المخاطر المحسوبة والإقدام على الصعاب.
· عملياً:
· مهارة الإتقان: تحويل كل عمل إلى عبادة بأدائه على أكمل وجه، لأنك تقدمه للمالك.
· مهارة المبادرة: عدم انتظار الظروف المثالية، بل البدء في العمل فوراً، لأن قدرة الله تتجاوز كل الظروف.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

أولا ً: أبعاد الآية وآفاقها:

· البعد الإيماني العقدي: ترسخ الآية عقيدة التوحيد في الربوبية (الملك والتصرف) والألوهية (توجيه العبادة للمالك).
· البعد النفسي: تصنع "الإنسان المطمئن"، الذي يعيش الأمان الداخلي في عالم مليء بالمخاوف، والإ يجابية القصوى في عالم مليء بالمحبطات.
· البعد الاجتماعي: تبني مجتمعاً يقوم على أساس الاستخلاف والمسؤولية، لا على أساس النهب والا ستغلال، لأن الكل يعمل لمالك واحد.
· البعد الحضاري: تطلق طاقات الإبداع والعمل، لأنها ترفع عن الإنسان سقف "المستحيل"، وتربطه بقدرة الله المطلقة، مما يجعله يجرؤ على التخطيط لمشاريع حضارية عملاقة.

ثانياً: القيم التي تغرسها الآية في النفوس:

· قيمة التوحيد الخالص: إفراد الله بالملك والتصرف والقدرة.
· قيمة الأمانة: الشعور العميق بالمسؤولية عن كل ما استخلفنا الله عليه.
· قيمة الشجاعة والتضحية: عدم الخوف من الموت أو الفقد في سبيل الله.
· قيمة التفاؤل المطلق: رؤية الخير في كل شيء، والثقة بأن المستقبل بيد قدير.
· قيمة الزهد الحقيقي: أن تكون الدنيا في يدك لا في قلبك، فأنت تعلم أنها ملك لله، وستؤول إليه.

ثالثاً: مفاهيم البناء والتنمية من الآية:

· مفهوم "استخلاف القوة": أنا لا أعمل لأبني قوتي الذاتية، بل لأكون خليفة قوياً بالحق، يبني حضارة تنسب كل إنجاز لله.
· مفهوم "التنمية بالأمان": لا يمكن لمجتمع أن يتطور وقلوب أفراده ترتجف خوفاً من المستقبل. هذه الآية تبني أساس التنمية الحقيقي وهو "الأمان النفسي".

رابعاً: مفاهيم الآية في حياتنا العملية وكيفية تطبيقها.

· في الإدارة: تبني نموذج "الإدارة الاستخلافية" حيث القائد والمؤسسة يرون أنفسهم مستخلفين على خدمة الناس، لا ملاكاً يتسلطون.
· في التجارة: تبني "التجارة بالأمانة"، حيث الربح الحلال والنزاهة هما الأساس، لأن المالك الحقيقي هو الله وهو الرزاق.

خامساً: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة بناء للإنسان وصناعة الشخصية المسلمة المتزنة؟
يتم ذلك بتحويل الآية إلى "منظومة تدريب يومي" للنفس:

.1في الصباح: استحضار معنى "الاستخلاف" والتخطيط ليومك على هذا الأساس.
.2عند كل فعل: سؤال النفس: "هل أنا مؤتمن على هذا العمل؟ وهل سيقدم للمالك على أنه عمل متقن؟".
.3عند كل خوف: التذكر الفوري لـ "يحيي ويميت" لطرد الهلع والجبن.
.4عند كل أزمة: استنفار طاقة "وهو على كل شيء قدير" لإيجاد الحلول وعدم الاستسلام.

وهكذا، نكون قد حولنا هذه الآية العظيمة من مجرد نص إيماني، إلى خارطة طريق للتحرر الداخلي، والثبات النفسي، والقوة العملية، والفاعلية الحضارية. إنها تبني الشخصية المسلمة التي لا تهزها العواصف، لأنها موصولة بمالك الملك، المحيي المميت، القدير على كل شيء.

المبحث الثالث

تفسير الآية الثالثة من سورة الحديد
قال الله تعالى: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

المقدمة: الآية الثالثة من سورة الحديد.. مرساة الوجود وبوصلة اليقين

بعد أن أرست الآية الأولى قاعدة الانسجام والتسبيح الكوني، والثانية قاعدة الأمان المستند إلى ملك الله وقدرته المطلقة، تأتي الآية الثالثة لتكتمل منظومة التوحيد بأبعادها الأربعة. إنها ترتقي بالمؤمن إلى أفق جديد تماماً من الوعي بـالله، وعي يحيط بكل زمان ومكان، ظاهر وخفي.

تخيّل معي إنساناً غارقاً في بحر الحياة المتلاطم، تتجاذبه أمواج الماضي بندمها وذكرياتها، وأمواج المستقبل بقلقها وهواجسها، وفوق ذلك كله، يعيش صراعاً بين ظاهره الذي يراه الناس، وباطنه الذي يعلمه الله. إنه إنسان مشتت، مفكك، تائه. هنا تأتي هذه الآية العظيمة كالنور الذي يكشف له حقيقةً واحدة تجمع شتات روحه وعقله وقلبه: إن الله هو الأول، فلا شيء قبله؛ وهو الآخر، فلا شيء بعده؛ وهو الظاهر، فلا شيء فوقه؛ وهو الباطن، فلا شيء دونه.

إنها تعالج داء "التشتت الوجودي" من جذوره. إنها تدعونا لنستيقن أننا لا نعيش في كون عبثي لا بداية له ولا نهاية، بل في كون الله هو محوره ومعناه. إنها الآية التي قال عنها النبي ﷺ إنها تجمع جميع صفات الكمال والجلال. تخبرنا الآية بالقاعدة الثالثة للحياة: التوحيد ليس مجرد إقرار بوجود الله، بل هو إدراك شامل لأن الله هو الأول الذي تبتدأ منه كل الأمور، والآخر الذي تصمد إليه كل الغايات، والظاهر الذي تظهر به كل الحقائق، والباطن الذي تخفى فيه كل الأسرار، وهو بكل ذلك عليم.

وهذه القاعدة تبني شخصية المؤمن "المتيقن"، الذي لا يتأرجح بين فلسفات العدم والوجود، ولا يضطرب بين ماضٍ وحاضر ومستقبل، بل يرى الله في كل ذلك، فيطمئن قلبه، ويثبت عقله، وتستقيم جوارحه. يخبرنا الحق سبحانه بهذا الجمع العظيم للكمالات: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

دعنا نضع المفاتيح الرئيسية لفهم هذه الآية قبل الخوض في غمارها:

.1الله هو المحيط بالزمان: فلا شيء قبله) الأول(، ولا شيء بعده) الآخر .(هو بداية كل شيء ونهايته.
.2الله هو المحيط بالمكان والوجود: فلا شيء أعلى منه في ظهوره) الظاهر(، ولا شيء أقرب منه في خفائه) الباطن.(
.3الله هو المحيط بالعلم: فهو العليم بكل ما كان وما سيكون، وما ظهر وما بطن.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة إلى مركز اليقين والطمأنينة

والآن، لنبحر معاً في كلمات هذه الآية النورانية، التي وصفها النبي ﷺ بأنها تجمع جوهر التوحيد.

المحور الأول: في رحاب "هُوَ الأَوّلُ وَالآخِرُ وَالظاهِرُ وَالبَاطِنُ".. الأبعاد الأربعة للكمال الإلهي

انظر إلى هذا النظم القرآني المعجز. أربعة أسماء، يفسر بعضها بعضاً، ويرسم صورة متكاملة لا يحيط بها عقل، ولكن يفيض بها قلب.

.1دلالة "الأوّلُ":
الله هو الأول، أي الذي ليس قبله شيء. هو الأزلي الذي أوجد كل الموجودات من العدم. هذا الا سم يعالج في نفسك "القلق الوجودي" المرتبط بالسؤال: من أين جئنا؟ إنه يمنحك جواباً قاطعاً يريح عقلك: نحن جئنا من إرادة الأول، ولم نوجد عبثاً. من منظور تربوي، يعلمك أن تبتدئ كل أمر باسم الله، فهو الأول الذي بدأ كل شيء، وبدايته به تمنح عملك البركة والتوفيق. إنه مفتاح بداية كل مشروع، وكل يوم، وكل حياة جديدة.
.2دلالة "الآخِرُ":
الله هو الآخر، أي الذي ليس بعده شيء. هو الباقي بعد فناء خلقه. هذا الاسم يعالج في نفسك "القلق الوجودي" المرتبط بالمصير: إلى أين نسير؟ إنه يمنحك الأمان بأن مصيرك بيد الآخر، الذي سيبقى بعد فناء كل شيء، وسيجازيك على عملك. إنه يدعوك لأن تجعل كل أعمالك "للآخر"، فيكون هو غايتك ومقصَدك. إنه مفتاح النهاية السعيدة، والختام المبارك لكل عمل.
.3دلالة "الظاهِرُ":
الله هو الظاهر، أي الذي ظهرت لعقولنا دلائل وجوده وقدرته وعظمته في كل ما خلق. هو العلي فوق كل شيء، الذي ليس فوقه شيء، والذي ظهرت آياته في الآفاق والأنفس حتى أصبح وجوده أظهر من كل ظاهر. هذا الاسم يعالج في نفسك "الشك" و"الحيرة". فكل ما تراه في الكون، من أدق ذرة إلى أعظم مجرة، هو دليل عليه وشاهد بوجوده. إنه مفتاح اليقين القلبي والعقلي، الذي يجعلك ترى الله ببصيرتك في كل مشهد، وفي كل نعمة، وفي كل نقمة، فتتيقن أن وراء هذا الكون إلهاً ظاهراً بآياته.
.4دلالة "البَاطِنُ":
الله هو الباطن، أي الذي احتجب عن أبصارنا فلا نراه في الدنيا، ولكنه القريب من كل شيء، العالم بخفاياه وسرائره، الذي ليس دونه شيء. هو المحيط ببواطن الأمور، فلا يحجبك عنه حجاب. هذا الاسم يعالج في نفسك "الغفلة" و"الاستخفاء بالمعاصي". إنه يذكرك بأن الله معك في خلواتك، أقرب إليك من نفسك، عالم بسريرتك ونجواك وهواجس صدرك. إنه أساس المراقبة الذاتية العميقة، التي لا تقوم على الخوف من الظاهر، بل على الحياء من الباطن الذي يعلم كل شيء.
.5العلاقة بين الأسماء الأربعة:
هذه الأسماء الأربعة هي في حقيقتها متكاملة، فهي ترسم دائرة الكمال الإلهي المطلقة. فالله هو ا لأول في البدء، والآخر في البقاء، والظاهر بالدلائل، والباطن بالذات. إنها تجمع بين التنزيه والقرب، بين الجلال والجمال، بين الظهور والخفاء. عندما تستقر هذه المعاني الأربعة في قلبك، فإنها تملأ فراغ الروح، وتجيب عن أسئلة العقل، وتريح النفس من قلقها الوجودي كله. إنها تجعلك في حال من "الدهشة الإيمانية" الدائمة، تعيش في كنف الله، تراه بعين بصيرتك في كل شيء.

المحور الثاني: "وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ".. خاتمة الكمال وإطلاق العلم

بعد هذه الأسماء الأربعة العظيمة، يأتي ختام الآية باسم "العليم" ليربط كل الصفات بالعلم المطلق.

.1دلالة اقتران "عَلِيمٌ" بالأسماء الأربعة:

لماذا ختمت الآية بـ "وَهُوَ بِكلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"؟ لأنه هو الأول الذي لا بداية له، وهو عليم بكل ما سيحدث. وهو الآخر الذي لا نهاية له، وهو عليم بكل ما كان. وهو الظاهر الذي لا تخفى عليه ظواهر الأمور، والباطن الذي لا تخفى عليه خوافيها وسرائرها. إنه "عليم" بكل شيء لأنه هو الأول والآخر و الظاهر والباطن. هذا الربط هو تأكيد على كمال صفاته، وأن علمه محيط بكل زمان ومكان وظاهر وخفي، إحاطة تامة.

.2التأثير النفسي لختام الآية بـ "عَلِيمٌ":

عندما تستقر في قلبك حقيقة أنه "بكل شيء عليم"، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن، فإن هذا ينتج حالة من "السكينة المطلقة". كيف تقلق على مستقبل وأنت تعلم أن الآخر عليم به ومحيط بتفاصيله؟ كيف تخاف من فوات رزق أو ضياع فرصة وأنت تعلم أن الظاهر عليم بكل الأسباب وبكل المصالح؟ كيف تستخفي بمعصية وأنت تعلم أن الباطن عليم بذات الصدور؟ هذا اليقين هو دواء القلق ، وسلاح المواجهة، وطريق الثبات.

المحور الثالث: تحويل اليقين إلى طاقة عمل وبناء وتربية

كيف تتحول هذه الآية من مجرد معتقد نظري إلى طاقة عملية في حياتنا ومؤسساتنا وتربيتنا؟

.1بناء "اليقين الهادئ":

هذه الآية هي المنبع الحقيقي لليقين. اليقين بأن الله هو المسيطر، فلا مكان للقلق. عندما تبدأ مشروعاً، تذكر أنه الأول، وقد بدأته باسمه. وعندما تخاف من فشله، تذكر أنه الآخر، وأن مصيره إليه. وعندما تنتظر النتائج، تذكر أنه الظاهر، ودلائل قدرته في كل مكان. وعندما تحاسب نفسك، تذكر أنه الباطن، العليم بخفايا نواياك. هذا اليقين ينتج طاقة هائلة، هادئة وثابتة، لا تتبدد مع الأزمات.

.2الرسائل التربوية للمربين والقادة:

· بناء "الرؤية الشاملة": درّب فريقك أو أبناءك على رؤية الأمور من بدايتها إلى نهايتها مستعينين بـ (الأول والآخر)، وعلى فحص الظاهر والباطن من الأمور مستلهمين (الظاهر والباطن). هذا ينشئ عقولا ً استراتيجية لا تغتر بالمظاهر.

· غرس "الضمير الحي": أساس التربية هو غرس الضمير، وهذه الآية هي ميثاق الضمير. إنها تعلم المتربي أن الله (الباطن) يراه حتى في أشد خلواته، وأنه (العليم) بسريرته، فلا قيمة للرياء والمدح.

· التعامل مع الأخطاء: عند معاقبة مخطئ، استحضر اسم (الأول) الذي يقبل التوبة، و(الآخر) الذي إليه المرجع، و(الظاهر) الذي يظهر عدله، و(الباطن) الذي يعلم صدق التوبة. هذا يجعلك مربياً حكيماً، لا مجرد جلا ّد.

سؤال للتأمل:

إذا استقر في قلوب العاملين في مؤسسة ما أن الله هو "الأول والآخر والظاهر والباطن"، فكيف سيؤثر ذلك على ثقافة الإتقان في المؤسسة، وعلى طبيعة العلاقات بين الزملاء والرؤساء، من حيث المراقبة الذاتية والتنافس الشريف والثقة في المستقبل؟

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآية

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية"، يجب أن تربط كل اسم إلهي بواقعك النفسي و العملي.

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "إدراك الإحاطة الإلهية المطلقة بالزمان والمكان والسر و العلن، لتحقيق اليقين والمراقبة والسكينة".

· أبعاد الآية كقاعدة لضبط المسار:

1. ضبط بوصلة الزمن (الأول والآخر): أن يكون الله هو نقطة بدايتك في كل عمل، وهو غايتك منه. هذا يعطي حياتك معنى واتجاهاً.

2. ضبط بوصلة الوعي (الظاهر والباطن): أن ترى الله في آياته الظاهرة فتتيقن، وأن تستشعر علمه بباطنك فتراقبه. هذا يصنع منك إنساناً عميقاً، يعيش الحياة بكل أبعادها.

3. ضبط بوصلة التوازن (الجمع بين الأربعة): ألا تطغى عليك عاطفة الخوف من الآخر، أو أمل في

الأول، دون عمل. بل تجمع بين الخوف والرجاء، والبدء والانتهاء، والعمل الظاهر والإخلاص الباطن.

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون عباداً متكاملين، نعبده بأسمائه الأربعة. في حياتنا العملية، تدعونا الآية إلى:

· أن نبدأ كل عمل بسم الله (الأول): فلا نبدأ عملا ً دون استحضاره والتوكل عليه.
· أن نخلص العمل لله (الآخر): فلا ننتظر جزاءً ولا شكوراً من غيره، فهو غايتنا.
· أن نتقن العمل لله (الظاهر): فهو يرى عملنا، وسيجازينا عليه.
· أن نراقب نوايانا لله (الباطن): فلا يشوب عملنا رياء أو حب ظهور.
· أن نطمئن لله (العليم): فلا نقلق على نتائج أعمالنا، فالله عليم بها وسيدبر الأمر.

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغيرها من أربعة أوجه:

.1من منظور زمني إلى منظور أبدي: فالله الأول والآخر، فلا ترتبط بالماضي ندماً، ولا تخاف المستقبل قلقاً، بل تعيش الحاضر بطاعة.
.2من منظور سطحي إلى منظور عميق: فالله الظاهر والباطن، فلا تنخدع بالمظاهر، بل تبحث عن الحقائق وتستشعر المعاني الخفية.
.3من منظور علمي محدود إلى منظور إلهي مطلق: فالله عليم بكل شيء، فتسكن نفسك وتوقن أن كل ما يحدث هو بعلمه وحكمته.
.4من منظور التشتت إلى منظور التمركز حول الله: فالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فتتحد كل أبعاد حياتك لغاية واحدة هي مرضاته.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآية وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول (الأول): كل شيء يبدأ بالله. التطبيق: لا تبدأ أي مشروع أو اجتماع أو مهمة إلا بدعاء وذكر وتفويض لله.
· الدرس الثاني (الآخر): كل شيء يعود لله. التطبيق: لا تحزن على فائت ولا تفرح بآتٍ فرح بطر، بل استشعر أن المصير إليه.
· الدرس الثالث (الظاهر): دلائل عظمة الله في كل مكان. التطبيق: خصص وقتاً يومياً للتفكر في خلق الله، ليزداد يقينك.
· الدرس الرابع (الباطن): لا تخفى على الله خافية. التطبيق: راقب خواطرك ونواياك باستمرار، وأكثر من الاستغفار.
· الدرس الخامس (العليم): الله أعلم بمصلحتك. التطبيق: سلم لله أمرك بعد بذل الأسباب، ولا تجادل قدره بلسان حالك أو مقالك.

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآية في واقعنا العملي.

.1معيار الابتداء) الأول(: هل بدأت مشاريعي وقراراتي باستخارة واستشارة وتفويض لله؟
.2معيار الإخلاص) الآخر(: هل كان هدفي من عملي هو وجه الله، أم رضا الناس والسمعة؟
.3معيار الإتقان) الظاهر(: هل يشهد عملي الظاهر لله بالجودة والإحسان؟
.4معيار المراقبة) الباطن(: هل أنا صادق في نواياي وسريرتي كما أنا في علانيتي؟
.5معيار الطمأنينة) العليم(: هل أشعر بسكينة وثقة في تدبير الله بعد بذلي للسبب؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا اليومية.

· وقفة الصباح مع "الأول": قل في بداية يومك: "اللهم أنت الأول، بك أصبحنا، وبك نبدأ يومنا".
· وقفة المساء مع "الآخر": قل في نهاية يومك: "اللهم أنت الآخر، وإليك المصير، فتقبل عملنا واغفر لنا".
· وقفة الأزمة مع "الظاهر": انظر إلى السماء، إلى الجبال، إلى معجزات الخلق، وقل: "اللهم أنت الظاهر، لا يعجزك شيء".
· وقفة الخلوة مع "الباطن": عندما تخلو بنفسك وتهم بذنب، قل: "اللهم أنت الباطن، العليم بسريرتي،

استرني واهدني".
· وقفة الحيرة مع "العليم": قل: "اللهم أنت العليم بما نجهل، دبر لنا أمورنا فإننا لا نحسن التدبير".

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة التفكير الاستراتيجي الشامل: ربط البدايات بالنهايات (الأول بالآخر).
· مهارة التحليل العميق: تحليل الظواهر بربط ظاهرها بباطنها.
· حياتياً:
· مهارة اليقظة الذهنية: العيش في حالة وعي دائم بأن الله محيط بك.
· مهارة إدارة المشاعر: السيطرة على القلق والحزن والتشتت.
· عملياً:
· مهارة الإخلاص: تصفية النوايا والعمل لله وحده في بيئة تنافسية.
· مهارة بناء الثقة: الثقة في الله وفي قدرته على تدبير الأمور، مما ينعكس ثقة في الأداء.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

أولاً: المفاهيم العملية من الآية وكيفية تطبيقها.

· مفهوم "الهندسة الإلهية للزمن": إدراك أن الماضي والحاضر والمستقبل محاطون بالله (الأول والآخر). التطبيق: التخطيط الاستراتيجي طويل المدى بأمان، والتقييم الدوري للماضي بنية التعلم لا الندم.
· مفهوم "إدارة المخاطر بالأمان الإلهي": مواجهة المخاطر المحتملة بثبات، لأن الله هو الظاهر الذي لا يغلب، والآخر الذي بيده العاقبة. التطبيق: اتخاذ القرارات الجريئة بعد الدراسة والتوكل، دون خوف مفرط من الفشل.
· مفهوم "الجودة الشاملة من منطلق الباطن": الجودة لا تقتصر على المنتج النهائي (الظاهر)، بل تشمل نية العامل وإخلاصه وضميره (الباطن). التطبيق: بناء ثقافة مؤسسية تقوم على "راقب الله في عملك" بدلاً من "راقب الكاميرا".

ثانياً: المفاهيم النفسية التفصيلية.

· مفهوم "الأمان الوجودي المطلق": إدراك أن الله هو الأول والآخر يمنح النفس طمأنينة كاملة. أنت لست ابن الصدفة، ولا تمضي إلى العدم. لك بداية معروفة عند (الأول)، ونهاية مضمونة عند (الآخر). هذا المفهوم يعالج القلق الوجودي وجذور الاكتئاب الناتجة عن الشعور بالعبثية.
· مفهوم "تقدير الذات المستقى من الباطن": عندما تستقر حقيقة أن الله (الباطن) يعلم حقيقتك وجهادك ونواياك، فإنك تتحرر من الحاجة المرضية لتقدير الآخرين (الظاهر). مصدر قيمتك الذاتية يصبح من نظرة الله إليك، لا من نظرة الناس. هذا يعالج اضطرابات الشخصية المرتبطة بالبحث عن الاستحسان الخارجي.
· مفهوم "التمركز حول الذات الإلهية": النفس المشتتة تجد مركزها في الله. إذا كان الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فكل أبعاد حياتك تجتمع وتتناغم حول هذا المركز الواحد، فيزول التشتت والتناقض الداخلي، ويصبح للإنسان هوية نفسية متكاملة غير مجزأة.
· مفهوم "المراقبة المطمئنة لا المرعبة": استشعار (الباطن) ليس استشعاراً لشرطي متخفٍ، بل لرب رحيم قريب. هذا ينتج "رقابة ذاتية" قوامها الحياء والمحبة، لا الخوف والرعب، مما يحافظ على الصحة النفسية ويدفع للعمل بإيجابية.

ثالثاً: المفاهيم الفكرية التفصيلية.

· مفهوم "وحدة الحقيقة": الآية تؤسس فكرياً أن هناك حقيقة واحدة مطلقة هي الله، وهو الظاهر والباطن. هذا يعني أن الحقيقة لا تتجزأ، وما من ظاهر إلا وله باطن مرتبط بالله. هذا يبني عقلاً ناقداً لا يقبل بالمظاهر الخادعة، ويبحث دائماً عن الجوهر.
· مفهوم "نسبية الزمن أمام الأبدية": فكرياً، عندما يكون الله هو الأول والآخر، يصبح الزمن البشري (ماضياً وحاضراً ومستقبلاً) مجرد نقطة في بحر الأبدية الإلهية. هذا المفهوم يحرر العقل من ضغط الوقت والتوقيتات، ويجعله يفكر في دورات زمنية أطول، وفي القيمة الباقية للعمل، لا في النتائج الآ

آنية فقط.
· مفهوم "العلم الإلهي كمصدر لليقين": قوله "وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" يعطي العقل قناعة بأن هناك علماً مطلقاً يحيط بكل شيء. حتى ما يجهله البشر أو يعجزون عن تفسيره، هو معلوم لله. هذا يمنح العقل "سكينة معرفية"، فيقبل بالمتغيرات والمستجدات بصدر رحب، لأنه يعلم أنها داخلة في علم الله وحكمته، حتى لو لم يفهمها.

رابعاً: المفاهيم التربوية

· مفهوم "التربية بالغايات لا بالوسائل": المربي الذي يستلهم اسم (الآخر) يربي طلابه على أن الغاية هي الله، وليست الشهادة أو الوظيفة. هذا ينتج متعلماً صاحب رسالة، وليس مجرد باحث عن شهادة.
· مفهوم "بناء الضمير على أساس (الباطن)": بدلا ً من آلاف التعليمات السلوكية الظاهرية، فإن غرس اسم (الباطن) في قلب الطفل يبني له رقيباً داخلياً يعمل 24 ساعة. هذه التربية أبعد أثراً وأكثر ثباتاً.
· مفهوم "التربية على التوازن بين الظاهر والباطن": تربية الولد على الاهتمام بمظهره (الظاهر) وبجوهره وأخلاقه (الباطن) معاً، فلا يكون منافقاً يهتم بظاهره ويهمل باطنه، ولا مهملا ً يهمل ظاهره بحجة صلاح باطنه.
· مفهوم "التعليم بالدهشة من (الظاهر)": المربي يستخدم ظواهر الكون (السماء، الأرض، جسم الإنسان) ليثير دهشة الطالب، ويقوده من هذه الدهشة إلى معرفة (الظاهر) الذي أبدع هذا الخلق. هذه التربية تصنع عالماً متعلماً لله، لا مجرد موظف آلي.

خامساً: أبعاد الآية وآفاقها.

· البعد الوجودي: تقدم الآية نموذجاً متكاملا ً للوجود، يبدأ بالله وينتهي به، ويظهر بآياته ويبطن بلطفه. إنها تجيب عن كل الأسئلة الوجودية الكبرى.
· البعد المعرفي: تفتح الآية للعقل أفق المعرفة الشاملة، التي تربط بين الظاهر والباطن، والعلم الإ نساني والعلم الإلهي.
· البعد الأخلاقي: تؤسس لأخلاق "الضمير المطلق"، حيث الإحسان في الخفاء والعلن، لأن العليم بـ الظاهر والباطن يراك.

سادساً: القيم التي تغرسها الآية في النفوس.

· قيمة اليقين: التيقن المطلق بالله وصفاته.
· قيمة الإخلاص: تصفية العمل لله وحده.
· قيمة المراقبة: دوام الشعور بنظر الله.
· قيمة الطمأنينة: السكون إلى تدبير الله.
· قيمة التوازن: الجمع بين متطلبات الظاهر والباطن، الدنيا والآخرة.

ختاماً، هذه الآية هي ميثاق الروح. إنها تنقلك من التيه إلى اليقين، ومن القلق إلى السكينة، ومن السطحية إلى العمق، ومن التشرذم إلى الوحدة. إنها تجعلك ترى الحياة بوضوح تام، لأنك تراها بالله الأول والآخر والظاهر والباطن، العليم بكل شيء.

المبحث الرابع

تفسير الآية الرابعة من سورة الحديد

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

المقدمة: الآية الرابعة من سورة الحديد.. تتويج التوحيد بمنظومة الخلق والمراقبة والحب

بعد أن أرست الآيات الثلاث الأولى قواعد عظيمة، بدأت الأولى بقاعدة الانسجام والتسبيح الكوني، و الثانية بقاعدة الأمان المستند إلى مُلك الله وقدرته المطلقة، والثالثة بقاعدة اليقين المستمد من إحاطة الله بالزمان والمكان والسر والعلن، تأتي الآية الرابعة لتتوج هذا البنيان كله. إنها ليست مجرد آية، بل هي مشهد كوني مهيب، ومنظومة متكاملة من الحقائق التي تخاطب العقل والقلب والضمير معاً.

وقبل أن نغوص في أعماق هذه الآية، لا بد أن نقف عند سياقها العظيم. هذه الآية جاءت بعد أن

قرر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أحدانيته وتفرده في الألوهية والربوبية. لقد كان الزمان خ الياً من الزمان، والمكان خالياً من المكان، والكون في ظلمة العدم: أرض بلا أرض، وسماء بلا سماء، ونجوم بلا نجوم، وماء بلا ماء. وكما ورد في الصحيحين عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وكانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كلَّ شَيْءٍ، وخَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ». إنها حقيقة تملأ القلب دهشة وهيبة: كان الله وحده، لا شيء معه، ثم شاءت إرادته المطلقة أن يخلق هذا الكون البديع.

تخيّل معي هذا المشهد: أنت واقف على حافة العدم، تنظر إلى قدرة الله وهي تمسك بالكون كله فتقول له: "كُنْ فَيَكُونُ". إنها القدرة التي لا يعجزها شيء، والإرادة التي لا يردها شيء. ومع ذلك، فقد خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، ليعلمنا درساً بليغاً في التأني والإتقان. نحن لا ندري ما مقدار هذه الأيام الستة، هل هي مثل أيام البشر التي نعرفها، أم أيام من أيام الله التي يختلف حسابها؟ قال تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: 47]. لكننا نعلم يقيناً أنه لم يصبه إعياء ولا تعب، فهو القادر على خلق الكون بكلمة "كن فيكون"، لكنه أراد أن يعلمنا التأني و التمهل في الأمور.

وهذه الحقيقة التي يواجه الله بها البشر، ويستهدف عقولهم ومشاعرهم، تدعوهم للتأمل في خلق الكون بضخامة سماواته وأرضه، وما بينهما من نجوم وكواكب ومجرات وجبال وسهول وبحار، ونظام دقيق يحكمها تتحرك فيه بدقة وانتظام. إن المراد من هذا كله هو مخاطبة القلب البشري بهذه الحقيقة، ليأخذ منها تذوق حب العظيم الذي أبدع في صنع هذا الكون. فمن تأمل أدرك أنه مبدع في صنعه، عليم حكيم في تقدير صنعه وتقدير حركة كل شيء بدقة، فهو حي ويسمع ويبصر وقدير، مشيئته وإرادته مطلقة، فيرى الله في هذا الكون.

انظر كيف قضى الله للسماء والأرض بكلمة: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11]. هذا الكون مجبور على طاعة الله، لا إرادة له، ولذلك لا يحاسبهم الله لأنهم لا إرادة لهم. أما الإنسان، هذا المخلوق الضعيف، فتجده يتمرد ويرفض أوامر ربه ويخالف منهج الله، وهو أضعف من هذه الكائنات! وهذا الإنسان محاسب لأن الله منحه الإرادة. الله يقرع قلوبنا بهذه الحقيقة: بصفته الخالق، فإن مقتضى ذلك من العبد هو الخضوع والاستسلام لله. إنه يقول لنا: علينا أن نأخذ الدروس من المخلوقات في الكون، كيف أنها تعبد الله وتخضع له. قال في موضع آخر: {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21]. فكيف بك أيها الإنسان لا تتعلم من الصخور والسماء وتخضع لمنهج الله، وأنت أرقى من هذه المخلوقات؟ انظر إلى جمال الكون ترى عظمة الله وجماله وجلاله، فينغرس في قلبك حب الله وعظمته وجلاله، وتخضع له مثلما تخضع هذه الصخور والكواكب والشجر والنجوم والدواب.

وهكذا، وبعد هذا السياق العظيم، تأتي هذه الآية لتعلن الحقائق الخمس الكبرى التي سنبحر في أعماقها: حقيقة الخلق والتأني، وحقيقة الهيمنة الربانية، وحقيقة العلم المحيط، وحقيقة المعية الإلهية، وحقيقة الرقابة والبصيرة. إنها دعوة مفتوحة للدخول في رحاب الله، والتذوق بجماله، والاطمئنان إلى قربه، والعمل تحت بصره.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة في أعماق الحقائق الخمس الكبرى

والآن، لنبدأ معاً في تفكيك هذه الحقائق الخمس التي تنبض بها الآية، ونستخرج منها كنوز التربية و العمل والحياة.

الحقيقة الأولى: في رحاب "هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ".. جلال الخلق وحكمة التأني

هذه هي الحقيقة الأولى التي تواجهنا بها الآية: حقيقة أن الله هو الخالق. إنها ليست مجرد إخبار، بل هي إعلان عن عظمة الله وقدرته، ودعوة للقلب كي يتذوق حب هذا العظيم الذي أبدع في صنع هذا الكون.

.1دلالة خلق السماوات والأرض في ستة أيام:

كما بينا في المقدمة، كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء. ثم خلق السماوات وا لأرض. وهو القادر على أن يقول للشيء "كن فيكون"، لكنه خلقها في ستة أيام. لماذا؟

· لتعليمنا التأني والإتقان: إنه سبحانه يريد أن يغرس في نفوسنا قيمة "التأني" و"التدرج". إذا كان الله، وهو القادر على كل شيء، قد خلق الكون في مراحل، فأنت أيها الإنسان أولى بأن تتأنى في أعمالك ومشاريعك. هذا درس عظيم للقادة والمربين وكل من يريد بناء شيء: لا تستعجل النتائج، وامنح عملك وقته كي ينضج ويكتمل.

· لإثارة الدهشة والتأمل: خلق السماوات والأرض في ستة أيام يفتح للعقل باباً للتأمل في عظمة الخلق. هذه السماوات بضخامتها، والأرض بما فيها من جبال وسهول وبحار، والنجوم والكواكب و المجرات التي تتحرك بدقة ونظام، كلها خلقت في ستة أيام. هذه الحقيقة تخاطب القلب البشري ليتذوق حب العظيم الذي أبدع في صنع هذا الكون. فمن تأمل أدرك أن الله مبدع في صنعه، عليم حكيم في تقديره، حي يسمع ويبصر، قدير لا يعجزه شيء. إنها دعوة لأن ترى الله في هذا الكون، فتزداد له حباً وتعظيماً وخضوعاً.

.2الكون مجبور على الطاعة، والإنسان مخير:

انظر إلى قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}. هذا الكون كله، بكل ما فيه من كواكب ونجوم وجبال، مجبور على طاعة الله، لا إرادة له، ولذلك لا يحاسبه الله. أما أنت أيها الإنسان، هذا المخلوق الضعيف، فقد منحك الله الإرادة و الاختيار. فكيف تتمرد وترفض أوامر ربك، وأنت أضعف من هذه الكائنات العظيمة؟ وكيف لا تتعلم من الصخور والسماء فتخضع لمنهج الله، وأنت أرقى المخلوقات؟ إنها مقارنة تزلزل الوجدان، وتدعو الإ نسان إلى أن يستحي من الله الذي أكرمه بالعقل والإرادة، ثم هو يعصيه!

تأمل معي قوله تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}. الجبل، بصلابته وقوته، لو أنزل عليه القرآن لتخشع وتصدع. فما بال قلبك أيها الإنسان لا يخشع؟ إن التأمل في جمال الكون وعظمته يقودك إلى حب الله، ويجعلك تخضع له مثلما تخضع هذه المخلوقات ، ولكن بطاعة حرة واعية، لا جبرية.

.3الرسائل والتوجيهات العملية:

· الرسالة التربوية: تعليم النشء أن الإتقان والتدرج سنة إلهية، وأن العجلة من الشيطان.

· الرسالة الإيمانية: تحويل التأمل في الكون إلى عبادة يومية تزيد من محبة الله في القلب.

· الرسالة العملية: في كل مشروع تبدأه، تذكر أن الله خلق الكون في ستة أيام، فخطط على مراحل، ولا تيأس من بطء النتائج.

الحقيقة الثانية: "ثمّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ".. الهيمنة الربانية والتدبير المحكم

بعد الخلق، يأتي الإعلان عن الاستواء على العرش، وهو الإعلان عن الهيمنة والتدبير.

.1دلالة الاستواء على العرش:

هذه من المسائل التي ينبغي علينا أن نؤمن بها ولا نخوض في تفاصيلها. الله أخبرنا أنه استوى على العرش، ونحن واجبنا أن نؤمن بهذا الكلام، ولا نسأل عن الكيفية، وإنما نعظم الله ونؤمن بها كما وردت، مع التنزيه الكامل لله عن مشابهة المخلوقين. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

المعنى الذي نستفيده من هذا: أن الله بعد أن خلق الكون، لم يتركه هملا ً، بل تولى أمره وتدبيره. إنه القائم على شؤون الخلائق، يدبر الأرزاق، ويصرف الأمور، ويجيب المضطر. هذا هو مصدر الأمان الحقيقي للقلب المؤمن.

.2التأثير النفسي لإدراك الهيمنة الإلهية:

عندما تستقر في قلبك حقيقة أن الله مستوٍ على عرشه، مهيمن على كونه، فإن هذا يملؤك طمأنينة وسكينة. أنت لست في كون فوضوي، بل في كون له رب مهيمن، حكيم في تدبيره. هذا الإ دراك هو الترياق الشافي لداء "القلق الوجودي". لا تخف على مستقبل، ولا تحزن على ماض، فالله على العرش استوى، والأمر بيده.

الحقيقة الثالثة: "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا".. العلم المحيط والاطمئنان للتدبير

بعد تقرير الهيمنة، تأتي حقيقة العلم المحيط، لتكمل صورة الكمال الإلهي.

.1دلالة العلم المحيط الشامل:

هذه الآية ترسم صورة لعلم الله الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة. إنه يعلم ما يلج في الأرض: كل ما يدخل في باطنها من بذور، وحشرات، وموتى، وماء، ومعادن، وهواجس دفينة. ويعلم ما يخرج منها: كل ما يخرج من نبات، ومزروعات، ومعادن، وأموات يوم القيامة. ويعلم ما ينزل من السماء: من مطر، وملائكة، وأرزاق، وأقدار. ويعلم ما يعرج فيها: من بخار ماء، وأرواح، وأعمال، ودعاء، فإليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح.

إنه علم لا يحيط به عقل، يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، الظاهر والمستتر. وهذا العلم يجب أن يبني في المسلم عقيدة راسخة: أن كل شيء يسير بإرادة الله ومشيئته وعلمه، فلا شيء يقع في الكون عبثاً أو صدفة.

.2التأثير النفسي لإدراك إحاطة العلم:

· تفريغ الهموم والقلق: ما دام الله يعلم كل شيء، ويعلم دخائل الأمور وخباياها، وهو القائم بتدبيرها، فعلامَ القلق؟ علمه بمصاعبك واحتياجاتك يعني أنه أعد لها حكمة وتدبيراً. أنت معتنى بك، وكل رزقك وإحسانك وكل أعمالنا في علم الله وتحت بصره.

· التحرر من الخوف من المخلوق: لا يمكن لأحد أن يضرك أو ينفعك بشيء إلا بعلم الله وإرادته. هذا يصرف خوفك من المخلوق إلى الخالق وحده، ويمنحك عزة المؤمن وثقته بربه.

· اليقين بأن النفع والضر بيد الله وحده: يدرك المؤمن أن الله هو الذي يملك النفع وحده لا شريك له، فلا يتعلق قلبه بغيره.

الحقيقة الرابعة: "وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ".. المعية الإلهية.. الأنس المطلق وزوال الوحشة

هذه هي الحقيقة الرابعة، وهي من أعظم حقائق الآية وأشدها قرباً من القلب. بعد أن أثبت العلم المطلق، يثبت المعية الدائمة.

.1دلالة "وَهُوَ مَعَكُمْ":

هذه "معية خاصة" بالعلم والإحاطة والقدرة والرقابة والحفظ. إنها تشير إلى هيمنة الله وسلطانه المطلق، وعلمه بأحوالنا وأعمالنا وخواطرنا وخلجات أنفسنا. الله معنا أينما كنا، لا يمكن أن نختبئ منه، ولا يمكن أن نغيب عن علمه. أسرارنا مكشوفة له، وهو أعلم بنا من أنفسنا.

لكن هذه المعية ليست معية ترهيب فقط، بل هي معية أنس وأمان. إنها تعني أنك لست وحيداً في هذا الكون أبداً. الله معك. هذا الشعور هو أعظم ما يمكن أن يملأ قلب المؤمن سكينة وطمأنينة.

.2التأثير النفسي والتربوي لإدراك المعية:

· زوال الوحشة والغربة: المؤمن الذي يستشعر أن الله معه لا يحس بغربة ولا وحشة. الله معه، يكفي أن يكون أنساً له. إذا ادلهمت الظلمات، واشتدت الكربات، فإن شعوره بأن الله معه يزيل وحشته ، ويجعله يلجأ إلى الله ويستجير به.

· قوة وعزيمة لا تلين: هذا الشعور يمد المؤمن بقوة وعزيمة وإرادة لا تلين. إنه واثق أن من يقف معه هو الله القوي العظيم، الذي لا توجد قوة تقف أمامه. إنه شعور قال عنه موسى عليه السلام: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62]. هذا هو التعزيز الحقيقي للإيمان بالقضاء والقدر والتوكل على الله.

· اليقظة الدائمة والخوف من الله: الشعور بمعية الله يجعل المؤمن يعيش بيقظة دائمة. إنه يشعر برقابة الله، وهذه هي أساس الفاعلية الإيجابية. قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: 194]. هذه المعية تورث التقوى.

· تذوق حب الله: من أعظم ثمار هذه المعية أن المؤمن يتذوق بقلبه وأحاسيسه ومشاعره حب الله بإحسانه وإنعامه. إنه يشعر أن كل النعم من الله، وأن كل شيء من الله، فيكون واثقاً بحماية الله، مطمئناً إلى عنايته.

· تطهير القلب من التعلق بالدنيا: هذا الشعور العميق بالمعية يغني القلب عن التعلق بالدنيا والا نشغال بها، لأنه وجد أنسه الحقيقي في الله.

الحقيقة الخامسة: "وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ".. البصير.. تتويج المراقبة والإحسان

بعد الخلق والتدبير والعلم والمعية، يأتي تتويج الآية باسم "البصير"، ليربط كل الحقائق السابقة بالعمل والمسؤولية.

.1دلالة "بَصِيرٌ":

البصير هو الذي يرى كل شيء، لا تغيب عنه خافية، ولا يعزب عن بصره مثقال ذرة في الأرض و

لا في السماء. الله بصير بأعمال الإنسان يراها، لا شيء يغيب عن بصره. هو السميع البصير، ليس كمثله شيء، فقد أثبت الله لنفسه صفة السمع والبصر، لكن ليس مثل البشر، فلا شبيه له بأدوات السمع والبصر، ولا مثيل له ولا شبيه.

والمفهوم من الآية: أن تعرف أن الله مطلع على أعمالك، يسمع ويرى. فعليك أن تخجل من عصيانه لأنه يراك، وعليك أن تقهر نفسك وتجاهدها على ترك المعاصي. هل تريد أن يراك الله في معصية؟! إنها دعوة للحياء من الله.

.2من ثمرات هذه المعرفة:

· المراقبة والحياء من الله: أن يكون لدى المؤمن مراقبة دائمة وحياء من الله، فيحرص على أن لا يراه الله حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره.

· بلوغ مقام الإحسان: من التزم بهذا وصل إلى أعلى مقام، وهو مقام الإحسان، الذي عرفه النبي ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

· الإحسان في العمل: هذا يؤدي إلى الإحسان في العمل، في النوايا والتصورات والأداء، فيكون لك الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

المحور التحليلي: العلاقة الوثقى بين الحقائق الخمس.. منظومة الحب والمراقبة والعمل

والآن، لنربط هذه الحقائق الخمس في منظومة واحدة، لنرى كيف تبني شخصية المؤمن المتكامل.

.1من "الخلق" إلى "الحب":

التأمل في خلق السماوات والأرض يقود إلى حب الله. إنه إبداع عظيم، وصنع متقن، وتقدير حكيم. هذا الجمال في الكون يغرس في القلب محبة الله وتعظيمه. وحب الله هو أقوى دافع للطاعة والامتثال. فأنت لا تعبد الله خوفاً فقط، بل تعبده حباً وتذوقاً لجماله وجلاله.

.2من "العلم المحيط" إلى "الاطمئنان":

إدراك أن الله يعلم كل شيء، وأن كل صغيرة وكبيرة في علمه، يريح النفس من عناء التدبير. أنت لست مسؤولا ً عن إدارة الكون، بل مسؤول عن عملك فقط. هذه الطمأنينة تفرغ القلب من الهموم، وتجعله يتفرغ للإبداع والإنتاج.

.3من "المعية" إلى "الأنس والقوة":

استشعار أن الله معك أينما كنت يزيل الوحشة والغربة، ويمنحك قوة لا تلين. أنت لست وحدك، بل معك الله. هذا يجعلك تقدم على الصعاب بثبات، وتواجه التحديات بجرأة، وتعيش حياتك بقلب مطمئن.

.4من "البصير" إلى "الإحسان":

اليقين بأن الله بصير بعملك يدفعك إلى الإحسان في كل شيء. إنه يحول العمل إلى عبادة، و الوظيفة إلى رسالة، والحياة إلى سعي دائم نحو الكمال. هذا هو جوهر الانسجام مع الناموس الكوني الذي تحدثت عنه الآية الأولى.

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآية

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية"، يجب أن تربط كل حقيقة من الحقائق الخمس بواقعك النفسي والعملي.

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "تحويل الإيمان بالحقائق الإلهية (الخلق، التدبير، العلم، المعية، البصر) إلى طاقة حب ومراقبة وإحسان في العمل".

· أبعاد الآية كقاعدة لضبط المسار:

1. ضبط بوصلة القلب (بالحب): من خلال التأمل في خلق الله، فيمتلئ القلب حباً لله، فيكون الحب هو الدافع للعمل.

2. ضبط بوصلة العقل (بالعلم): من خلال إدراك أن الله عليم بكل شيء، فيثق العقل بتدبير الله ويسلم له.

3. ضبط بوصلة النفس (بالمعية): من خلال استشعار أن الله معه، فتطمئن النفس ويزول قلقها ووحدتها.

4. ضبط بوصلة الجوارح (بالبصير): من خلال اليقين بأن الله يرى كل عمل، فتتحول الأعمال إلى

إحسان متقن.

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون عباداً متكاملين، نعبده حباً وخضوعاً، ونعمل تحت بصره بإتقان وإحسان. في حياتنا العملية، تدعونا الآية إلى:

· التأمل في خلق الله يومياً: اجعل لك وقتاً تتأمل فيه في خلق السماوات والأرض، لتتجدد محبة الله في قلبك.
· إتقان العمل والتخطيط المتدرج: تعلّم من خلق الله في ستة أيام أن تتأنى في أعمالك، وتخطط لها على مراحل، وتتقنها.
· الطمأنينة في الأزمات: عند الشدائد، تذكر أن الله على العرش استوى، وأنه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، فهو مدبر أمرك.
· استشعار الأنس بالله في الخلوات: عندما تشعر بالوحدة، تذكر أن الله معك، فهو أنيسك ورفيقك.
· الحياء من الله عند المعاصي: تذكر أن الله بصير بك، فيمنعك هذا الحياء من الوقوع في المعصية، ويحثك على الإحسان في العمل.

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغيرها من أربعة أوجه:

.1من منظور الصدفة إلى منظور الإبداع: لم تعد الحياة صدفة، بل هي إبداع عظيم من خالق عظيم، مما يمنحها قيمة ومعنى.
.2من منظور القلق إلى منظور الأمان: لم يعد المستقبل مخيفاً، بل هو بيد عليم حكيم، مما يملأ القلب أمناً.
.3من منظور الوحدة إلى منظور الأنس: لم نعد وحدنا في هذا الكون، فالله معنا، مما يزيل الوحشة والغربة.
.4من منظور الغفلة إلى منظور اليقظة: لم نعد نعيش في غفلة، بل في يقظة دائمة تحت نظر الله البصير، مما يحول كل أعمالنا إلى إحسان.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآية وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول (من الخلق في ستة أيام): التأني في العمل والتخطيط له. التطبيق: عند بدء أي مشروع، ضع خطة زمنية على مراحل، ولا تستعجل النتائج.
· الدرس الثاني (من الاستواء على العرش): تفويض الأمر لله بعد بذل الأسباب. التطبيق: بعد أن تخطط وتعمل، توكل على الله، واطمئن إلى تدبيره.
· الدرس الثالث (من العلم المحيط): عدم القلق على الرزق والمستقبل. التطبيق: ثق بأن الله يعلم حاجتك، وسيرزقك من حيث لا تحتسب.
· الدرس الرابع (من المعية الإلهية): الشجاعة والثبات في مواجهة الأعداء والتحديات. التطبيق: واجه مخاوفك بثبات، وقل كما قال موسى: "إن معي ربي سيهدين".
· الدرس الخامس (من البصير): الإخلاص في العمل وإتقانه في السر والعلن. التطبيق: راقب الله في كل عمل تؤديه، وأحسن فيه، فالله يراك.

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآية في واقعنا العملي.

.1معيار الحب) من الخلق(: هل أتأمل يومياً في خلق الله، فأزداد له حباً وتعظيماً؟
.2معيار الأمان) من العلم(: هل أشعر بالقلق على المستقبل، أم أني واثق بعلم الله وتدبيره لي؟
.3معيار الأنس) من المعية(: هل أشعر بالوحدة والغربة، أم أن قلبي مطمئن بذكر الله ومعيته؟
.4معيار الإحسان) من البصير(: هل أتقن عملي في السر كما في العلن؟ وهل أستحي من الله أن يراني على معصية؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا اليومية.

· وقفة التأمل مع "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ": كل ليلة، انظر إلى السماء وتأمل في النجوم، وقل: "سبحان الذي خلق هذا فأبدع، املأ قلبي حباً لك".

· وقفة الأزمة مع "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ": عند الشدة والهم، قل: "اللهم أنت تعلم ما في نفسي، وتعلم حاجتي، فاكشف همي وفرج كربي".
· وقفة الخلوة مع "وَهُوَ مَعَكُمْ": إذا شعرت بالخوف أو الوحدة، تذكر أن الله معك، وقل: "يا أنيس المستوحشين، آنس وحدتي".
· وقفة العمل مع "وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ": قبل أي مهمة، قل لنفسك: "الله يراني الآن، وسأقدم له عم لا ً متقناً يليق بجلاله".

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة التأمل والتفكر: تحويل التأمل في الكون إلى عبادة يومية.
· مهارة التفكير الاستراتيجي: ربط البدايات بالنهايات، وفهم حكمة التدرج.
· حياتياً:
· مهارة إدارة القلق: التغلب على القلق والتوتر بالتوكل على الله العليم.
· مهارة الشجاعة والثبات: مواجهة المخاوف بقوة المعية الإلهية.
· عملياً:
· مهارة الإتقان والإحسان: تحويل كل عمل إلى عبادة بإتقانه لله البصير.
· مهارة التخطيط التدرجي: تنفيذ المشاريع بخطوات ثابتة ومتأنية.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

أولا ً: المفاهيم العملية من الآية وكيفية تطبيقها.

· مفهوم "الإتقان التدرجي": التخطيط لأي مشروع على مراحل، مستلهماً خلق السماوات والأرض في ستة أيام، مع تقييم الأداء بعد كل مرحلة. التطبيق: وضع خطة زمنية واضحة لأي مشروع، وتقسيمه إلى مراحل صغيرة قابلة للتنفيذ.
· مفهوم "إدارة المخاطر بالأمان الإلهي": مواجهة المخاطر المحتملة بثبات، لأن الله يعلم ما يلج في الأ رض وما يخرج منها، وهو المدبر الحكيم. التطبيق: عند حدوث أزمة، عمل تحليل للموقف بهدوء، مع تفويض الأمر لله والثقة بتدبيره.
· مفهوم "الجودة القائمة على المراقبة الذاتية": الجودة في العمل لا تأتي من الرقابة الخارجية فقط، بل من استشعار أن الله بصير. التطبيق: تدريب النفس على سؤال: "هل الله راض عن هذا العمل؟" قبل عرضه على أي إنسان.

ثانياً: المفاهيم النفسية .

· مفهوم "الحب الإلهي كدافع للعمل": النظر إلى الكون يولد في النفس دهشة وإعجاباً بصنع الله، وهذا يتحول إلى حب لله. حب الله هو أقوى دافع نفسي للاستمرار في الطاعة، لأنه لا يقوم على الخوف المؤقت، بل على تذوق الجمال الإلهي. هذا المفهوم يعالج "الفتور في العبادة"، ويحولها من واجب ثقيل إلى متعة روحية.
· مفهوم "الأمان الوجودي من إدراك التدبير": كثير من القلق النفسي سببه الشعور بأن الحياة فوضى لا متحكم فيها. عندما يستقر في النفس أن الله على العرش استوى، وأنه يعلم كل شيء، يزول هذا القلق ويحل محله "أمان وجودي" عميق. أنت في كون منظم، وكل أمر بقدر، وهذا يريح النفس من عناء محاولة التحكم في كل شيء.
· مفهوم "الأنس الإلهي وزوال الوحشة": الشعور بالوحدة هو أزمة نفسية يعاني منها كثير من الناس. استشعار "وهو معكم" هو العلاج الأمثل. إنه يملأ الفراغ العاطفي والوجودي، ويشعر المؤمن بأنه ليس وحيداً أبداً. هذا المفهوم يبني "اكتفاءً ذاتياً" روحياً، فلا يتعلق الإنسان تعلقاً مرضياً بالآخرين بحثاً عن الأنس.
· مفهوم "المراقبة المطمئنة لا المرعبة": استشعار أن الله "بصير" ليس معناه العيش في رعب، بل العيش في حياء ومحبة. أنت تراقب نفسك لأنك تحب الله وتستحي أن يراك على خطأ، لا لأنك مرعوب من عقابه فقط. هذه المراقبة النابعة من الحب هي التي تبني صحة نفسية إيجابية، وتدفع ل لإحسان بشغف.

ثالثاً: المفاهيم الفكرية .

· مفهوم "سببية التدرج": خلق الله للعالم في ستة أيام يؤسس فكرياً لقانون "التدرج". التغيير الجذري لا يكون لحظياً، بل عبر مراحل. هذا المفهوم يعالج الفكر الثوري المتطرف الذي يريد هدم كل شيء وبنائه في لحظة، ويؤسس لفكر إصلاحي واقعي يبني خطوة خطوة.
· مفهوم "شمولية العلم": فكرة أن الله يعلم "ما يلج" و"ما يخرج" و"ما ينزل" و"ما يعرج" تعني أن العلم الإلهي محيط بكل التفاصيل الدقيقة التي قد يغفل عنها البشر. هذا يعطي العقل تواضعاً معرفياً، فيدرك أن هناك دائماً ما هو خفي عنه، فلا يغتر بعلمه، ويبقى منفتحاً على التعلم والمراجعة.
· مفهوم "المعية كأساس للفاعلية": "وهو معكم" ليست مجرد فكرة عاطفية، بل هي فكرة محركة للفاعلية. الشعور بأن قوة عظمى مطلقة معك يجعلك تفكر في إمكانيات لا محدودة، ويحفزك على العمل والإنجاز دون خوف. هذا المفهوم هو الوقود الفكري لأي مشروع نهضوي.

رابعاً: المفاهيم التربوية

· مفهوم "التربية بالجمال": توجيه المتربي للتأمل في جمال الكون (السماء، الأرض، النجوم) لغرس محبة الله في قلبه. هذه التربية الجمالية أعمق أثراً من التربية القائمة على الترهيب فقط. عندما يحب الطفل الله لأنه رأى إبداعه في الخلق، فإنه ينشأ على طاعة نابعة من القلب.
· مفهوم "غرس الضمير الحي بالمعية والبصير": بدلا ً من الاعتماد الدائم على المراقبة البشرية، نغرس في المتربي اسمي "البصير" و"وهو معكم". هذا يبني لديه رقابة ذاتية تعمل 24 ساعة، ويصنع منه إنساناً ذا ضمير حي، يأبى الخطأ حتى في غياب الرقيب البشري.
· مفهوم "التعليم بالتدرج": تعليم المتربي أن النجاح لا يأتي دفعة واحدة، بل بخطوات. نعلمه الصبر، ونحتفل معه بالإنجازات الصغيرة، ولا نطالبه بالكمال الفوري، كما أن الله خلق الكون في ستة أيام.

خامساً: أبعاد الآية وآفاقها.

· البعد الإيماني العقدي: ترسيخ عقيدة الخلق والتدبير والعلم والمعية والبصر، وهي أركان الإيمان ب الله وأسمائه وصفاته.
· البعد النفسي: بناء شخصية مطمئنة، آمنة، مستقرة نفسياً، لا تعاني من القلق أو الوحدة أو الخوف.
· البعد الحضاري: إطلاق طاقات الإبداع والإتقان، حيث يتحول العمل إلى عبادة، مما ينتج حضارة متقنة ومزدهرة.

سادساً: مفاهيم البناء والتنمية من الآية.

· مفهوم "البناء المتدرج للحضارة": الحضارة لا تبنى في يوم وليلة، بل عبر عقود وقرون من العمل الدؤوب المتدرج. الآية ترشدنا إلى أن التدرج سنة كونية. التطبيق: بناء مشاريع تنموية طويلة النفس، والتخطيط الاستراتيجي لعشرات السنين، وعدم اليأس من بطء الإنجاز.
· مفهوم "التنمية بالأمان": لا تنمية حقيقية في مجتمع يسوده الخوف والقلق على المستقبل. الإيمان بأن الله يعلم كل شيء ويدبر الأمر يخلق بيئة نفسية آمنة للأفراد، تمكنهم من الإبداع والإنتاج. التطبيق: نشر ثقافة التوكل واليقين بالله في المؤسسات والمجتمع، لطرد شبح القلق الاقتصادي والا جتماعي.
· مفهوم "تنمية الإنسان بالمراقبة الذاتية": أغلى وأقوى أنواع التنمية هي تنمية الضمير. مجتمع يمتلك أفراده ضمائر حية نابعة من استشعار "البصير" هو مجتمع لا يحتاج إلى أجهزة رقابية ضخمة، لأن كل فرد فيه رقيب على نفسه. التطبيق: إدخال برامج التربية الإيمانية في المدارس والجامعات التي تركز على غرس معاني المعية والبصير.

سابعاً: القيم التي تغرسها الآية في النفوس.

· قيمة الحب الإلهي: حب الله النابع من التأمل في خلقه وإبداعه.
· قيمة الطمأنينة: السكون والثقة في تدبير الله.
· قيمة الأنس: الشعور الدائم بقرب الله ومعيته.
· قيمة الإحسان: إتقان العمل وإخلاصه لله لأنه يرانا.
· قيمة التأني: الصبر وعدم استعجال النتائج.

ثامناً: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة لبناء الإنسان وصناعة التطور والنهضة في الحياة؟

هذه هي الغاية الكبرى من تدبر الآية: أن تتحول معانيها إلى واقع عملي يبني الفرد وينهض بالأمة. كيف يتم ذلك؟

.1بناء الفرد:
· برنامج يومي للتأمل (من خلق السماوات والأرض): نخصص 5 دقائق يومياً للتأمل في خلق الله، في الطبيعة، في السماء، في أنفسنا. هذا يغذي روح الحب لله، ويجعل الإيمان حياً متجدداً.
· تدريب على المراقبة الذاتية (من البصير): قبل النوم، نحاسب أنفسنا: "ماذا عملت اليوم مما يرضي الله؟ وماذا عملت مما لا يرضيه؟" هذا التمرين يبني الضمير الحي.
· ترسيخ الأمان النفسي (من العلم والمعية): عند مواجهة أي مشكلة، نتعلم أن نردد: "الله عليم بأمري، وهو معي". هذا يبني مناعة نفسية ضد الانهيار.
.2صناعة التطور والنهضة:
· في التعليم: بناء مناهج تعليمية تربط العلوم بالله، فدراسة الفلك تقود إلى "خلق السماوات"، ودراسة الأحياء تقود إلى "يحيي ويميت"، ودراسة الجيولوجيا تقود إلى "يعلم ما يلج في الأرض". هذا يخرج جيلا ً يرى الله في كل علم، فيتعلم بإخلاص وإتقان.
· في الاقتصاد: بناء اقتصاد يقوم على "الإحسان" و"الإتقان". المنتج الذي نصنعه يجب أن يكون متقناً لأن الله بصير بصانعه. هذا يخلق ميزة تنافسية حضارية قوامها الجودة العالية.
· في الإدارة: بناء مؤسسات تقوم على "المعية" بين القائد وفريقه. القائد ليس متسلطاً، بل هو مستخلف، يشعر أن الله معه ومع فريقه، فيرعى مصالحهم، ويثق بهم، ويمنحهم الأمان النفسي الذي يطلق قدراتهم الإبداعية.
· في مواجهة الأزمات: مجتمع يتربى أفراده على أن الله "على العرش استوى" و"يعلم ما يلج" و "وهو معكم"، هو مجتمع لا تهزه الأزمات. إنه يواجهها بثبات، ويخطط للخروج منها بتأن، ويوقن بأن بعد العسر يسراً.

وهكذا، تتحول هذه الآية العظيمة من مجرد نص إيماني، إلى مشروع متكامل لبناء الفرد المطمئن المتيقن، والمجتمع المنتج المبدع، والحضارة المتقنة النأهضة. إنها خارطة طريق تجمع بين جلال الخلق، وجمال الحب، وقوة المعية، وإتقان العمل، لتخرج بالإنسان من ظلمات التيه إلى نور اليقين و العمل الصالح.

.

المبحث الخامس

تفسير الآيتين الخامسة والسادسة من سورة الحديد

قال الله تعالى:

{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} (5)

{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (6)

المقدمة: الآيتان الخامسة والسادسة من سورة الحديد.. توحيد الملك والمرجع والتصريف وبواطن القلوب

بعد أن أرست الآيات الأربع الأولى قواعد عظيمة متصاعدة؛ بدأت الأولى بقاعدة الانسجام والتسبيح الكوني، والثانية بقاعدة الأمان المستند إلى ملك الله وقدرته المطلقة، والثالثة بقاعدة اليقين المستمد من إحاطة الله بالزمان والمكان والسر والعلن، والرابعة بقاعدة الخلق والتدبير والمعية والرقابة، تأتي ا لآيتان الخامسة والسادسة لتشدّا هذا البنيان وتزيداه وثاقة ورسوخاً، وتنقلا المؤمن من مقام اليقين إلى مقام التسليم الكامل، ومن الوعي بالرقابة إلى الوعي بخفايا الصدور.

تخيّل معي إنساناً يعيش صراعاً داخلياً بين ما يملك وما لا يملك، بين ما يظهر للناس وما يخفيه في صدره، إنساناً يظن أن الأمور بيده، أو بيد غيره من البشر، فيتعلق قلبه بالأسباب وينسى مسببها. هنا تأتي هاتان الآيتان كالبلسم الشافي اللتين تعيدان ترتيب علاقات القلب بالمُلك والمصير والأسرار.

إنهما تعالجان داءين خطيرين: داء "التعلق بالمُلك" وداء "الرياء وخبث السريرة"، لا بالوعظ السطحي، بل بترسيخ حقيقتين كونيتين: الأولى أن الملك كله لله، وأن مرد الأمور كلها إليه، والثانية أن الله هو مصرف الليل والنهار، وهو العليم بذات الصدور.

إنهما تدعوانك لأن تشهد بقلبك أن لا مالك إلا الله، ولا مرجع إلا إليه، ولا مصرف للكون إلا هو، ولا يخفى عليه ما تكنه الصدور من خواطر ونوايا وأسرار. يخبرنا الحق سبحانه في محكم تنزيله بهذا الإ علان المهيب المتصل: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)}.

دعنا نضع المفاتيح الرئيسية لفهم هاتين الآيتين قبل الخوض في غمارهما:

1.وحدة الملك ومرجعية الأمور: كل ما في الكون ملك لله، وكل الأمور عاقبتها ومصيرها إليه وحده.
2.التصريف المستمر للكون: الله هو الذي يصرف الليل والنهار، ويدبر الكون في حركة دائمة لا تفتر.
3.العلم المطلق بالسرائر: لا يخفى على الله ما في الصدور، فهو عليم بالنوايا والخواطر والخفايا قبل أن تظهر.

ثانياً: تحليل الآيتين.. رحلة إلى مقام التسليم ومراقبة السرائر

والآن، لنغص معاً في كلمات هاتين الآيتين الكريمتين، ونستخرج كنوزهما التي تبني الإنسان المتوكل المخلص.

تحليل الآية الخامسة: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}

المحور الأول: في رحاب "لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".. إعادة ترسيخ الملكية المطلقة

انظر كيف تعيد هذه الآية تقرير حقيقة عظيمة وردت في الآية الثانية، ولكن في سياق جديد يؤكد رسوخها وأهميتها.

1.دلالة تكرار تقرير الملك:
لماذا تكرر الإعلان بأن "له ملك السماوات والأرض"؟ إنه تكرار مقصود للتأكيد والترسيخ. في الآية الثانية جاء ليقرر مصدر الأمان، وهنا في الآية الخامسة جاء ليمهد لحقيقة "رجوع الأمور". فطالما أن الملك لله، فمن المنطقي أن مرد الأمور كلها إليه. هذا التكرار يعمق في النفس الشعور بأن لا مالك حقيقي إلا الله. كل ما تراه من أملاك البشر هو ملك مؤقت، إعارة من المالك الحقيقي. من الناحية النفسية، هذا يقتلع من القلب جذور "الطمع" و"الخوف من الفقر" و"التعلق بالدنيا". فمن يتعلق بشيء لا يملكه حقيقة؟
2.العلاقة بين "الملك" و"الرجوع":
الآية تربط بين الملكية المطلقة لله ورجوع الأمور إليه. هذا يعني أن الله ليس مجرد مالك غائب، بل هو مالك فاعل، وإليه تعود كل الأمور للفصل فيها والقضاء. هذا يعطي القلب طمأنينة عظيمة: هناك مرجع أخير للعدل، ومرجع أخير لفصل الخصومات، ومرجع أخير لجزاء الأعمال. أنت لست في دنيا غابرة، بل في دنيا تليها آخرة، وإلى الله تصير الأمور.
3.الرسائل العملية:
· التحرر من عبودية المال والمكانة: تذكر أن كل ما بيدك هو ملك لله، استخلفك عليه، فلا تفتن به، ولا تحزن على فقده.
· التسليم عند الشدائد: عندما تداهمك المصائب، وتضيق بك السبل، تذكر أن الأمور كلها ترجع إلى الله، فسلم له أمرك، وارضَ بقضائه.
· العدالة المؤجلة: إذا رأيت ظالماً يصول ويجول، فتذكر أن الأمور إلى الله ترجع، وأن يوماً للفصل قادم لا محالة.

المحور الثاني: "وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ".. بوصلة المصير وراحة القلب

هذا هو الجزء الثاني من الآية، وهو يرسخ أعظم قواعد التوحيد وأريحها للقلب.

1.دلالة "تُرْجَعُ الْأُمُورُ":
"الأمور" جمع، يشمل كل شيء: أمورك الشخصية، أمور أهلك، أمور أمتك، أمور العالم أجمع. كلها إلى الله ترجع. ليس هناك جهة أخرى تذهب إليها الأمور، ولا قوة أخرى تقرر المصائر. هذا هو "التوحيد في المرجعية". إنه يعني أنك لست مضطراً لإرضاء كل البشر، ولا للقلق من تدبيرهم، لأن مصير الأمور ليس بأيديهم، بل بيد الله.
2.التأثير النفسي والتربوي:

· راحة القلب من عناء التدبير: كثير من القلق سببه أن الإنسان يحمل هم تدبير الأمور على عاتقه. هذه الآية تريحك: الأمور ليست بيدك، بل بيد الله، وهو يرجعها إليه. أنت عليك السعي، وعليه التدبير. هذا هو التوازن بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله.
· الصبر على البلاء: عندما تعلم أن الأمور ترجع إلى الله، فإنك تصبر على البلاء، وتوقن أن الله سيجعل العاقبة للمتقين. إنها وقود الصبر في الطاعات، وعلى المصائب، وعن المعاصي.
· التسليم الحقيقي: هذه الآية تربي فيك "التسليم" لله. التسليم لا يعني السلبية، بل يعني أن تعمل بكل طاقتك، ثم تفوض النتيجة لله، وترضى بما قدره، لأنك تعلم أن الأمور راجعة إليه، وأنه لا يقدر إ لا الخير.

تحليل الآية السادسة: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}

المحور الثالث: "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ".. دليل التصريف المستمر والقدرة الباهرة

بعد تقرير الملك ورجوع الأمور، تأتي هذه الآية بدليل حسي يومي على قدرة الله المطلقة وتصريفه للكون.

.1دلالة إيلاج الليل والنهار:
"يولج" من الولوج، وهو الدخول. إنه يدخل الليل في النهار، فيأخذ من الليل ويزيد في النهار، و العكس بالعكس. هذه الحركة المستمرة، التي نراها كل يوم حتى أصبحت مألوفة، هي في الحقيقة معجزة كونية دالة على قدرة الله وتصريفه. إنها تثبت أن الله ليس مجرد خالق للكون ثم تركه، بل هو مصرف له في كل لحظة. هو الذي يقلب الليل والنهار، وهو الذي يدبر الأمر. هذه الآية هي رد عملي على أي إنسان يغفل عن قدرة الله في حياته اليومية.
.2التأثير النفسي لإدراك التصريف المستمر:
· تجديد اليقين: رؤية تعاقب الليل والنهار، ودخول أحدهما في الآخر، تجدد اليقين في القلب كل يوم. إنها تذكرك بأن الله قادر على أن يقلب الموازين، وأن يغير الأحوال، وأن يأتي بالفرج بعد الشدة، كما يأتي بالنهار بعد الليل.
· الأمل الدائم: كما أن الليل لا يدوم، والنهار لا يستمر، فكذلك الشدة لا تدوم، والرخاء لا يستمر. هذه الحركة الدائبة تعلمك ألا تيأس من روح الله، وألا تأمن مكر الله. إنها تخلق في قلبك "اتزانا" بين الخوف والرجاء.
· الطمأنينة في النظام الكوني: هذا التصريف الدقيق، المنتظم، الذي لا يختل، يمنحك طمأنينة بأن الكون يسير بنظام دقيق، وبأن الله مهيمن عليه. هذه الطمأنينة تنعكس على نفسك، فتشعر بأن حياتك أيضاً لها نظام وتدبير من الله.

المحور الرابع: "وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ".. قمة المراقبة وعمق الإخلاص

بعد مشهد إيلاج الليل والنهار، وهو مشهد كوني ظاهر، تنتقل الآية فجأة إلى "ذات الصدور"، إلى الباطن الخفي. إنه انتقال عظيم يربط بين الظاهر والباطن، بين الآفاق والأنفس.

.1دلالة "عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ":
"ذات الصدور" هي ما تخفيه الصدور من أسرار، ونوايا، وخواطر، وعقائد، ووساوس، وخير وشر. إنها أخفى ما يكون في الإنسان، ولا يطلع عليها أحد إلا الله. فإذا كان الله عليماً بذات الصدور، فهو من باب أولى عليم بكل ما هو دون ذلك من ظواهر الأعمال. هذا الاسم "عليم" هنا مقيد بـ "ذات الصدور" لبيان إحاطة علمه بأخفى الخفايا. إنه تأكيد على أن الله لا تخفى عليه خافية، ولو كانت في أعماق الصدور.
.2العلاقة بين "إيلاج الليل والنهار" و"عليم بذات الصدور":
هذا الاقتران معجز. فالله الذي يقدر على هذا التصريف العظيم في الكون الظاهر، هو نفسه العليم بذات الصدور، أي بالبواطن الخفية. إنه يربط بين قدرته في الآفاق وعلمه بالأنفس. وكأنه يقول لك: كما أن الليل والنهار تحت تصريفي، فكذلك سرائرك وأعمالك تحت علمي. فلا تظن أنك تستطيع أن تخفي عني شيئاً. هذا الاقتران يزرع في النفس هيبة ومراقبة دائمة.
.3التأثير النفسي والتربوي لإدراك العلم بذات الصدور:
· تطهير الباطن: هذا الجزء من الآية هو أعظم دواء للرياء والنفاق وخبث السريرة. عندما تستقر

في قلبك حقيقة أن الله عليم بذات الصدور، فإنك تنشغل بتطهير قلبك ونواياك، أكثر من انشغالك بتحسين ظاهرك أمام الناس. أنت تعلم أن المقياس الحقيقي عند الله هو ما في الصدر، لا ما يراه الناس.

· الإخلاص في العمل: هذا هو جوهر الإخلاص. أن تعمل العمل لله وحده، لأنك تعلم أن الله يعلم نيتك الحقيقية، حتى لو مدحك الناس أو ذموك. الإخلاص هو أن يكون ظاهرك وباطنك سواء، أو أن يكون باطنك أفضل من ظاهرك.

· الحياء من الخواطر: المؤمن يستحي من الله أن يطلع على قلبه وفيه خواطر سوء، أو حقد، أو حسد، أو كبر. فيجاهد نفسه على تنقية قلبه، لأن الله عليم بذات الصدور.

· السكينة والثقة: عندما تكون مخلصاً، واثقاً من نيتك، فإن علم الله بذات صدرك يصبح مصدر سكينة لك. أنت لا تخاف من سوء ظن الناس، ولا تسعى لتبرير موقفك، لأن الله يعلم حقيقتك، وهو حسبك.

المحور الخامس: العلاقة الوثقى بين الآيتين.. منظومة التسليم والإخلاص

دعني الآن أربط لك الآيتين معاً في منظومة واحدة متكاملة.

.1من "الملك والمرجع" إلى "التسليم":

الآية الخامسة تؤسس لقاعدة "التسليم". فإذا كنت تؤمن بأن الملك لله، وأن الأمور ترجع إليه، ف النتيجة الطبيعية هي أن تسلم أمرك لله، ولا تنازع في قضائه وقدره، ولا تتعلق بغيره. هذا التسليم هو أعلى مراتب العبودية.

.2من "تصريف الليل والنهار" إلى "اليقين الدائم":

الآية السادسة في شقها الأول تعطيك دليلا ً ماديا يومياً على قدرة الله وتصريفه، مما يجعل يقينك متجدداً كل يوم. هذا اليقين يثبتك في الشدائد، ويمنحك الأمل في الرخاء.

.3من "العلم بذات الصدور" إلى "الإخلاص":

الآية السادسة في شقها الثاني تؤسس لقاعدة "الإخلاص". فإذا كنت تؤمن بأن الله عليم بذات الصدور، فالنتيجة الطبيعية هي أن تخلص له العمل، وأن تطهر قلبك من كل شائبة.

.4الربط النهائي: التسليم + الإخلاص = كمال العبودية:

هاتان الآيتان معاً تقدمان وصفة كمال العبودية: "تسليم" كامل لله في كل الأمور، و"إخلاص" كامل له في كل الأعمال والنوايا. من وصل إلى هذا المقام، فقد ذاق طعم الإيمان، ووصل إلى الأمان النفسي والروحي الكامل.

سؤال للتأمل:

كيف يمكننا بناء ثقافة مؤسسية تقوم على هذين المبدأين: "التسليم" (بمعنى تفويض النتائج لله بعد الإ تقان) و"الإخلاص" (بمعنى العمل بضمير وإتقان لأن الله عليم بذات الصدور)؟ وكيف سيؤثر ذلك على ا لإنتاجية والعلاقات داخل المؤسسة؟

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآيتين

الأمر الأول: كيف نفهم الآيتين فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية"، يجب أن تربط بين الحقائق المذكورة (الملك، المرجع، التصريف، العلم بالسرائر) وحالتك النفسية والعملية.

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "تحقيق التوازن بين التسليم لله في تدبير الأمور، والإخلا ص له في أعمال القلوب والجوارح".

· أبعاد الآيتين كقاعدة لضبط المسار:

1. ضبط علاقة التملك والتعلق: أن ترد الملك كله لله، وتسلم له الأمر كله، فتتحرر من التعلق ب الدنيا والناس.

2. ضبط بوصلة العمل اليومي: أن ترى في تعاقب الليل والنهار فرصة لتجديد العمل واليقين، فلا تيأس ولا تغتر.

3. ضبط بوصلة النية والسريرة: أن تجعل اهتمامك الأكبر بتطهير قلبك وإخلاص نيتك، لأن الله

عليم بذات الصدور.

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هاتين الآيتين؟ وما الذي تدعونا إليه ا لآيتان في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون عباداً مسلِمين مخلصين.

· في حياتنا العملية، تدعونا الآيتان إلى:
· تفويض الأمور لله: عند الشروع في أي عمل، وبعد بذل الأسباب، فوّض الأمر لله، وقل: "وإلى الله ترجع الأمور".
· تطهير النوايا في العمل: اسأل نفسك قبل كل عمل: "لماذا أعمل هذا؟" وتأكد أن النية خالصة لله، لأن الله عليم بذات صدرك.
· عدم اليأس من تغير الأحوال: كما يقلب الله الليل والنهار، فهو قادر على أن يقلب حالك من الضيق إلى الفرج، ومن الفقر إلى الغنى.
· التعامل مع الخلافات بسلام: عندما تختلف مع أحد، تذكر أن الأمور إلى الله ترجع، وهو الذي سيفصل بينكم، فلا تحمل في صدرك حقداً أو ضغينة.

الأمر الثالث: كيف تغير الآيتان نظرتنا للحياة؟

تغيرانها من ثلاثة أوجه:

.1من منظور القلق إلى منظور التسليم: لم تعد تحمل هم النتائج، لأن الأمور بيد الله، فتسلم له وتطمئن.
.2من منظور الجمود إلى منظور التغيير: لم تعد ترى الحياة ثابتة على حال، بل متقلبة بتصريف الله، مما يجعلك مرناً متكيفاً مع المتغيرات.
.3من منظور السطحية إلى منظور العمق: لم يعد اهتمامك منصباً على مظهرك أمام الناس، بل على جوهرك ونيتك التي يعلمها الله.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآيتين وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول (له ملك السماوات والأرض): لا تحزن على فوات شيء، ولا تفرح بشيء فرح بطر، ف الملك كله لله. التطبيق: عند الخسارة، قل: "اللهم لك الحمد، هذا ملكك، أخذتَ ما شئتَ، وأعطيتَ ما شئتَ".
· الدرس الثاني (وإلى الله ترجع الأمور): لا تقلق على المستقبل، فالمرجع إلى الله. التطبيق: عند التخطيط ليومك، قل: "اللهم دبر لي أمري، فإني لا أحسن التدبير، وإليك ترجع الأمور".
· الدرس الثالث (يولج الليل في النهار): لا تيأس من روح الله، فالفرج قادم. التطبيق: تذكر أن بعد الليل نهاراً، وبعد العسر يسراً، واستبشر خيراً عند كل شدة.
· الدرس الرابع (وهو عليم بذات الصدور): أخلص نيتك، وطهر قلبك. التطبيق: كل ليلة، حاسب نفسك على نواياها خلال اليوم، واستغفر الله من خواطر السوء.

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآيتين في واقعنا العملي.

.1معيار التسليم) من الآية(5 : عندما يفوتني أمر، أو تحصل لي مصيبة، هل أتضايق وأتذمر، أم أسلم لله وأقول: "قدر الله وما شاء فعل"؟
.2معيار الأمل) من يولج(: عندما أشعر باليأس من مشكلة، هل أستسلم لليأس، أم أتذكر أن الله قادر على تغيير الحال كما يغير الليل والنهار؟
.3معيار الإخلاص) من عليم بذات الصدور(: عندما أقوم بعمل، هل أفكر في مدح الناس، أم أن همي هو رضا الله وحده؟ وهل أراقب نواياي وخواطر قلبي؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآيتين في حياتنا اليومية.

· وقفة الصباح مع "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ": عندما تستيقظ وترى ضوء النهار، قل: "الحمد لله الذي أذهب الليل وجاء بالنهار، اللهم اجعل هذا النهار خيراً وبركة".
· وقفة المساء مع "وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ": عند نهاية اليوم، سلم لله كل ما حدث، وقل: "اللهم إليك ترجع الأمور، فتقبل مني يومي، واغفر لي تقصيري".

· وقفة العمل مع "وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ": قبل أي عمل، انظر إلى قلبك واسأله: "لمن هذا العمل؟" فإن وجدت شائبة رياء، فطهرها واستغفر الله.
· وقفة الأزمة مع "لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ": عندما تعصف بك أزمة مالية أو صحية، تذكر أن المالك هو الله، وهو على كل شيء قدير، فاطمئن.

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة استقراء السنن الكونية: فهم أن تغير الأحوال (كالليل والنهار) سنة كونية، تنطبق على الحياة البشرية.
· مهارة تحليل النوايا: القدرة على تحليل النوايا والخواطر لتمييز الخالص منها والمشوب.
· حياتياً:
· مهارة التسليم والتفويض: التحرر من القلق بتفويض الأمور لله.
· مهارة تجديد الأمل: القدرة على استعادة الأمل في أحلك الظروف.
· عملياً:
· مهارة الإخلاص: العمل لله وحده دون انتظار مدح أو جزاء من البشر.
· مهارة إدارة المشاعر: السيطرة على مشاعر الغضب والحزن واليأس بالرجوع إلى الله.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآيتين

أولا ً: المفاهيم العملية من الآيتين وكيفية تطبيقها.

· مفهوم "الإدارة بالتسليم": القائد الناجح هو من يخطط ويتابع ويجتهد، ثم يسلم النتائج لله، فلا يصاب بالاحتراق النفسي. التطبيق: بعد وضع الخطط وبدء التنفيذ، عقد جلسة "تفويض" يذكر فيها الفريق أن النتائج بيد الله، مما يخفف الضغط ويرفع الروح المعنوية.
· مفهوم "جودة الباطن": الجودة لا تقتصر على المنتج النهائي، بل تشمل نية العامل وصفاء قلبه. التطبيق: بناء ثقافة مؤسسية تشجع على الإخلاص، بجعل معيار التقييم هو "إتقان العمل" لا "كسب المدح".
· مفهوم "التكيف مع المتغيرات": تعاقب الليل والنهار يعلمنا أن التغيير سنة الحياة، فعلينا التكيف لا الجمود. التطبيق: تدريب الفرق على إدارة التغيير والتعامل مع الأزمات بمرونة.

ثانياً: المفاهيم النفسية.

· مفهوم "السكينة بالتسليم": القلق النفسي سببه التعلق بالنتائج. عندما تُسلم النتائج لله (وإلى الله ترجع الأمور)، تتحرر من هذا التعلق، فتحل السكينة في النفس. هذه السكينة هي أساس الصحة النفسية والإنتاجية.
· مفهوم "الأمل الدوري": رؤية الليل يتحول إلى نهار يومياً تزرع في النفس "أملا ً دورياً متجدداً". مهما اشتدت الظلمة، فالنهار قادم. هذا المفهوم يعالج الاكتئاب واليأس، ويجعل الإنسان ينتظر الفرج بثقة.
· مفهوم "تقدير الذات المستمد من علم الله": عندما تعلم أن الله "عليم بذات الصدور"، يصبح رضاه هو مصدر قيمتك الذاتية، لا رضا الناس. هذا يحررك من التذبذب والعصبية، ويمنحك ثباتاً نفسياً عظيماً.

ثالثاً: المفاهيم الفكرية.

· مفهوم "وحدانيه الله في التدبير": فكرة أن "إلى الله ترجع الأمور" تعني أن الله هو الذي بيده تدبير الكون. هذا يبني عقلا ً موحداً، ينظر لكل حدث على أنه جزء من تدبير إلهي حكيم.
· مفهوم "ديالكتيك الظاهر والباطن": الربط بين "يولج" (الظاهر) و"ذات الصدور" (الباطن) يبني فكراً يربط بين الظاهر والباطن، فلا يفصل بينهما. الظاهر يدل على الباطن، والباطن هو أصل الظاهر.
· مفهوم "نسبية التملك البشري": "له ملك السماوات والأرض" فكرة تحطم وهم "الملكية المطلقة" للإ نسان. لا أحد يملك شيئاً حقيقة، وهذا يبني عقلا ً لا يخضع للطغاة وأصحاب المال والنفوذ، لأنه يعلم أن مُلكهم زائل.

رابعاً: المفاهيم التربوية.

· مفهوم "التربية على التسليم لله": تدريب النشء منذ الصغر على تفويض أمورهم لله بعد بذل الجهد، وعدم التذمر من النتائج. هذا يبني جيلا ً متزناً لا ينهار عند أول فشل.
· مفهوم "غرس الإخلاص بتذكيرهم بعلم الله": تعليم الأطفال أن الله يراهم ويعلم ما في قلوبهم، حتى لو لم يرهم أحد. هذا يبني الضمير الحي والإخلاص في العمل، لا طلباً للمدح.
· مفهوم "التربية بالآيات الكونية": استخدام ظاهرة الليل والنهار لتربية النشء على التأمل في قدرة الله، وتجديد الإيمان، وربطهم بالكون من حولهم.

خامساً: أبعاد الآيتين وآفاقها.

· البعد الإيماني العقدي: ترسيخ التوحيد في الربوبية (الملك والتصريف) والألوهية (الإخلاص لله).
· البعد النفسي: بناء الشخصية المسلمة المطمئنة، المسلمة لله، المخلصة في عملها.
· البعد الأخلاقي: بناء مجتمع يقوم على الإخلاص لا الرياء، والتسامح لا الحقد، لأن الأمور ترجع لله.

سادساً: مفاهيم البناء والتنمية من الآيتين.

· مفهوم "التنمية بالتسليم": المجتمعات التي تعاني من القلق المزمن لا تتطور. هذه الآية تبني أفراداً مسلمين أمرهم لله، فيقل قلقهم، وتزيد إنتاجيتهم.
· مفهوم "بناء المؤسسات على الإخلاص": المؤسسات التي يشعر أفرادها أن الله عليم بذات صدورهم، ينتجون أعمالا ً متقنة، لأنهم يعملون لرب لا يخفى عليه شيء.

سابعاً: القيم التي تغرسها الآيتان في النفوس.

· قيمة التسليم: الرضا بقضاء الله وقدره بعد الأخذ بالأسباب.
· قيمة الإخلاص: تصفية النوايا وجعلها خالصة لله.
· قيمة الأمل: الثقة بأن الله سيبدل الحال إلى الأفضل.
· قيمة المراقبة الذاتية: دوام الشعور بنظر الله إلى السرائر.
· قيمة التواضع: معرفة أن الملك كله لله، فلا كبرياء ولا طغيان.

ثامناً: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة لبناء الإنسان وصناعة التطور والنهضة في الحياة؟

يتم ذلك بتحويل الآيتين إلى "منظومة تدريب عملي" للفرد والمجتمع:

.1بناء الفرد المطمئن المخلص:
· تدريب يومي على التسليم: في نهاية كل يوم، يكتب الفرد في مفكرته: "ما الذي سلمته لله اليوم ؟ وما الذي قاتلته بنفسي؟" لتطوير عادة التسليم.
· تمرين فحص النية: قبل كل عمل، يسأل نفسه: "لمن هذا العمل؟" فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره توقف وصحح نيته. هذا يبني "الإخلاص".
.2صناعة التطور والنهضة:
· في العمل المؤسسي: بناء "ميثاق شرف" للمؤسسة يقوم على "الإخلاص" و"تفويض النتائج لله". هذا يخلق بيئة عمل خالية من التكالب والصراعات، مليئة بالتعاون والإتقان.
· في التربية: إدخال منهج "التأمل في الآيات الكونية" (الليل والنهار) في المدارس، لربط الطلاب بالله، وتجديد يقينهم، وزرع الأمل في نفوسهم.
· في الإعلام: إنتاج برامج ومحتوى إعلامي يركز على أن الأمور بيد الله، وأنه قادر على تغيير الحال، لمواجهة موجات اليأس والإحباط في المجتمع.

ختاماً، هاتان الآيتان ليستا مجرد تلاوة عابرة، بل هما ميثاق قلب، ودستور حياة. إنهما تبنيان الإنسان المسلم القوي بقوة تسليمه لله، المتزن باتزانه بين الخوف والرجاء، المخلص في عمله لأن الله عليم بذات صدره. إنهما تصنعان مجتمعاً تسوده الطمأنينة، ويسوده الإخلاص، وتقوده الإرادة التي لا تلين، لأ نه قد فوض أمره لمالك الملك، الذي إليه ترجع الأمور.

القسم الثاني

تتضمن الايات في هذا القسم معالجه لمساله ازمات مفهوم كمال الايمان الحقيقي المطلوب من العباد ظاهرا وباطنا وازمه المال وبيان الملكيه الحقيقيه للمال بانها لله وان الانسان مستخلف عليه والاشاره الى العديد من وسائل معالجه المشاعر للتخلص من اثار الفكر الجاهلي وكذلك لتنقيه النفس والقلب و

الفكر من الشح والتعلق بالمال مع طرح الحوافز التي تساعد على تخليص القلوب والنفوس من الاثار السلبيه لازمه حب المال المفرط وتاتي الايات بايقاعات ومؤثرات وايحاءات تستهدف مداخل النفس على ضوء ما ورد في القسم الاول

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (8)هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (9) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ(11) ﴾

المبحث الأول

تفسير الآية السابعة من سورة الحديد

قال الله تعالى: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}

المقدمة: الآية السابعة من سورة الحديد.. دعوة الإيمان الحق وبرهان الاستخلاف والإنفاق

بعد أن أرست الآيات الست الأولى قواعد عظيمة متصاعدة؛ بدأت الأولى بقاعدة الانسجام والتسبيح الكوني، والثانية بقاعدة الأمان المستند إلى ملك الله وقدرته المطلقة، والثالثة بقاعدة اليقين المستمد من إحاطة الله بالزمان والمكان والسر والعلن، والرابعة بقاعدة الخلق والتدبير والمعية والرقابة، و الخامسة والسادسة بقاعدة التسليم والإخلاص وعلم الله بذات الصدور، تأتي الآية السابعة لتكون تتويجاً عملياً لهذا البنيان الإيماني كله. إنها ليست مجرد آية، بل هي نداء مباشر من الله للمؤمنين، ودعوة صريحة للانتقال من الإيمان النظري إلى الإيمان العملي، ومن العقيدة المستقرة في القلب إلى السلوك الظاهر في الحياة.

تخيّل معي إنساناً يقول: "آمنت بالله"، ثم لا يظهر أثر هذا الإيمان في جوارحه، في ماله، في قراراته. إنساناً يزعم أنه يحب الله، لكنه لا يتبع رسوله، ولا ينفق مما رزقه الله. هنا تأتي هذه الآية لتكشف حقيقة الإيمان المطلوب، وتضع الميزان الدقيق الذي يُعرف به الصادق من المدعي.

إنها تعالج داءين خطيرين: داء "الاكتفاء بالإيمان النظري"، وداء "البخل والتعلق بالمال". إنها تعلن بكل وضوح أن الإيمان الحقيقي بالله ورسوله يستوجب أموراً لا تقبل التجزئة. فإذا آمنا بالله الذي له ملك السماوات والأرض، وإذا آمنا بأنه الأول والآخر والظاهر والباطن، وإذا آمنا بأنه الخالق المدبر الذي يعلم السر وأخفى، فإن كل هذه الحقائق توجب علينا حباً لله، وخضوعاً لمنهجه، واتباعاً لرسوله، وإنفاقاً مما استخلفنا فيه.

إنها الآية التي نزلت لتفرق بين المؤمن الصادق والمؤمن المدعي. قيل إنها نزلت في سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه حين جهز جيش العسرة، فكان نموذجاً حياً للإيمان الصادق الذي يترجم إلى إنفاق باذل. يخبرنا الحق سبحانه بهذا النداء المباشر: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}.

دعنا نضع المفاتيح الرئيسية لفهم هذه الآية قبل الخوض في غمارها:

1. الإيمان الحق هو إيمان متجدد بالله ورسوله: إنها دعوة للمؤمنين أن يثبتوا على إيمانهم ويرتقوا به إلى كماله، لا أن يبتدئوه من جديد.
2. المال هو مال الله، والإنسان مستخلف فيه: هذه حقيقة تملأ القلب تحرراً من عبودية المال، وتمنحه شعوراً بالمسؤولية.
3. الإنفاق هو البرهان العملي على الإيمان: ليس الإيمان كلمات تقال، بل هو تصديق بالقلب يتبعه عمل بالجوارح، وفي مقدمتها إنفاق المال.
4. الأجر الكبير هو ثمرة الإيمان الصادق والإنفاق الباذل: وهو أجر لا يقدره إلا الله، لأنه يتضمن رضاه والجنة.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة في أعماق الإيمان والاستخلاف والإنفاق

والآن، لنغص معاً في كلمات هذه الآية العظيمة، ونستخرج كنوزها التي تبني الإنسان المؤمن الصادق.

المحور الأول: في رحاب "آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ".. سر الافتتاح بدعوة المؤمنين إلى الإيمان

انظر كيف افتتحت الآية بهذا النداء المباشر: "آمِنُوا". إنه افتتاح يحمل من الدلالات والأسرار ما يزلزل القلوب.

.1دلالة توجيه الخطاب للمؤمنين:
الخطاب هنا موجه للمؤمنين أصلاً، بدليل سياق السورة .فهم قد آمنوا، ولكن الله يدعوهم إلى إيمان أعمق وأكمل وأثبت .إنها دعوة للثبات والاستمرار والتجديد، ودعوة للارتقاء من إيمان التقليد إلى إيمان اليقين، ومن إيمان الكلمة إلى إيمان السلوك .هذا يعلمنا أن الإيمان ليس محطة نصل إليها ثم نقف، بل هو رحلة مستمرة من الترقي والتجديد .من الناحية التربوية، هذا يعني أن المربي يجب أن يذكر المؤمنين دوماً بحقيقة الإيمان، ويدعوهم إلى تعميقه، لا أن يفترض أنهم وصلوا إلى الكمال.
.2ما هو الإيمان المطلوب؟ ربط الآية بما قبلها:
لفهم حقيقة الإيمان المطلوب في هذه الآية، لا بد أن نربطها بالآيات السابقة .فالإيمان بالله هنا ليس إيماناً عاماً، بل هو إيمان مبني على الحقائق التي قررتها الآيات الست الأولى:
· الإيمان بأن كل ما في السماوات والأرض يسبح لله: وهذا يوجب عليك أن تكون جزءاً من هذا الكون المسبح، منسجماً معه في طاعة الله.
· الإيمان بأن له ملك السماوات والأرض، وأنه يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير: وهذا يوجب عليك أن لا تخاف أحداً غيره، وأن توقن بأنه هو المالك الحقيقي.
· الإيمان بأنه الأول والآخر والظاهر والباطن: وهذا يوجب عليك أن تجعل الله غايتك، وأن تخلص له سرك وعلنك.
· الإيمان بأنه هو الخالق المدبر، وأنه معنا أينما كنا، وأنه بصير بأعمالنا: وهذا يوجب عليك المراقبة الدائمة، والعمل بإتقان وإخلاص.
· الإيمان بأن إليه ترجع الأمور، وأنه يولج الليل في النهار، وهو عليم بذات الصدور: وهذا يوجب عليك التسليم المطلق لله، وتطهير قلبك من كل شائبة.
إذن، الإيمان المطلوب هنا ليس مجرد كلمة تقال باللسان، بل هو تصديق بالقلب بكل هذه الحقائق، يتبعه خضوع بالجوارح، وحب لله يجعلك تقدم مرضاته على كل شيء .قال تعالى:} وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ] {البقرة: .[165 وهذا الحب هو الذي يوجب اتباع الرسول ﷺ .قال تعالى:} قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ] {آل عمران: .[31 فالإيمان بالله يوجب حب الله، وحب الله يوجب اتباع رسوله، واتباع رسوله هو الدليل العملي على صدق هذا الحب.
.3الإيمان الحق يوصل إلى مقام الإحسان:
الإيمان الحقيقي بالله لا يصل إليه المؤمن ويبلغ درجة الإحسان إلا عندما يقيم عقيدته على حقيقة مستقرة، ويبني كيانه على أساس التوحيد وقواعده .الكفار كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق: }وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ] {الزخرف: .[87 لكن هذا الاعتراف لم ينفعهم لأنه لم يترجم إلى توجه لله بالعبودية محبة وتعظيماً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب .الإيمان الحقيقي يقوم على حقيقة "تقدير الله حق قدره"، بأن تخضع لمنهج الله في جميع شؤون حياتك، مثلما خضعت السماوات والأرض، وأن تكون أعمالك خالصة لله ظاهراً وباطناً، وأن تقدر الله حق قدره فتطيعه .فمن لوازم تقدير الله حق قدره، ولوازم الإيمان الحقيقي، أن يتخلص الإنسان من الشرك بكل أشكاله، فيخلص في عبادته لله، ويعظمه ويخضع له.
.4الرسائل العملية:
· تجديد الإيمان يومياً: اسأل نفسك كل يوم: "هل أنا اليوم أعمق إيماناً من الأمس؟" وجدد إيمانك بتذكر هذه الحقائق العظيمة.
· ربط الحب بالاتباع: إذا ادعيت أنك تحب الله، فانظر إلى مدى اتباعك لرسوله ﷺ في أخلاقك ومعاملاتك وقراراتك.

المحور الثاني: "وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ".. المال مال الله والإنسان مستخلف

هذا هو الجزء الثاني من الآية، وهو يربط الإيمان بالإنفاق، ويكشف عن حقيقة الملكية والاستخلاف.

.1دلالة "مِمّا جَعَلَكم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ":
هذه العبارة هي مفتاح الفهم الصحيح لعلاقة الإنسان بالمال .فالله لم يقل: "وأنفقوا مما تملكون"، بل قال: "مِمّا جَعَلَكم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ" ."مستخلفين" تعني أنكم خلفاء عن المالك الحقيقي، وهو الله . المال هو مال الله، وقد استخلفكم عليه، وجعلكم وكلاء عنه في التصرف فيه .هذا الفهم يغير كل شيء:
· من الناحية النفسية: يحررك من عبودية المال والتعلق به .أنت لا تملكه، بل هو أمانة عندك .فلا تخف على فقده، ولا تفرح بوجوده فرح البطر.
· من الناحية الفكرية: يعيد تعريف "الغنى" و"الفقر" .الغني الحقيقي هو من أدى حق الله في المال ، لا من كدسه .والفقير الحقيقي هو من بخل بما استخلفه الله عليه، ولو كان يملك الملايين.
· من الناحية العملية: يجعلك تسأل نفسك قبل كل تصرف مالي: "هل هذا التصرف يرضي المالك الحقيقي؟ هل هذا هو ما أراده الله مني في هذا المال؟"
.2لماذا ربط الله الإيمان بالإنفاق؟
الربط بين "آمِنُوا" و"أَنفِقُوا" ليس عشوائياً .إنه يدل على أن الإنفاق هو البرهان العملي على الإيمان ، وهو الاختبار الحقيقي لصدقه .فالكثيرون يدعون الإيمان، ولكن عندما يحين وقت بذل المال، ينكشف المعدن الحقيقي .المال قطعة من كبد الإنسان، وإخراجه دليل على أن الإيمان بالله واليوم الآخر قد تغلغل في القلب، فصار العبد يرجو ما عند الله أكثر مما يرجو ما في يده .قال تعالى:} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] {الحجرات: .[15 فقد جعل الله الجهاد بالمال والنفس علامة تظهر صدق إيمانهم، والإنفاق دليل على إيمانهم بملكية الله للمال.
.3حقيقة الاستخلاف ومهمة الخلافة:
الإنسان لم يُعطَ المال ليتمتع به فقط، بل ليقوم بواجب الخلافة والتكليف .الله سخر للإنسان ما في السماوات والأرض، وزوده بالقدرات والإمكانيات، وعلم آدم الأسماء كلها .وبالتالي، فلازم لكمال الإيمان الحقيقي أن يكون المؤمن عالماً بالمادة وعالماً بخالق المادة، ليكون مؤهلاً لحمل الأمانة .و العدل في المال الذي منحه الله للإنسان، والجاه والسلطان، ألا يكون سبباً في إعاقة الوصول إلى طريق الله، أو سبباً لعصيانه .لقد حمل الإنسان الأمانة،} إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] {الأحزاب: .[72 ومقتضى ذلك أن ينفق المال وفق مشيئة الله الذي أعطاه المال:} وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .{عندما تستقر هذه الحقيقة في القلوب، تتخلص من حب المال والشهوات والملذات المذمومة.
.4الإنفاق مفهوم شامل لبناء الحياة:
الإنفاق في الآية جاء مطلقاً "وَأَنفِقُوا"، ليشمل كل وجوه الخير: الإنفاق على النفس والأهل، والإنفاق في سبيل الله والجهاد، والإنفاق على الفقراء والمساكين، والإنفاق في المشاريع التي تنفع الأمة . فالمال هو الركيزة الأساسية التي لا تقوم حياة بدونها .وقد وصف الله إمساك المال بأنه سبب للتهلكة:} وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] {البقرة: .[195 فالإنفاق هو استثمار للحياة، وهو ضمان لاستمرارها.
.5الرسائل العملية والتنموية:
· تحرير المال من الخزائن: الاعتراف بأن المال مال الله يمنع كنزه واحتكاره، ويدفع إلى تداوله بالشغل والإنفاق والمشاريع التي تعود بالربح، وتوفر وظائف للأيادي العاملة، مما يقضي على البطالة .قال تعالى:} وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] {التوبة:.[34
· الإنفاق في الأزمات: في أوقات الكوارث والمجاعات، يكون الإنفاق فريضة وواجباً لإنقاذ الناس من الهلاك .قال تعالى:} فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ] {(14) البلد:11 -.[14
· الاعتراف بحقوق الناس في المال: الله أوجب في هذا المال حقوقاً للآخرين:} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ] {المعارج:24 - .[25وهذا الاعتراف يخلص قلب المؤمن من الاستعلاء، فهو لا يعطي من ماله، بل يؤدي حقاً لله، ويوصل أمانة أمره الله بإيصالها لمستحقيها .قال تعالى: }وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ] {الإسراء:.[26

المحور الثالث: "فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ".. وعد الأجر الجزيل وتخصيص الصادقين

بعد الأمر بالإيمان والإنفاق، يأتي وعد الله الكريم للصادقين الذين استجابوا لهذا النداء.

.1دلالة التخصيص "مِنكُمْ":
قال تعالى: "فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ" .كلمة "منكم" هنا للتبعيض، وتشير إلى أن ليس كل من يدعي الإيمان يصل إلى هذه المرتبة .فالإيمان الحقيقي لم يصل إلى قلوب البعض كما ينبغي .وهذا المعنى تؤكده سورة الحجرات في الرد على الأعراب الذين قالوا آمنا، فقيل لهم:} قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا

أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] {الحجرات: .[14 فالإيمان المطلوب هو إيمان الصادقين الذين لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم .وهذا التخصيص يجعل المؤمن الصادق في حالة مراجعة دائمة لنفسه: هل أنا من الذين آمنوا حقا؟ هل إنفاقي يصل إلى حد الجهاد بالمال؟

.2دلالة "لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ":

وصف الأجر بأنه "كبير" يحمل معاني متعددة:

· من حيث الكمية: فهو أجر عظيم يضاعفه الله أضعافاً كثيرة .قال تعالى:} مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] {البقرة:.[261

· من حيث الكيفية: فهو أجر كريم، أي نفيس في نوعه وجودته .فليس كل أجر سواء، فهناك أجر عادي، وهناك أجر كريم، وهو ما يكون خالصاً من الشوائب، مقروناً برضا الله.

· من حيث المصدر: فهو أجر من الله، الغني الكريم، الذي لا تنفد خزائنه .وهو أجر يتضمن رضا الله، ودار كرامته، وما فيها من نعيم مقيم أعده الله للمؤمنين والمجاهدين .قال تعالى:} إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ] {التوبة:.[111

.3التأثير النفسي لهذا الوعد:

هذا الوعد الكريم يحدث في النفس تحولا ً عظيما .فهو يحفز المسلم على المسارعة والتسابق للإ نفاق، لما يحمله المعنى من الثواب الآجل .إنه يجعل المؤمن ينظر إلى المال الذي ينفقه على أنه بضاعة اشترى بها رضا الله والجنة، فينفق وهو يشعر بالربح، لا بالخسارة.

سؤال للتأمل:

إذا كان المال هو مال الله، والإنسان مستخلف فيه، فكيف يمكن لمؤسساتنا وأوقافنا ومشاريعنا الخيرية أن تعكس هذا المفهوم في إدارتها للمال، بحيث تتحول من مجرد جمع للمال وتوزيعه، إلى مشاريع تنموية مستدامة تقوم على فقه الاستخلاف والعمارة في الأرض؟

ثالثا: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآية

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهما عميقا ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية"، يجب أن تربط بين الإيمان بالله ورسوله، وحقيقة ا لاستخلاف في المال، والإنفاق كبرهان عملي.

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "الإيمان الحقيقي يوجب الخضوع لله بالعبادة البدنية و المالية، ويترجم إلى إنفاق المال باعتباره أمانة الله وماله".

· أبعاد الآية كقاعدة لضبط المسار:

1. ضبط بوصلة الإيمان: أن يكون الإيمان متجددا، مبنيا على الحقائق العقدية التي أعلنتها السورة، وموصلا ً إلى مقام الإحسان.

2. ضبط بوصلة التملك: أن ترد المال كله إلى مالكه الحقيقي، فترى نفسك مستخلفا لا مالكا، وأمينا لا مسيطرا.

3. ضبط بوصلة الإنفاق: أن تنفق وفق مراد الله، لا وفق هواك، وأن يكون إنفاقك شاملا ً كل وجوه الخير التي تبنى بها الحياة.

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون مؤمنين صادقين، نترجم إيماننا إلى عمل، وندرك أن المال أداة استخلاف لا غاية حياة.

· في حياتنا العملية، تدعونا الآية إلى:

· تصحيح نيتنا في الكسب والإنفاق: أن نكسب المال من حلال، وننفقه في حلال، وننوي بذلك كله طاعة الله.

· المبادرة إلى الإنفاق: ألا نتردد في بذل المال في وجوه الخير، خاصة في أوقات الأزمات و الحاجة.

· تحويل المال إلى طاقة بناء: أن نستثمر أموالنا في مشاريع تنموية توفر فرص العمل، وتخدم المجتمع، بدلا ً من كنزها.

· التخلص من البخل والشح: أن نجاهد أنفسنا على الكرم، مستحضرين وعد الله بالأجر الكبير.

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغيرها من أربعة أوجه:

.1من منظور التملك إلى منظور الاستخلاف: لم يعد المال غاية نتنافس عليها، بل أداة نؤدي بها مهمة الخلافة.
.2من منظور البخل إلى منظور الكرم: لم يعد الإنفاق خسارة، بل هو تجارة رابحة مع الله.
.3من منظور الفردية إلى منظور الجماعية: لم يعد المال حقاً خاصاً، بل فيه حقوق للآخرين، وإنفاقه يبني المجتمع.
.4من منظور الدنيا إلى منظور الآخرة: لم يعد المال متاعاً دنيوياً زائلا ً، بل هو وسيلة لنيل الأجر الكبير في الآخرة.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآية وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول) آمنوا بالله ورسوله(: الإيمان الحق هو إيمان متجدد بالقلب والجوارح .التطبيق: خصص وقتاً يومياً لتجديد إيمانك بقراءة القرآن والتفكر في أسماء الله وصفاته.
· الدرس الثاني) جَعَلَكم مُسْتَخْلَفِينَ(: المال مال الله، وأنت مؤتمن عليه .التطبيق: قبل شراء أي شيء، اسأل نفسك: "هل هذا يُرضي الله الذي استخلفني على هذا المال؟"
· الدرس الثالث) وَأَنفِقُوا(: الإنفاق دليل على صدق الإيمان .التطبيق: اجعل لك ميزانية شهرية للإنفاق في وجوه الخير، ولا تنتظر حتى يأتيك سائل.
· الدرس الرابع) لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ(: وعد الله لا يتخلف، وهو أعظم من أي ربح دنيوي .التطبيق: استحضر وعد الله بالأجر الكبير كلما هممت بالإنفاق، ليهون عليك إخراج المال.

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآية في واقعنا العملي.

.1معيار الإيمان) آمنوا بالله ورسوله(: هل إيماني اليوم أعمق من أمس؟ هل أزداد حباً لله ولرسوله؟ وهل يظهر أثر هذا الحب في سلوكي؟
.2معيار الاستخلاف) مُسْتَخْلَفِينَ(: عندما أنظر إلى مالي، هل أراه ملكاً لي، أم أمانة عندي؟ وهل أنا مستعد لإنفاقه في أي وجه يأمرني الله به؟
.3معيار الإنفاق) وَأَنفِقُوا(: ما نسبة ما أنفقه من مالي في سبيل الله مقارنة بما أدخره لنفسي؟ وهل إنفاقي منتظم ومخطط له؟
.4معيار الصدق) فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ(: هل أنا من الذين آمنوا حقاً، وجعلوا إنفاقهم دليلا ً على إيمانهم، أم أني من المدعين؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا اليومية.

· وقفة الاستلام والتسليم: في كل صباح، تذكر أن المال الذي في يدك هو مال الله، وقل: "اللهم هذا مالك، استخلفتني عليه، فأعني على إنفاقه فيما يرضيك".
· وقفة القرار المالي: عند أي قرار شراء أو استثمار كبير، صلّ صلاة استخارة، واسأل الله أن يرشدك إلى ما يرضيه في هذا المال.
· وقفة الإنفاق: كلما أخرجت مالا ً في سبيل الله، استشعر أنك تقدم قرضاً حسناً لله، وأنه سيضاعفه لك أضعافاً كثيرة، وقل: "اللهم تقبل مني، واجعله أجراً كبيراً".

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة فقه الاستخلاف: فهم أن المال أمانة، وليس ملكاً مطلقاً.
· مهارة فقه الأولويات في الإنفاق: معرفة الوجوه التي يستحق فيها المال أن يُنفق.
· حياتياً:
· مهارة التخطيط المالي: وضع ميزانية للإنفاق تشمل الحقوق والواجبات وأوجه الخير.
· مهارة التحرر من عبودية المال: السيطرة على مشاعر الخوف من الفقر والتعلق بالمال.
· عملياً:
· مهارة الكرم والبذل: تحويل النية إلى سلوك عملي دائم.
· مهارة الاستثمار التنموي: توجيه المال إلى مشاريع إنتاجية تخدم المجتمع وتوفر فرص العمل.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

أولا ً: المفاهيم العملية من الآية وكيفية تطبيقها.

· مفهوم "الاستخلاف المالي": إعادة تعريف علاقة الإنسان بالمال، من كونه مالكاً إلى كونه مستخلفاً . التطبيق: وضع ميثاق شخصي أو عائلي لإدارة المال ينطلق من فكرة "نحن مستخلفون".
· مفهوم "الإنفاق الاستثماري": تحويل الإنفاق من مجرد عطاء استهلاكي إلى استثمار تنموي يدر خيراً مستمراً .التطبيق: توجيه جزء من الصدقات إلى مشاريع وقفية، أو دعم مشاريع صغيرة للأسر المحتاجة بدلا ً من الإعانات المباشرة.
· مفهوم "التكافل المبني على الإيمان": بناء شبكات تكافل اجتماعي لا تقوم على العاطفة وحدها، بل على الإيمان بأن المال مال الله، وأن فيه حقاً للآخرين.

ثانياً: المفاهيم النفسية.

· مفهوم "التحرر من عبودية المال": الشعور بأن المال ليس ملكك يحررك من الخوف عليه، ومن الشح به، ومن التعلق المذموم به .هذا المفهوم يعالج القلق المالي، ويجعل الإنسان ينفق براحة نفس، واثقاً بأن الرزاق هو الله.
· مفهوم "لذة العطاء": استشعار وعد الله بـ "أجر كبير" يحول الإنفاق من ألم فقد المال إلى متعة روحية ولذة نفسية .المؤمن يفرح بإنفاقه أكثر مما يفرح بكسبه، لأنه يرى التجارة الرابحة مع الله.
· مفهوم "تقدير الذات بالاستخلاف": عندما يدرك الإنسان أنه مستخلف من الله على المال، فإنه يشعر بقيمته ومسؤوليته .هذا يعزز تقديره لذاته بطريقة إيجابية، لأنه مرتبط بمهمة عظيمة من الله، لا بمدح الناس.

ثالثاً: المفاهيم الفكرية.

· مفهوم "مركزية الاستخلاف في النظام الاقتصادي الإسلامي": فكرة الاستخلاف هي أساس الفلسفة ا لاقتصادية الإسلامية، وهي تختلف عن الرأسمالية) التي تؤمن بالملكية المطلقة (والاشتراكية) التي تنفي الملكية الخاصة .(إنها فلسفة متوازنة تجعل المال بيد الإنسان، ولكن تحت سلطان الشرع.
· مفهوم "المال كأداة عمران لا كغاية": المال في التصور الإيماني ليس غاية في ذاته، بل هو وسيلة لعمارة الأرض، والقيام بمهمة الخلافة .هذا يحول النشاط الاقتصادي من تنافس محموم على الربح إلى تنافس شريف على خدمة المجتمع.
· مفهوم "شمولية الإنفاق": الإنفاق ليس فقط زكاة وصدقات، بل يشمل كل ما يبني الحياة وينفع الناس، من مشاريع بنية تحتية، إلى تعليم، إلى علاج، إلى توفير فرص عمل.

رابعاً: المفاهيم التربوية.

· مفهوم "التربية على فقه الاستخلاف": تربية النشء منذ الصغر على أن ما في أيديهم هو مال الله، وأنهم مسؤولون عنه .التطبيق: إعطاء الطفل مصروفاً، وتعليمه كيف ينفق جزءاً منه في الخير، ويحاسب نفسه عليه.
· مفهوم "التربية على الكرم بالقدوة والعمل": لا يكفي أن نأمر الأبناء بالكرم، بل يجب أن يرونا ننفق ونبذل، ونحن سعداء بذلك .هذا يغرس فيهم حب العطاء.
· مفهوم "غرس الإيمان العملي": ربط الأعمال الظاهرة) كالإنفاق (بالعقائد القلبية) كالإيمان بالله واليوم الآخر(، ليتعلم الطفل أن الإيمان ليس كلاماً، بل سلوك.

خامساً: أبعاد الآية وآفاقها.

· البعد الإيماني العقدي: ترسيخ عقيدة أن المال مال الله، وأن الإنسان مستخلف فيه، وربط الإيمان ب العمل.
· البعد الاقتصادي: تأسيس نظام اقتصادي متكامل يقوم على الاستخلاف والإنفاق، ويمنع الكنز والا حتكار، ويشجع على تداول المال.
· البعد الاجتماعي: بناء مجتمع متكافل، تسوده المحبة، وتختفي فيه الفوارق الطبقية الحادة، لأن الأ غنياء يؤدون حقوق الفقراء عن طيب نفس.

سادساً: مفاهيم البناء والتنمية من الآية.

· مفهوم "تنمية الموارد البشرية": الإنسان هو المستخلف، وهو الذي سينفق .الآية تدعو إلى بناء الإ نسان المؤمن القوي الأمين، القادر على الكسب الحلال والإنفاق الحكيم.
· مفهوم "تدوير المال وبناء الاقتصاد": الأمر بالإنفاق، وفهم المال كأمانة، يمنع تجميده، ويدفعه إلى التداول في مشاريع استثمارية وتنموية، مما يخلق دورة اقتصادية نشطة تقضي على البطالة وتزيد الإ نتاج.
· مفهوم "التنمية بالإيمان": التنمية الحقيقية لا تقوم فقط على خطط اقتصادية، بل تحتاج إلى محرك أخلاقي وإيماني .فالإيمان باللّه واليوم الآخر هو الضمانة لعدم الفساد والاحتكار والاستغلال، وهو الدافع للإتقان والإنفاق والبذل.

سابعاً: القيم التي تغرسها الآية في النفوس.

· قيمة الإيمان الصادق: الإيمان الذي يترجم إلى عمل.
· قيمة الاستخلاف والأمانة: الشعور بالمسؤولية عن المال.
· قيمة الكرم والإنفاق: حب العطاء والبذل في سبيل اللّه.
· قيمة التوكل والثقة باللّه: اليقين بأن اللّه هو الرزاق، وأنه سيخلف على المنفق خيراً.
· قيمة التكافل الاجتماعي: الشعور بمسؤولية الفرد تجاه مجتمعه.

ثامناً: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة لبناء الإنسان وصناعة التطور والنهضة في الحياة؟

يتم ذلك بتحويل الآية إلى "منظومة عمل متكاملة" للفرد والمجتمع:

.1بناء الفرد المستخلف الأمين:
· برنامج "المستخلف الصغير": في المدارس، نعلم الأطفال من خلال أنشطة عملية أن المال أمانة، وأن عليهم إنفاق جزء من مصروفهم في مشاريع خيرية صغيرة.
· ورش عمل للكبار حول "فقه الاستخلاف": لتصحيح المفاهيم المالية، والتدريب على كيفية وضع ميزانية شخصية تراعي حق اللّه في المال.
.2صناعة التطور والنهضة:
· في الاقتصاد: تشجيع إنشاء "أوقاف تنموية" ضخمة، تدار بفكر استثماري، وتخصص أرباحها لدعم التعليم والصحة والبحث العلمي، مما يحرر المجتمع من الاعتماد على المساعدات الخارجية.
· في مواجهة البطالة: إطلاق صناديق "الإنفاق الاستثماري"، حيث يتم توجيه أموال الزكاة و الصدقات لتمويل مشاريع صغيرة للشباب، بدلا ً من إعطائهم إعانات استهلاكية، تعليمهم الصيد بدلا ً من إعطائهم السمكة.
· في الإعلام: إنتاج برامج تلفزيونية ومسلسلات تكرس قيمة "الكرم والإنفاق" وتصور المنفقين كأبطال، وتظهر أثر الإنفاق في حل مشاكل المجتمع، لمواجهة ثقافة الاستهلاك والبخل التي تروج لها المادية.

ختاماً، هذه الآية هي ميثاق العمل الإيماني، ودستور المال في الإسلام. إنها تخرج الإنسان من أسر "الملكية الوهمية" إلى فضاء "الاستخلاف المسؤول"، ومن ضيق "البخل والشح" إلى سعة "الكرم والإ نفاق"، ومن قلق "الخوف من الفقر" إلى طمأنينة "انتظار الأجر الكبير". إنها تبني الإنسان الذي يفهم أن المال أداة لعبادة اللّه وعمارة الأرض، فيكون بذلك لبنة صالحة في بناء حضارة الإيمان والإحسان.

المبحث الثاني

اولا

تفسير الآية الثامنة من سورة الحديد
قال اللّه تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}

المقدمة: الآية الثامنة من سورة الحديد.. استنهاض القلوب وإزالة العوائق بعد وضوح الحقيقة

بعد أن أرست الآيات السبع الأولى قواعد الإيمان العظيمة، وبعد أن دعت الآية السابعة المؤمنين إلى إيمان حقيقي صادق يترجم إلى إنفاق مما جعلهم اللّه مستخلفين فيه، تأتي الآية الثامنة لتواجه العوائق النفسية والعقدية التي تحول دون تحقيق هذا الإيمان الكامل. إنها ليست مجرد آية تلاوة، بل هي صرخة استنهاض للقلوب، وسؤال تعجبي استنكاري يهز الوجدان: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}؟

إن السياق الذي وردت فيه هذه الآية يوضح لنا بدقة ما الذي يعرقل الإيمان بعد وضوحه وبيان واجباته. فبعد أن قررت الآيات السابقة أن كل شيء يسبح لله، وأن له ملك السماوات والأرض، وأنه ا لأول والآخر والظاهر والباطن، وأنه الخالق المدبر الذي يعلم السر وأخفى، يأتي هذا السؤال ليكشف حقيقة محزنة: أن هناك من يقر بهذه الحقائق بلسانه، ولكن قلبه لم يسلم بعد، وجوارحه لم تنقد بـ الكامل. هناك مانع نفسي، أو عائق عقدي، أو شرك خفي يحول بينه وبين الإيمان الحقيقي الذي يستوجب الخضوع الكامل لله في كل شؤون الحياة.

إنها تعالج داء "التلبيس" و"الشرك الخفي". فالكفار كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق، ولكنهم كانوا يشركون به في عبادته والتوجه إليه. والمؤمنون اليوم قد يعترفون بكل هذه الحقائق، لكنهم قد يقعون في شرك خفي عندما يخافون من الناس أكثر من خوفهم من الله، أو يرجون منهم أكثر مما يرجون من الله، أو يرفضون تحكيم منهج الله في حياتهم، أو يبخلون بأموالهم خوفاً من الفقر.

الآية تذكرهم بـ "الميثاق" الذي أخذه الله عليهم، سواء كان ميثاق الفطرة وعهد الذرية، أو ميثاق البيعة على السمع والطاعة. إنها توقظ فيهم ذلك العهد الغريزي الذي عرفوا به ربهم قبل أن يولدوا، وتذكرهم ببيعة العقبة الأولى التي ألزمتهم باتباع الرسول ﷺ في كل زمان ومكان. يخبرنا الحق سبحانه بهذا الاستنهاض المهيب: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.

دعنا نضع المفاتيح الرئيسية لفهم هذه الآية قبل الخوض في غمارها:

1. سؤال استنكاري للاستنهاض: "وَمَا لَكُمْ" تعجب واستغراب من حال من يدعي الإيمان ثم لا يحققه كاملاً.
2. الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم: تذكير بأن دعوة الرسول ﷺ هي دعوة إلى الإيمان بالله الذي يستوجب التوحيد الكامل في الربوبية والألوهية.
3. الميثاق المأخوذ: تذكير بعهد الفطرة وبيعة السمع والطاعة، مما يزيل كل عذر ويهدم كل مانع.
4. شرط الصدق: "إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" تعني إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان، فهذا هو الطريق.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة في أعماق استنهاض الإيمان وهدم الموانع

والآن، لنغص معاً في كلمات هذه الآية التي تخاطب العقول والمشاعر، ونستخرج منها العلاج الناجع لأ مراض القلوب.

المحور الأول: في رحاب "وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ".. صرخة التعجب والاستنهاض

انظر كيف افتتحت الآية بهذا الاستفهام التعجبي: "وَمَا لَكُمْ". إنه افتتاح يزلزل القلوب، ويحرك المشاعر.

1. دلالة الاستفهام بـ "وَمَا لَكُمْ":
"ما لكم" ليست سؤالاً عادياً يطلب إجابة، بل هي سؤال تعجبي استنكاري، فيه استغراب من حـ ال المخاطب. والمعنى: أي شيء حصل لكم؟ أي عذر لكم؟ ما الذي منعكم وقد وضحت لكم كل الأدلة ؟ إنه توبيخ عتابي يستثير الهمم، ويدفع إلى مراجعة الذات. هذا الأسلوب القرآني يخاطب المشاعر و العقل معاً، فيجعل المؤمن يقف مع نفسه وقفة صادقة: ما الذي يعيقني عن الإيمان الكامل؟ لماذا لا أثق بالله تمام الثقة؟ لماذا لا أنفق مالي في سبيله؟ لماذا لا أحكم منهجه في كل حياتي؟
2. ما هو الإيمان المنفي هنا؟ ربط الآية بما قبلها:
الإيمان المنفي في قوله "لَا تُؤْمِنُونَ" ليس الإيمان النظري الذي يقر به اللسان، بل هو الإيمان الحقيقي العملي الذي تم تفصيله في الآيات السابقة. إنه الإيمان الذي يوجب:
· التوجه إلى الله بالعبودية محبة وتعظيماً: لا يكفي الاعتراف بأن الله خالق، بل لا بد أن يتوجه العبد إليه بالعبادة في كل شيء، وأن يفزع إليه في الحوائج والنوائب. هذا ما أخل به كفار قريش الذين قال الله فيهم: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ} [يوسف: 106]. فهم يؤمنون بربوبيته، ولكنهم يشركون به في ألوهيته.
· تقدير الله حق قدره: وهو الخضوع لمنهج الله في جميع شؤون الحياة، مثلما خضعت السماوات والأرض. وهذا يقتضي أن تكون أعمالهم خالصة لله ظاهراً وباطناً.

· الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه: وهو البرهان العملي على صدق الإيمان بالمُلك الحقيقي لله.

3.الموانع النفسية التي تعيق هذا الإيمان:

بعد أن وضحت الأدلة والبراهين، لم يبقَ مانع منطقي أو عقلي يمنع من الإيمان الحق. إذن، ما الذي يعيق؟ إنها موانع نفسية وعقدية خفية، منها:

· الشرك الخفي في التوكل: أن يتوكل الإنسان على الأسباب أكثر من توكله على الله، أو أن يخاف من الناس كخوفه من الله أو أشد.

· الشرك الخفي في الرجاء والخوف: أن يرجو من المخلوقين ما لا يقدر عليه إلا الله، أو أن يخافهم في أمر لا يملكون فيه ضراً ولا نفعاً.

· الشرك في الطاعة والتحكيم: أن يرفض الإنسان أن يكون منهج الله هو المهيمن والمسيطر في حياته، فيحتكم إلى هواه أو إلى قوانين البشر.

· الشرك في الإنفاق: أن يبخل الإنسان بماله خوفاً من الفقر، وكأن الله ليس هو الرزاق، أو كأن المال ملكه هو لا مال الله.

هذه هي مواطن الخلل التي تحذر منها الآية، وتدعو إلى تطهير القلب منها.

المحور الثاني: "وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ".. وضوح الدعوة وبيان الغاية

هذا هو الجزء الثاني من الآية، وهو يبين أن المانع ليس غموض الدعوة أو خفاء الأدلة.

1.دلالة جملة "وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ":

الجملة حالية، أي أن عدم إيمانكم يحدث في حالة كون الرسول يدعوكم. وهذا يزيد من التعجب والاستنكار. فالرسول ﷺ بين أظهركم، يدعوكم ليل نهار، بالحكمة والموعظة الحسنة، ومعه من المعجزات والآيات البينات ما لا يدع مجالا ً للشك. فكيف لا تؤمنون وفي أيديكم هذا القرآن، وأمامكم هذه الدعوة الواضحة؟ إنه تعجيب من حال من يسمع الدعوة من الصادق المصدوق، ويرى المعجزات، ثم لا يستجيب إيمانا ً كاملا ً.

2.ما هو الإيمان الذي يدعو إليه الرسول؟ "لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ":

دعوة الرسول ﷺ ليست إلى الإيمان بوجود الله فقط، بل إلى الإيمان به "ربا". "لتؤمنوا بربكم" أي لتؤمنوا به ربا خالقا مالكا مدبرا، وتفردوه بالعبادة والطاعة والتحكيم. وهذا يعني:

· الإيمان الكامل بأركان الإيمان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

· إخلاص العبودية لله: فلا يعبد إلا الله، ولا يدعو إلا الله، ولا يستعين إلا بالله، ولا يتوكل إلا على الله.

· الحب في الله والبغض في الله: فيوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله، ويتبرأ من الشرك و المشركين.

· تحكيم منهج الله: فلا يرضى بحكم غير حكم الله، ولا يدين بدين غير دينه. قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65].

3.الرسائل العملية:

· مراجعة صدق الاستجابة للرسول: اسأل نفسك: "هل أنا أستجيب لدعوة الرسول ﷺ في كل أمر، أم أني أختار من الدين ما يوافق هواي وأترك ما يخالفه؟"

· التفريق بين الاعتراف النظري والإيمان العملي: أن تعترف بأن الله هو الخالق ليس كافياً، بل لا بد أن يظهر أثر هذا الاعتراف في سلوكك اليومي.

المحور الثالث: "وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ".. إيقاظ الضمير بعهد الله

بعد بيان وضوح الدعوة، يأتي أقوى حجة وأعمقها أثراً: تذكيرهم بالميثاق.

1.دلالة "وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ":

"الميثاق" هو العهد المؤكد. و"قد أخذ" تفيد التحقيق والتقرير، أي أن أخذ الميثاق أمر واقع ثابت. وهذا الميثاق يذكر المؤمن بجذوره العميقة، ويربطه بعهد قديم يجعله يستحي من نقضه. وقد ورد في تفسير هذا الميثاق وجهان، وكلاهما يخدم المعنى:

· الوجه الأول: ميثاق الفطرة وعهد الذرية.

وهو المذكور في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا} [الأعراف: 172]. هذا هو عهد الفطرة الذي غُرس في أعماق كل إنسان، وهو أن الله هو ربه وإلهه. فدعوة الرسول ﷺ للإيمان بربكم تتوافق مع هذه الفطرة، وتوقظها بعد أن غطتها الشواغل. فليس في الدعوة شيء غريب عن فطرة الإنسان التي عرف بها الله نفسه.

· الوجه الثاني: ميثاق بيعة العقبة الأولى.

وهو الميثاق الذي أخذه الرسول ﷺ على الأنصار في بيعة العقبة الأولى على السمع والطاعة في العسر واليسر. وهذا الميثاق وإن كان قديماً، إلا أنه ملزم لكل مؤمن في كل زمان ومكان، لأن مقتضى الإيمان هو هذه البيعة الدائمة لله ورسوله على السمع والطاعة. قال تعالى في سورة المائدة: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [المائدة: 7].

.2التأثير النفسي لتذكر الميثاق:

تذكر هذا الميثاق له أثر نفسي عميق:

· إحياء الضمير: إنه يوقظ في الإنسان ذلك العهد الفطري الذي يعرف به ربه، فيشعر بالخجل من نقضه.

· شعور بالمسؤولية: إنه يذكره بأنه ليس حراً طليقاً، بل هو مربوط بعهد وميثاق مع الله، وسيحاسب عليه.

· إزالة العذر: بعد هذا التذكير، لم يعد هناك أي عذر لأحد في عدم الإيمان الكامل، فالعهد موجود في الفطرة، والدعوة واضحة على لسان الرسول.

.3الرسالة التربوية:

في تربية النشء، علينا أن نذكرهم دوماً بـ "الميثاق"، وأن نغرس فيهم أن الإيمان هو عهد مع الله، وليس مجرد عادة أو تقاليد. هذا يبني إيماناً واعياً مسؤولاً.

المحور الرابع: "إن كنتُم مُؤْمِنِينَ".. شرط الصدق والتحفيز على المبادرة

هذا هو ختام الآية، وهو يضع المعيار الفاصل بين الصادق والمدعي.

.1دلالة "إن كنتُم مُؤْمِنِينَ":

هذا الشرط يحمل معنيين متكاملين:

· المعنى الأول: إن كنتم تحملون صفة الإيمان الحق.

أي إن كنتم صادقين في ادعائكم أنكم مؤمنون، فهذا هو الطريق. فإن الإيمان الذي في قلوبكم، والعهد الذي في فطرتكم، يقتضي منكم أن تستجيبوا لدعوة الرسول ﷺ، وأن تؤمنوا بربكم الإيمان الكامل. فمن علامات صدق الإيمان الأولي أن ينتقل المرء إلى الإيمان الكامل العملي.

· المعنى الثاني: إن كنتم تريدون أن تكونوا مؤمنين حقاً.

أي إن كنتم عازمين على تحقيق الإيمان الصادق، وتريدون أن تلتحقوا بركب المؤمنين الصادقين ، فبادروا ولا تتأخروا. فهذه هي الفرصة، وهذا هو السبيل. وهذا فيه تحفيز عظيم للمترددين.

.2العلاقة بين "إن كنتُم مُؤْمِنِينَ" وبين الموانع النفسية:

هذا الشرط هو بمثابة التحدي. فهو يقول لكل مؤمن: إن كنت صادقاً في إيمانك، فأثبت صدقك بإزالة تلك الموانع النفسية التي تعيقك. أزِل الخوف من الناس، وأزِل التعلق بالمال، وأزِل الشرك الخفي في قلبك. أظهر إيمانك عملياً في التسليم لله، والتحاكم إلى رسوله، والإنفاق في سبيله.

.3التأثير النفسي لهذا الشرط:

هذا الشرط يخلق في نفس المؤمن حالة من "المراجعة الدائمة" و"المساءلة الذاتية". إنه يجعله يسأل نفسه كل يوم: "هل أنا من المؤمنين حقاً؟ هل أفعالي تشهد بصدق إيماني؟ أم أني ممن قال الله فيهم: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ}؟". وهذا هو الطريق إلى تصحيح المسار وتزكية النفس.

المحور الخامس: العلاقة الوثقى بين أجزاء الآية.. منظومة استئصال الموانع وبناء الإيمان

دعني الآن أربط لك أجزاء الآية في منظومة واحدة متكاملة، تبين كيف تعالج الآية المشكلة من جذورها.

.1التشخيص: "وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ".

هي خطوة تشخيص الداء. إنها تضع المؤمن أمام المرآة: هناك خلل، هناك عائق، هناك نقص في إيمانك. ما هو؟

2.توضيح الدواء ووضوحه: "وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ".

هنا يتم بيان أن الدواء موجود وواضح، وهو دعوة الرسول ﷺ. المشكلة ليست في الدواء، بل في المريض الذي لا يتناوله.

3.تحطيم الحواجز النفسية: "وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ".

هنا يتم تذكير المريض بأنه قد وقع على عهد والتزام قديم، فلماذا التردد؟ هذا التذكير يحطم جدار التردد والخوف والتسويف.

4.وضع شرط الصدق والحافز: "إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ".

وأخيراً، يتم وضع المعيار والحافز. إن كنت تريد أن تكون من الصادقين، فهذا هو وقت العمل. لا مجال للتأجيل، ولا عذر للتردد.

سؤال للتأمل:

كيف يمكننا كمربين وقادة أن نستخدم أسلوب "الاستفهام التعجبي" و"التذكير بالميثاق" بطريقة تربوية لاستنهاض همم أبنائنا وموظفينا، وإزالة الموانع النفسية التي تمنعهم من تقديم أفضل ما عندهم؟ وكيف نجعل من "إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" دافعاً للتنافس في الخيرات لا مصدراً للإحباط والقنوط؟

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآية

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية"، يجب أن تربط بين السؤال التعجبي (ما لكم)، ووضوح الدعوة (الرسول يدعوكم)، والعهد الفطري (أخذ ميثاقكم)، وشرط الصدق (إن كنتم مؤمنين).

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "محاسبة النفس باستمرار لتطهيرها من موانع الإيمان الكامل (كالشرك الخفي في التوكل والخوف والرجاء والطاعة)، والتزام العهد الفطري بالاستجابة الكاملة لدعوة الله ورسوله".

· أبعاد الآية كقاعدة لضبط المسار:

1. ضبط بوصلة التشخيص الذاتي (وما لكم): أن يكون عند المؤمن مرآة يرى فيها تقصيره، فيسأل نفسه: ما الذي يعيقني؟ لماذا لا أثق بالله تماماً؟ لماذا لا أنفق في سبيله؟

2. ضبط بوصلة العلاج (الرسول يدعوكم): أن يعلم أن العلاج في الاستجابة الكاملة للقرآن والسنة، لا في اجتهادات النفس وأهوائها.

3. ضبط بوصلة الوفاء (أخذ ميثاقكم): أن يستشعر المؤمن أنه صاحب عهد مع الله، فيستحي من نقضه.

4. ضبط بوصلة الصدق (إن كنتم مؤمنين): أن يجعل من الصدق مع الله غايته وهدفه، فيجاهد نفسه لتحقيقه.

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون مؤمنين صادقين، لا يشوب إيماننا شرك خفي، ولا يعيقنا خوف من الناس، ولا يمنعنا بخل أو تردد.

· في حياتنا العملية، تدعونا الآية إلى:

· تطهير القلب من الشرك الخفي: راقب قلبك في مواقف الخوف والرجاء والتوكل، واسأل نفسك: هل أنا أرجو هذا الشخص أكثر مما أرجو الله؟ هل خوفي من فلان أشد من خوفي من الله؟

· إخلاص العبودية لله في كل شيء: لا تجعل لله شريكاً في مالك بصرفه في غير مرضاته، ولا في عقلك بتحكيم غير شرعه، ولا في سلوكك بطاعة المخلوق في معصية الخالق.

· الوفاء بالعهد: تذكر أنك وقعت عهداً مع الله أن تكون عبداً صالحاً، وأن تستجيب لرسوله ﷺ. جدّد هذا العهد كل يوم.

· المبادرة إلى الإيمان العملي: لا تكتفِ بالتمني والأماني، بل ترجم إيمانك إلى عمل، وبادر إلى الإ نفاق والجهاد في سبيل الله بمالك ونفسك.

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغيرها من أربعة أوجه:

.1من منظور الغفلة إلى منظور اليقظة: لم يعد الإنسان يعيش غافلا ً عن موانع الإيمان في قلبه، بل يصبح يقظاً، يراقب خواطره ونواياه.
.2من منظور التبرير إلى منظور المسؤولية: لم يعد الإنسان يبرر تقصيره بالأعذار الواهية، بل يتحمل مسؤوليته كاملة، لأن الميثاق قد أخذ عليه.
.3من منظور التردد إلى منظور المبادرة: لم يعد الإنسان متردداً في اتخاذ القرارات المصيرية في حياته، بل يبادر إلى فعل الخير واتباع الحق، لأنه يعلم أن شرط الصدق هو المبادرة.
.4من منظور السطحية إلى منظور العمق: لم يعد الإيمان مجرد طقوس سطحية، بل أصبح عهداً عميقاً، وميثاقاً غليظاً، يربط العبد بربه في كل لحظة.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآية وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول (من "وما لكم"): ضرورة محاسبة النفس باستمرار. التطبيق: خصص 5 دقائق قبل النوم لمراجعة مواقف يومك: هل خفت من غير الله؟ هل قدمت طاعة المخلوق على طاعة الخالق؟
· الدرس الثاني (من "الرسول يدعوكم"): التمسك بالقرآن والسنة هو الحل الوحيد. التطبيق: عند كل مشكلة، عد إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وابحث عن الحل فيهما.
· الدرس الثالث (من "أخذ ميثاقكم"): استشعار عظمة العهد مع الله. التطبيق: جدد إيمانك كل صباح بقول: "اللهم إني أجدد العهد معك أني أشهد أن لا إله إلا أنت، وأن محمداً عبدك ورسولك".
· الدرس الرابع (من "إن كنتم مؤمنين"): الصدق هو معيار القبول. التطبيق: قبل كل عمل، اسأل نفسك: "هل هذا العمل دليل على صدق إيماني؟ أم هو رياء وعادة؟".

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآية في واقعنا العملي.

.1معيار إزالة الموانع) وما لكم(: هل لا زلت أخاف من شخص أو جهة أكثر من خوفي من الله؟ هل في قلبي تعلق بمال أو جاه يمنعني من طاعة الله؟
.2معيار الاستجابة) الرسول يدعوكم(: عندما أسمع أمراً من أوامر الرسول ﷺ، هل أبادر إلى تنفيذه، أم أبحث عن أعذار؟
.3معيار الوفاء بالعهد) أخذ ميثاقكم(: هل أنا حريص على عهدي مع الله، فأجتنب نقضه بالمعاصي و الذنوب؟
.4معيار الصدق) إن كنتم مؤمنين(: هل تشهد أفعالي وسلوكياتي بصدق إيماني؟ وهل هناك تناقض بين ما أقول وما أفعل؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا اليومية.

· وقفة الصباح مع "وَمَا لَكُمْ": قف مع نفسك واسألها: "ما لك اليوم لا تؤمنين بالله حقاً؟ ما لك لا تتوكلين عليه بصدق؟".
· وقفة القرار مع "وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ": قبل أي قرار مصيري، اسأل نفسك: "ماذا كان سيفعل الرسول ﷺ في هذا الموقف؟".
· وقفة الوسوسة مع "وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ": عندما توسوس لك نفسك بالشر، ذكرها: "ألم تأخذي عهداً مع الله أن تكوني طائعة؟".
· وقفة العمل مع "إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ": قبل أن تقدم على عمل الخير، قل: "اللهم اجعل هذا العمل دليلا ً على صدق إيماني، واجعلني من الصادقين".

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة تحليل النفس: القدرة على تشخيص الموانع النفسية والعقدية التي تعيق العبد عن الكمال.
· مهارة فهم فقه الميثاق: إدراك أن الإيمان عهد مع الله، وليس مجرد فكرة ذهنية.
· حياتياً:
· مهارة الشجاعة في الحق: التغلب على الخوف من المخلوقين بالاعتماد على الله.
· مهارة المبادرة والتغلب على التسويف: اتخاذ القرارات الحاسمة في وقتها دون تردد.
· عملياً:

· مهارة تجديد الإيمان: تحويل الإيمان من حالة سكون إلى حالة حركة وتجدد دائم.
· مهارة الصدق مع النفس: مراقبة التناقض بين القول والفعل، وسد الفجوة بينهما.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

أولاً: المفاهيم العملية من الآية وكيفية تطبيقها.

· مفهوم "التشخيص الذاتي للموانع الإيمانية": تخصيص وقت دوري لفحص القلب من أمراض الشرك الخفي، والخوف من غير الله، والتعلق بالدنيا. التطبيق: عمل قائمة أسبوعية بالمخاوف والأطماع التي أثرت في قراراتك، وتحليلها لمعرفة ما إذا كانت لله أم للناس.
· مفهوم "تجديد البيعة": اعتبار الإسلام بيعة وعقداً دائم التجديد. التطبيق: في كل صلاة، استحضر أنك تجدد البيعة لله بقولك: "إياك نعبد وإياك نستعين". وفي كل جمعة، استمع إلى الخطبة وكأنك تسمع بنود الميثاق وتلتزم بها.

ثانياً: المفاهيم النفسية.

· مفهوم "استنهاض الضمير الفطري": الآية تخاطب الضمير العميق في الإنسان، وتوقظ "العقدة الفطرية" التي جعلت كل إنسان يعرف ربه. هذا الاستنهاض يزيل الغشاوة عن القلوب، ويجعل الإنسان يشعر بالخزي من نفسه عندما يخالف الفطرة السليمة.
· مفهوم "التغلب على الخوف بالعهد": الخوف من المخلوق هو العائق الأكبر عن الإيمان الكامل. تذكير الإنسان بالميثاق الذي أخذه الله عليه يمنحه قوة نفسية هائلة للتغلب على هذا الخوف، لأنه يصبح خائفاً من نقض العهد مع الله أكثر من خوفه من أي مخلوق.
· مفهوم "الاستحياء الإيماني": السؤال "وما لكم" يخلق في النفس حالة من "الاستحياء" من الله. فإذا كان الرسول يدعو، والميثاق قد أخذ، فكيف لا تستجيب؟ هذا الاستحياء هو أرقى أنواع الرقابة الذاتية، وهو علامة الإيمان الحي.

ثالثاً: المفاهيم الفكرية.

· مفهوم "نفي العذر بعد البيان": الآية تؤسس فكرياً لقاعدة: "لا عذر لأحد بعد وضوح الدعوة". فالإنسان لا يمكنه أن يحتج يوم القيامة بأنه لم يفهم، أو أن الأدلة لم تكن واضحة. إنه مفهوم يضع المسؤولية الكاملة على عاتق الإنسان.
· مفهوم "تكامل الأدلة": الآية تشير إلى أن الإيمان لا يقوم على دليل واحد، بل على منظومة متكاملة من الأدلة: الأدلة الكونية (مما سبق في أول السورة)، والدعوة النبوية (الرسول يدعوكم)، والأدلة الفطرية (وقد أخذ ميثاقكم). فالإيمان مبني على براهين عقلية ونفسية وروحية متكاملة.
· مفهوم "الإيمان كاستجابة حتمية": عندما تجتمع الأدلة، ويظهر الحق، تصبح الاستجابة له حتمية منطقية. عدم الإيمان في هذه الحالة ليس شكاً فكرياً، بل هو مرض نفسي أو هوى متبع، وهو ما تعبر عنه الآية بالاستفهام التعجبي "وما لكم".

رابعاً: المفاهيم التربوية.

· مفهوم "التربية بالاستنهاض لا بالتلقين": أسلوب "وما لكم" هو أسلوب استنهاضي، يثير في المتربي التساؤل والمراجعة الذاتية، بدلاً من أن يتلقى الأوامر بشكل سلبي. التطبيق: عند تربية الأبناء، استخدم أسلوب السؤال التعجبي: "ما لك لا تصلي وأنت تعرف أن الله يحب الصلاة؟"، "ما لك لا تجتهد في دروسك وأنت مؤمن بأن الله أمرك بالإتقان؟".
· مفهوم "تربية الضمير بالميثاق": تذكير الطفل منذ صغره بأنه على عهد مع الله، وأن الله خلقه على الفطرة السليمة. هذا يبني ضميراً حياً يعمل حتى في غياب الرقيب البشري.
· مفهوم "التدرج من الظاهر إلى الباطن": الآية لا تكتفي بمطالبة الإنسان بالإيمان الظاهري، بل تغوص في أعماقه لتستخرج الموانع الباطنية. هذا يعلم المربين ألا يكتفوا بتقويم السلوك الظاهر، بل عليهم أن يبحثوا عن الدوافع الباطنة والمشاعر الخفية.

خامساً: أبعاد الآية وآفاقها.

· البعد الإيماني العقدي: ترسيخ مبدأ أن الإيمان عهد، وأنه يستوجب الاستجابة الكاملة لله ورسوله،

ونفي كل أنواع الشرك الخفي.
· البعد النفسي: تقديم علاج نفسي عميق لأمراض القلوب، كالخوف من غير الله، والتعلق بالدنيا، وفتور الهمة.
· البعد الأخلاقي: الدعوة إلى الصدق مع الله والنفس، وإلى الوفاء بالعهد، وهما أساس الأخلاق.

سادساً: مفاهيم البناء والتنمية من الآية.

· مفهوم "بناء الإنسان الصادق": التنمية الحقيقية تبدأ من بناء الإنسان الذي يعرف لماذا هو موجود، ويلتزم بعهده مع الله. الآية تبني إنساناً صادقاً، مسؤولا ً، لا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله. هذا ا لإنسان هو اللبنة الأساسية لأي حضارة.
· مفهوم "إزالة معوقات التنمية": الخوف والجبن والبخل والتردد هي معوقات نفسية تحول دون تقدم الأفراد والمجتمعات. الآية تعلن الحرب على هذه المعوقات، وتستأصلها من جذورها، مما يطلق طاقات الأفراد للعمل والإنتاج.

سابعاً: القيم التي تغرسها الآية في النفوس.

· قيمة الصدق مع الله: أن يكون ظاهرك وباطنك لله.
· قيمة الوفاء بالعهد: الالتزام بالميثاق الإلهي في كل الظروف.
· قيمة المبادرة: المسارعة إلى فعل الخيرات وعدم التردد.
· قيمة المراقبة الذاتية: محاسبة النفس على خواطرها وأفعالها.
· قيمة الشجاعة الإيمانية: التغلب على كل المخاوف بالثقة بالله.

ثامناً: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة لبناء الإنسان وصناعة التطور والنهضة في الحياة؟

يتم ذلك بتحويل الآية إلى "منظومة استنهاض مجتمعي":

.1بناء الفرد المستجيب:
· برنامج "تجديد الميثاق": في كل عام، تنظم الأسرة أو المؤسسة "جلسة ميثاق"، يقرأون فيها هذه الآية، ويتحدثون عن معاني الوفاء بالعهد مع الله، ويجددون عهدهم على السمع والطاعة لله ولرسوله في حياتهم اليومية.
· تطبيق "سؤال الاستنهاض": في الاجتماعات العائلية والمؤسسية، عندما يحدث تقصير، يستخدم القائد أو المربي أسلوب: "وما لنا لا نطور من أدائنا وقد وضحت لنا الأهداف؟"، أو "وما لنا لا نتعاون وقد عاهدنا الله على الإخلاص في العمل؟". هذا الأسلوب القرآني يوقظ الضمائر ويحرك الهمم.
.2صناعة التطور والنهضة:
· في مواجهة الفساد: المجتمع الذي يتربى أفراده على أن الخوف من الله أكبر من الخوف من أي سلطة، هو مجتمع ينتج أفراداً لا يسكتون عن فساد، ولا يخافون في الحق لومة لائم. هذا هو أساس الإصلاح.
· في إطلاق الطاقات الاقتصادية: إزالة "الخوف من الفقر" و"التعلق بالمال" من قلوب الناس، يحولهم من مستهلكين جبناء إلى منتجين كرماء، يستثمرون وينفقون بثقة في الله، مما يخلق نهضة اقتصادية قائمة على التوكل والإقدام.
· في بناء المؤسسات: بناء "ميثاق شرف" للمؤسسة، يستلهم من معنى "أخذ ميثاقكم"، يوقع عليه جميع العاملين، ويتضمن بنوداً أخلاقية ومهنية مستمدة من تعاليم الإسلام. هذا يخلق ثقافة مؤسسية قوية قوامها الوفاء والصدق والإتقان.

وهكذا، تتحول هذه الآية من مجرد خطاب قرآني، إلى مشروع عملي لاستنهاض الهمم، وإزالة الموانع، وبناء إنسان جديد، وفي قلبه عهد مع الله، وفي عقله يقين، وفي جوارحه عمل دؤوب. إنها الآية التي تقول لكل مؤمن: قم، وتحرر من قيودك النفسية، فقد وضحت لك الطريق، وأخذ عليك العهد، فلمَ التردد؟!
ثانيا
تفسير الآية التاسعة من سورة الحديد
قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}

المقدمة: الآية التاسعة من سورة الحديد.. تجليات الرحمة الإلهية في إخراج البشر من الظلمات إلى النور

بعد أن أرست الآيات السابقة قواعد التوحيد، ودعت إلى الإيمان الحق، واستنهضت القلوب وأزالت الموانع، تأتي هذه الآية لتكشف عن الوجه المشرق من رحمة الله الواسعة. إنها ليست مجرد إخبار عن نزول القرآن، بل هي إعلان عن منهج إلهي متكامل للتحرر والانعتاق، ودعوة للتأمل في دلائل الرحمة والرأفة التي تحيط بنا من كل جانب.

تخيّل معي إنساناً يعيش في غياهب الظلام، تتقاذفه الحيرة، وتنهشه الشكوك، وتثقله قيود الشهوات و الأوهام والخرافات. إنه يتخبط في ظلمات متعددة: ظلمة الجهل، وظلمة الشك، وظلمة الخوف من المجهول، وظلمة التعلق بالدنيا، وظلمة الخوف من العباد. هنا تأتي هذه الآية لتعلن أن الله، برحمته، لم يترك هذا الإنسان وحيداً في هذه الظلمات، بل أرسل له النور.

إنها تعالج داء "التيه" و"الضياع" من جذوره. فهي تخبرنا أن الله، الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، لم يكتفِ بدعوة الرسول ﷺ، ولم يكتفِ بما في الفطرة من معرفة بالله من خلال عهد الذرية والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم، بل أيّد رسوله بالمعجزات، وأنزل عليه هذا القرآن الواضح البين، الذي يزيل عنهم الشك والحيرة، ليقيموا عقيدتهم على العلم واليقين، لا على الظن و التقليد.

إنها الآية التي تحمل في طياتها بشارات عظيمة: أن القرآن نور، وأن الخروج من الظلمات إلى النور ممكن وميسور، وأن ذلك كله من رأفة الله ورحمته. يخبرنا الحق سبحانه بهذا الإعلان الرحيم: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}.

دعنا نضع المفاتيح الرئيسية لفهم هذه الآية قبل الخوض في غمارها:

1. القرآن وحي منزل من الله: هو كلام الله، لا غموض فيه ولا لبس، وهو النعمة الكبرى والرحمة العظمى.
2. العبودية لله هي مقام الشرف والتكريم: الرسول ﷺ هو "عبد الله"، وهذه أعظم صفاته، مما يهدم كل مانع نفسي كالحسد.
3. القرآن يخرج من الظلمات إلى النور: وهي ظلمات الشك، والجهل، والشرك، والخوف، والتعلق بالدنيا، إلى نور الإيمان، والعلم، والتوحيد، والأمان، والزهد.
4. هذه هي غاية الرأفة والرحمة: الله رؤوف بعباده رحيم بهم، فلا عذر لأحد بعد هذا البيان.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة في أعماق الرحمة الإلهية والنور القرآني

والآن، لنغص معاً في كلمات هذه الآية المباركة، ونستخرج كنوزها التي تشرح الصدور وتهدي القلوب.

المحور الأول: في رحاب "هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ".. وضوح المصدر وشرف الوسيلة

انظر كيف افتتحت الآية باسمه سبحانه "هُوَ"، وكيف وصفت الرسول الكريم بـ "عبده"، وكيف وصفت الآيات بأنها "بينات".

1. دلالة "هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ":
الله وحده هو الذي ينزل القرآن .إنه تنزيل من حكيم حميد، وهو ليس من عند محمد ﷺ، وليس من عند بشر .هذا التأكيد يزيل أي شك حول مصدر القرآن .إنه وحي من الله، تنزل به الروح الأمين على قلب الرسول ﷺ .قال تعالى:} وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ] {(195) الشعراء:192 - .[195وهذا يرسخ في قلب المؤمن اليقين المطلق بأن هذا الكتاب هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
2. دلالة وصف الرسول بـ "عَبْدِهِ":
هذا الوصف هو غاية التشريف والتكريم .الله لم يقل: "على رسوله" أو "على نبيه"، بل قال: "على عبده" .إنه مقام العبودية الكاملة لله، وهو أعلى مقام يمكن أن يصل إليه إنسان .وفي هذا رد بليغ على من يغالون في الرسول ﷺ فيرفعونه فوق مقام العبودية، وهو أيضاً رد على من ينقصونه قدره.

من الناحية التربوية والنفسية، هذا الوصف يخاطب القلوب والمشاعر، وينقيها من الحسد الذي قد يكون مانعاً من إيمان البعض .فبعض أهل الكتاب وغيرهم كانوا يرفضون الإيمان حسداً للنبي ﷺ أن أنزل الله عليه الرسالة .قال تعالى:} وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ] {البقرة: .[109 فالله يعلن هنا أن محمداً ﷺ ليس ملكاً و لا ابناً لله، بل هو عبد الله، اختاره واصطفاه ليحمل رسالته .الله أعلم حيث يجعل رسالته .إنه لا مصلحة شخصية للرسول في هذه الدعوة، بل هو عبد يؤدي مهمة كلفه بها سيده .هذا الفهم يزيل الحسد والكبر من قلب المتلقي، ويدفعه للإذعان للحق.

.3دلالة "آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ":

القرآن آيات، جمع آية، وهي الدليل والعلامة والمعجزة .ووصفها بأنها "بينات" يعني أنها واضحات في ذاتها، ومظهرات لغيرها من الحقائق .فلا غموض فيها ولا لبس، فالبيان متحقق بالقرآن .إنها آيات ظاهرات الدلالة على صحة جميع ما جاء به الرسول ﷺ، وأنه هو الحق اليقين .فهي تخاطب العقول السليمة، وتقيم الحجة على الخلق .ومن أوجه كونها "بينات":

· بيان العقيدة: توضح حقيقة الله وصفاته، وتنفي عنه الشركاء والأنداد.
· بيان الشريعة: تضع الأحكام العادلة التي تصلح حياة البشر.
· بيان قصص الأولين: تحكي قصص الأمم السابقة بأسلوب فيه عبرة وموعظة.
· بيان الغيب: تخبر عن أمور غيبية لا يعلمها البشر، مما يدل على أنها من عند الله.

.4الرسائل العملية:

· التعظيم لشأن القرآن: تذكر دائماً أن هذا الكتاب هو تنزيل من الله، فاقرأه بخشوع وتدبر، واستحضر أنك تسمع كلام الله.
· الاعتزاز بمقام العبودية: أسعى لأن أكون "عبداً لله" حقاً، فأخضع له في كل أموري، وأتحرر من عبودية كل ما سواه .هذا هو الشرف الحقيقي.

المحور الثاني: "لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ".. مهمة القرآن وغايته العظمى

بعد بيان المصدر وشرف الوسيلة، تأتي هذه الجملة لتبين غاية التنزيل وهدفه الأسمى.

.1دلالة "لِيُخْرِجَكُم":

اللام هنا لام التعليل، وهي تبين علة التنزيل وغايته .الله أنزل القرآن لكي يخرجكم .وهذا الخروج ليس خروجاً من مكان إلى مكان، بل هو نقلة نوعية في الوجود كله: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم .إنه فعل متعدٍ، فالقرآن ليس مجرد كتاب للتلاوة، بل هو قوة محركة، وآلة إخراج.

.2دلالة "الظُّلُمَاتِ") بصيغة الجمع(:

الظلمات هنا بصيغة الجمع، بينما النور بصيغة المفرد .وذلك لأن الظلمات التي تحيط بالإنسان متعددة ومتنوعة، وقد اجتمعت كلها في صيغة الجمع لبيان كثرتها وتشعبها .من هذه الظلمات التي يخرجنا القرآن منها:

· ظلمات الشك والريب: الإيمان القائم على الفطرة وحدها قد يكون معلوماً لا يخلو من الظنة، لأن الفطرة تتعرض لمؤثرات البيئة والحضارات المادية السلبية التي تشوه معالمها .كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .فالقرآن هو العلم الذي يزيل ظلمات الشك والريبة، ويقيم العقيدة على اليقين .قال تعالى:} وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] {آل عمران:.[147
· ظلمات الشرك الخفي: وهي أن يتعلق القلب بغير الله، فيخاف من المخلوقين كخوفه من الله أو أشد، أو يرجو منهم ما لا يقدر عليه إلا الله .قال تعالى في بيان هذا المعنى العظيم في سورة التوبة:} قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] {التوبة: .[24 هذه الآية تبين الحد الفاصل الذي يتحول فيه القلب السليم إلى قلب مريض، إذا تساوت محبة الله ورسوله بمحبة هذه الأشياء .فالقرآن يخرج من هذه الظلمات.
· ظلمات الجهل: بالله، وبأسمائه وصفاته، وباليوم الآخر، وبالشرع .القرآن هو نور العلم الذي يبدد هذه الظلمات.
· ظلمات الأهواء والشهوات: من حب المال، والجاه، والسلطان، التي تستعبد الإنسان فيذل لها . القرآن يحرر الإنسان من هذه العبوديات.
· ظلمات الخوف من المخلوق: الخوف من الناس، والخوف من المستقبل، والخوف من الفقر، و الخوف من الموت .القرآن يربط القلب بالله، فيزول كل خوف سواه.
· ظلمات الأوهام والخرافات: التي كانت سائدة في الجاهلية، والتي ما زالت موجودة بأشكال

مختلفة.
.3دلالة "النُور") بصيغة المفرد(:
مقابل الظلمات المتعددة، يأتي النور مفرداً .إنه نور الإيمان بالله، نور العلم والمعرفة، نور اليقين، نور الطمأنينة، نور الهداية .هذا النور يشرح الله به صدر المؤمن، فيرى به الحقائق كما هي، ويعيش في سعادة وراحة بال .قال تعالى:} أَوَمَن كانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا] {الأنعام: .[122 هذا النور هو الذي يجعل المؤمن يسير في طريقه على بصيرة، متصلا ً بالله، فيرى الحقائق التي لا يراها الآخرون .قال تعالى:} لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ] {الأنعام:.[127
هذا النور يتحقق بأربعة أركان يغرسها القرآن في قلب المؤمن: الزهد في الدنيا) فيخرج من ظلمات التعلق بها(، والشوق إلى الجنة) فيخرج من ظلمات الطمع والجشع(، والإشفاق من النار) فيخرج من ظلمات المعاصي(، وترقب الموت) فيخرج من ظلمات الغفلة.(
.4كيف يتحقق الإخراج من الظلمات إلى النور؟
· بالإيمان بالله ورسوله: وهذا يخرج العبد من ظلمات الشك والحيرة والتردد والريبة، ويرزقه الله النور الذي يبصر به حقائق الأشياء.
· بالحب في الله والبغض في الله: هذا يجعل للعبد نوراً يمشي به في الأرض، عندما يتخلص القلب من الخوف من البشر ومن كل الأصنام، ويصبح خوفه كله من الله، فيشرح الله صدره ويرزقه نوراً لرؤية الحقائق، فيعيش بسعادة في الدنيا والآخرة.
· بالجهاد في سبيل الله: وهذا يخلص العبد من الذل والمهانة، ويعيش في عز وكرامة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.
· بالعلم الذي حمله القرآن: يخرج الإنسان من ظلمات الجهل، ويتحرر من الأوهام والخرافات وعبودية العباد، إلى عبودية رب العباد، ويتخلص من حب المال وعبوديته.
· بقصص القرآن: يأخذ المؤمن الحكمة والدروس والعبر، ويعيش عمر التجارب التي عاشها الأولون، فيضاف عمره إلى عمره، فيكون صاحب عزيمة وإرادة وقوة.

المحور الثالث: "وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ".. خاتمة النور ومنبع الرحمة

بعد بيان غاية التنزيل، تأتي هذه الخاتمة التي تملأ القلب طمأنينة وسكينة.

.1دلالة "لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ":
الرأفة هي أخص الرحمة وأرقها، وهي رحمة تدفع الضرر وتزيله .والرحيم هو ذو الرحمة الواسعة الدائمة التي توصل الخير والنعم .والجمع بينهما يعني أن الله لا يريد لعباده مجرد إزالة الظلمات، بل يريد أن يغمرهم بالنور والنعيم الدائم، وذلك منتهى الرأفة والرحمة.
.2دلالة "بِكُمْ":
هذه العناية خاصة بالمؤمنين .فالقرآن نور وهدى للمؤمنين، أما الكافر فهو في ظلمات حقد وكراهية، وهو ضعيف، وسيقع بيد الله، ويعيش في تعاسة الدنيا والآخرة، ويقضي حياته دون هدف أو غاية، فيصبح أقل منزلة من الحيوانات، يتخبط في ظلمات الكفر، وتنتهي حياته في ظلمات النار .
أما المؤمن فيعيش لأجل هدف وغاية وهي العبودية لله، وبالتالي يرى الحقائق أمامه، ويتصل بالله الذي يطلعه على النور الذي يرى به الحقائق التي لا يراها الآخرون.
.3العلاقة بين "الرأفة والرحمة" وبين "الإخراج من الظلمات":
الآية تبين لنا أن إرسال الرسل وإنزال الكتب لم يكن واجباً على الله، بل هو محض رحمة ورأفة منه بعباده .إنه سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها .ولذلك لم يكلهم إلى عهد الفطرة وحده، فقد علم أن الفطرة تتعرض لمؤثرات البيئة والحضارات المادية السلبية التي تشوه معالمها، فاقتضت رحمته إرسال الرسل وإنزال الكتب .قال تعالى:} وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ] {الجاثية:.[17
وهذا هو قمة اللطف الإلهي .فهو لم يكتفِ بدعوة الرسول، ولا بالميثاق الفطري، بل أيده بالمعجزات والقرآن الواضح، ليزيل عنهم الشك والحيرة، وليقيموا عقيدتهم على العلم واليقين .فهذه الآيات الواضحات هي من رأفة الله ورحمته، ترشدهم إلى طريق السعادة.
.4التأثير النفسي لهذه الخاتمة:
عندما يعلم المؤمن أن الله رؤوف به رحيم، وأن كل ما شرعه له هو من هذه الرحمة، فإنه:
· يحب الله: فمن علم أن الله أرحم به من أمه، أحبه حباً جماً.
· يثق بشرع الله: ويعلم أن كل ما أمره به هو خير له، وكل ما نهاه عنه هو شر له.
· يطمئن قلبه: ويسكن إلى ربه، ويشعر بالأمان.

سؤال للتأمل:
إذا كان القرآن هو النور الذي يخرجنا من الظلمات، فكيف يمكننا أن نجعل من تفاعلنا اليومي مع القرآن تفاعلاً "إخراجياً" حقيقياً، ينقلنا من حال إلى حال، لا مجرد تلاوة روتينية؟ وكيف يمكن للمربين أن يستخدموا القرآن لإخراج الأبناء من ظلمات الأوهام والمخاوف إلى نور اليقين والشجاعة؟

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآية

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية"، يجب أن تربط بين مصدر القرآن (من الله)، ووسيلته (عبده)، وغايته (الإخراج من الظلمات)، وعلته (الرحمة).

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "تلقي القرآن الكريم بوصفه أعظم تجليات رحمة الله، و الغاية من إنزاله هي إحداث نقلة وجودية في حياة الإنسان من ظلمات الجهل والشك والشرك إلى نور العلم واليقين والتوحيد".
· أبعاد الآية كقاعدة لضبط المسار:
1. ضبط بوصلة المصدر: أن تستقبل القرآن على أنه كلام الله، فتعظمه وتتدبره.
2. ضبط بوصلة الغاية: أن تبحث في كل آية عن الظلمة التي تريد أن تخرجك منها، والنور الذي تريد أن تدخلك فيه.
3. ضبط بوصلة الشعور: أن تستشعر رحمة الله ورأفته بك في كل حرف تقرؤه من القرآن.

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون عباداً شاكرين لنعمة القرآن، مستنيرين بهديه، خارجين من الظلمات إلى النور.

· في حياتنا العملية، تدعونا الآية إلى:
· جعل القرآن رفيقاً يومياً: لا تهجره، بل اجعل لك ورداً يومياً تقرؤه بتدبر، باحثاً عن النور الذي يخرجك من ظلمات يومك.
· محاسبة النفس بالقرآن: عند كل مشكلة، اسأل نفسك: "ما هو الظلمة التي أنا فيها؟ وما هو النور القرآني الذي يخرجني منها؟".
· نشر النور: كن أنت نفسك "آية بينة" تدل الناس على هذا النور، بأخلاقك ومعاملاتك ودعوتك.
· التفاؤل الدائم: مهما اشتدت الظلمات من حولك، تذكر أن الله قادر على أن يخرجك إلى النور، وأنه رؤوف رحيم.

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغيرها من أربعة أوجه:

1.من منظور العشوائية إلى منظور الهدف: لم تعد الحياة فوضى وظلمات، بل هي رحلة خروج منظمة إلى النور، يقودها كتاب الله.
2.من منظور اليأس إلى منظور الأمل: لم يعد هناك يأس من إصلاح النفس أو المجتمع، فما دام القرآن موجوداً، فالنور موجود، والله رؤوف رحيم.
3.من منظور الضعف إلى منظور القوة: لم يعد الإنسان ضعيفاً أمام ظلماته، بل معه "آيات بينات" هي أقوى سلاح لمواجهة الظلمات.
4.من منظور الخوف إلى منظور الأمان: لم يعد يخاف من المجهول، لأن "الرؤوف الرحيم" هو الذي يدبر الأمر، وهو الذي أنزل النور ليضيء له الطريق.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآية وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول) من "عَبْدِهِ"(: الشرف كل الشرف في العبودية لله .التطبيق: حاسب نفسك: هل أنت عبد لشهوتك، أم عبد لمالك، أم عبد لله وحده؟ وجه كل حركاتك لتحقيق هذا المقام.
· الدرس الثاني) من "آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ"(: القرآن فيه الحل لكل مشكلة .التطبيق: عندما تواجهك معضلة، ابحث في القرآن عن آية بينة تعالجها، وتدبرها حتى ترى النور.

· الدرس الثالث) من "الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"(: تحديد المشكلة هو نصف الحل .التطبيق: سمّ الظلمات التي تعيشها) خوف، شك، بخل، تعلق(، ثم اطلب من القرآن النور الذي يعالج كل واحدة منها.
· الدرس الرابع) من "لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ"(: ثق برحمة الله مهما عظمت ذنوبك .التطبيق: كلما أذنبت، عد إلى الله سريعاً، واطلب منه أن يخرجك من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة، مستشعراً رأفته بك.

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآية في واقعنا العملي.

.1معيار التعامل مع القرآن: كم مرة فتحت المصحف بتدبر هذا الأسبوع؟ وهل كنت تبحث فيه عن حلول لمشاكلك العملية؟
.2معيار الخروج من الظلمات: ما هي الظلمة التي كنت أعاني منها هذا الشهر) كخوف أو قلق(، وهل استطعت بفضل الله وقرآنه أن أخرج منها وأشعر بنور الطمأنينة؟
.3معيار استشعار الرحمة: عندما أقرأ القرآن، هل أشعر بأن الله يخاطبني برأفة ورحمة، مما يزيدني حباً له؟
.4معيار العبودية: هل أنا اليوم أكثر حرية من عبودية المال والناس والشهوات، وأقرب إلى تحقيق عبودية الله؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا اليومية.

· وقفة التدبر الصباحية: كل صباح، اقرأ بضع آيات من القرآن، واسأل نفسك: "ما الظلمة التي يريد الله أن يخرجني منها اليوم؟ وما النور الذي يريد أن يهديني إليه؟".
· وقفة الأزمة: عندما تشعر بالحيرة أو الخوف، قل: "اللهم يا رؤوف يا رحيم، أخرجني من هذه الظلمة إلى نور الهداية والطمأنينة بالقرآن الذي أنزلته".
· وقفة الشكر: في كل مساء، احمد الله على نعمة "الآيات البينات"، وقل: "الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله".
· وقفة العبودية: كلما شعرت بالكبر أو العجب، قل: "اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك".

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة التدبر: تحويل قراءة القرآن من مجرد تلاوة إلى عملية تفاعلية لفهم الرسائل واستخراج النور.
· مهارة تشخيص الأمراض القلبية: معرفة أنواع الظلمات التي تصيب القلب) شك، رياء، خوف، تعلق.(
· حياتياً:
· مهارة إدارة الأزمات: استخدام القرآن كمرجع أول لحل المشكلات النفسية والحياتية.
· مهارة التفاؤل الإيجابي: الثقة بأن كل ظلمة سيزيلها الله بنور.
· عملياً:
· مهارة التغيير الذاتي: الانتقال المنهجي من حالة غير مرغوبة) ظلمة (إلى حالة مرغوبة) نور (مستعيناً بالقرآن.
· مهارة نشر النور: تحويل العلم الناتج عن القرآن إلى ممارسات عملية وأخلاقية تنفع الناس.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

أولا ً: المفاهيم العملية من الآية وكيفية تطبيقها.

· مفهوم "التنمية بالنور": التنمية الحقيقية ليست مجرد بناء اقتصادي، بل هي إخراج للناس من ظلمات الجهل والتخلف والخرافة إلى نور العلم والإيمان .التطبيق: ربط أي مشروع تنموي ببناء الإ نسان روحياً وأخلاقياً إلى جانب بنائه مادياً.
· مفهوم "القرآن كمنهج علاجي": التعامل مع القرآن على أنه المصحة الروحية التي تعالج أمراض النفوس .التطبيق: عند وجود مشكلة أسرية أو شخصية، الرجوع إلى مختصين يستخدمون منهجية "التدبر العلاجي" للخروج من الظلمات.

ثانياً: المفاهيم النفسية.

· مفهوم "التحرر من الظلمات": الظلمات التي تعيشها) قلق، خوف، اكتئاب (ليست قدراً محتوماً، بل هي ظلمات يمكن الخروج منها .الآية تمنح الإنسان "أملا ً علاجياً" بأن الشفاء ممكن، وأن الله قد أنزل ما يخرج به الناس من أمراضهم النفسية .هذا المفهوم بحد ذاته هو بداية الشفاء.
· مفهوم "السكينة بالنور": عندما يعيش الإنسان في النور، أي في العلم واليقين، تزول عنه الحيرة و القلق .فهو يعرف من أين جاء، وإلى أين يذهب، وما هو المطلوب منه .هذه المعرفة تولد طمأنينة وسكينة نفسية عظيمة.
· مفهوم "الرأفة الإلهية كحافز للحب": الشعور بأن الله رؤوف رحيم بك شخصياً، وأنه أنزل القرآن من أجلك، يملأ القلب حباً لله، وهذا الحب هو أقوى دافع للطاعة والتغيير الإيجابي.

ثالثاً: المفاهيم الفكرية.

· مفهوم "حتمية النور": كما أن الله خلق الظلمات والنور، فقد جعل النور غالباً لها .مهما اشتدت الظلمات، فإن نور الحق قادم لا محالة .هذا يبني عقلا ً متفائلا ً، لا ينهزم أمام الباطل.
· مفهوم "مركزية الوحي في المعرفة": الآية تؤكد أن المصدر الأساسي للمعرفة النافعة هو الوحي . العقل البشري وحده لا يكفي للخروج من الظلمات، بل يحتاج إلى نور الوحي .هذا المفهوم يعيد ترتيب مصادر المعرفة في ذهن المسلم.
· مفهوم "العبودية كمنزلة تكريم": تقديم وصف "عبده" على "رسوله" في هذا السياق هو إعلان فكري بأن قمة الحرية الإنسانية تتحقق في العبودية لله، لأنها تحرر الإنسان من كل ما سواه.

رابعاً: المفاهيم التربوية.

· مفهوم "التربية بالإخراج": مهمة المربي ليست مجرد تلقين المعلومات، بل هي عملية "إخراج" للمتربي من ظلمات الجهل وسوء الأخلاق إلى نور العلم والأدب .التطبيق: على المربي أن يشخص ظلمات طلا به) كالكذب، أو الخوف، أو الكسل(، ثم يستخدم "الآيات البينات" من القرآن والسنة لإخراجهم منها.
· مفهوم "غرس محبة القرآن بالترغيب لا بالترهيب": ربط القرآن في ذهن الطفل بمعاني "الرأفة" و "الرحمة" و"النور"، يجعله يحب القرآن ويرتبط به، بدلا ً من أن يراه كتاباً للعقاب والوعيد فقط.

خامساً: أبعاد الآية وآفاقها.

· البعد الإيماني: ترسيخ أن القرآن هو كلام الله، وأنه هدى ونور، وأن الله هو الرؤوف الرحيم.
· البعد النفسي: تقديم علاج جذري للقلق والاكتئاب والحيرة بالخروج من الظلمات إلى النور.
· البعد الحضاري: بناء أمة "النور"، التي تحمل كتاب الله فتنير به للعالمين، وتخرجهم من ظلمات الجاهلية المعاصرة.

سادساً: مفاهيم البناء والتنمية من الآية.

· مفهوم "البناء على أساس النور": أي مجتمع يبنى على غير نور الوحي، فإنه يبنى في ظلمات بعضها فوق بعض .الآية تدعو إلى بناء الفرد والمجتمع على أساس "الآيات البينات"، ليكون بناءً ثابتاً لا يتزعزع.
· مفهوم "التنمية الشاملة": التنمية الحقيقية لا تقتصر على الجانب المادي فقط) النور الاقتصادي(، بل تشمل الجانب الروحي والعقلي والعلمي .إنها عملية إخراج متكاملة من كل الظلمات.

سابعاً: القيم التي تغرسها الآية في النفوس.

· قيمة محبة القرآن وتعظيمه.
· قيمة الأمل والتفاؤل) الخروج من الظلمات.(
· قيمة محبة الله المستندة إلى رأفته ورحمته.
· قيمة العبودية لله والتشرف بها.
· قيمة اليقين والثبات) النور.(

ثامناً: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة لبناء الإنسان وصناعة التطور والنهضة في الحياة؟

يتم ذلك بتحويل الآية إلى "مشروع نور" شامل:

.1بناء الفرد النوراني:

· برنامج "نور يومي": يخصص فيه الفرد وقتاً يومياً مع القرآن، لا لمجرد التلاوة، بل لتدبر آية واحدة، وسؤال نفسه: "ما الظلمة التي تعالجها هذه الآية في؟"، ويكتب خطة عملية للخروج منها.
· تربية الأطفال على أنهم "أبطال النور": في القصص والأنشطة المدرسية، يُزرع في الطفل أنه بطل مهمته إخراج الناس من الظلمات) الكذب، الأنانية، الجهل (إلى النور) الصدق، الكرم، العلم.(
.2صناعة التطور والنهضة:
· في الإعلام: إنتاج أفلام ومسلسلات وبرامج توثق قصصاً واقعية لأشخاص كانوا في ظلمات)إدمان، يأس، فقر، جهل (وأخرجهم القرآن إلى نور الحياة، لتكون نماذج ملهمة.
· في الاقتصاد: بناء "اقتصاد النور"، الذي يقوم على الشفافية والعدل والإنفاق، ويحارب "ظلمات" ا لاحتكار والغش والربا.
· في التعليم: تحويل المناهج الدراسية إلى "رحلة إخراج"، حيث يرى الطالب في كل مادة) فيزياء ، أحياء، تاريخ (كيف أن العلم يخرجه من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، وكيف أن ذلك من رحمة الله التي سخرها له.

ختاماً، هذه الآية هي إعلان الانعتاق الأكبر. إنها وعد الله لكل تائه وحيران ومهموم بأن هناك مخرجاً. إنها تعلن أن القرآن ليس مجرد كتاب، بل هو يد الرحمة الإلهية الممتدة لتنتشلك من ظلماتك، أياً كانت، وتضعك في نور الله الذي لا ينطفئ. فهل من مدّكر؟

المبحث الثالث

الايات هنا تعالج ازمه حب المال في النفوس ومساله البخل لتنظيفها القلوب من هذا الداء الخبيث لما لذلك من اثار سلبيه في هدم حياه الانسان واثارها في الابتعاد عن الايمان الحقيقي
وذلك من خلال الاتى

اولا

تفسير الآية العاشرة من سورة الحديد

قال الله تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}

المقدمة: الآية العاشرة من سورة الحديد.. علاج داء البخل وإعلان قواعد التفاضل والنوايا

بعد أن أرست الآيات السابقة قواعد التوحيد، ودعت إلى الإيمان الحق، واستنهضت القلوب، وكشفت عن رحمة الله بإنزال القرآن لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، تأتي هذه الآية الكريمة لتواجه مرضاً قلبياً خطيراً يعيق هذا الإيمان، ويحول بين العبد وبين النور الذي يريده الله له. إنه داء "البخل" و"حب المال" و"التعلق بالفاني".

تخيّل معي إنساناً آمن بالله، وعرف عظمته، وسمع آياته، ومع ذلك يظل ممسكاً بيده، شحيحاً بماله، يخاف من الفقر، ويتباطأ في الإنفاق. إنه يعيش ازدواجية مؤلمة: يقر بلسانه أن المال مال الله، ولكن قلبه لم يسلم بعد. هنا تأتي هذه الآية بصيغة التعجب الإلهي: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا}، لتعالج هذه الأزمة من جذورها.

إنه تعجب من الخالق من سلوك بعض عباده في تباطئهم في الإنفاق في أوجه الخير، وشدة تمسكهم بالمال. فما الذي يمنعهم؟ ما العذر بعد كل هذه البينات؟ إن الآية تستخدم أسلوب التعجب والاستفهام الاستنكاري لتنظيف القلوب من هذا الداء الخبيث، لما له من آثار سلبية في هدم حياة الإنسان وتحطيم المجتمعات، وإبعادها عن الإيمان الحقيقي. فالبخل ليس مجرد صفة سيئة، بل هو مرض يمنع عن الجهاد بالمال، ويؤدي إلى الهلاك الفردي والجماعي. قال تعالى: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: 195].

ثم تأتي الآية بعلاجين عظيمين لهذا الداء: الأول، التذكير بأن {وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فيتحرر القلب من وهم الملكية. والثاني، بيان قاعدة التفاضل بين المنفقين، وأن للإنفاق في وقت الضعف و الحاجة أجراً أعظم، مما يحفز على المبادرة والمسارعة. ثم تختم الآية بالتذكير بأن الله خبير بالنوايا والأعمال، ليكون البذل خالصاً لله. يخبرنا الحق سبحانه بهذا البيان الشافي: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}.

دعنا نضع المفاتيح الرئيسية لفهم هذه الآية قبل الخوض في غمارها:

.1التعجب من البخل: أسلوب "وما لكم" هو استنكار إلهي لداء التعلق بالمال والتباطؤ في الإنفاق.
.2التحفيز بالتذكير بالميراث الإلهي: المال كله لله، وسيرجع إليه حتماً بموت صاحبه، فلم البخل بما لا تملكه حقيقة؟
.3قاعدة التفاضل بالأقدمية والظروف: للإنفاق والجهاد في مرحلة الضعف) قبل الفتح (أجر أعظم، مما يحفز على البذل في كل الظروف، وخاصة الصعبة منها.
.4عدالة الوعد الإلهي: الجميع موعودون بالحسنى، ولكن الدرجات تتفاوت، مما يدفع للتنافس لا لليأس.
.5خبرة الله بالنوايا: أساس التفاضل هو إخلاص النية، لا مجرد الإنفاق الظاهري.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة في أعماق علاج البخل وبناء نفس المسارع المنفق

والآن، لنغص معاً في كلمات هذه الآية العظيمة، ونستخرج كنوزها التي تعالج النفوس وتصحح المسار.

المحور الأول: في رحاب "وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ".. صرخة التعجب من داء البخل

انظر كيف افتتحت الآية بهذا الاستفهام التعجبي: "وَمَا لَكُمْ". إنه افتتاح يهز الضمير ويثير التساؤل الداخلي.

.1دلالة أسلوب التعجب "وَمَا لَكُمْ":
هذا الأسلوب ليس سؤالا ً ينتظر جواباً، بل هو استنكار وتعجب من حال المخاطَبين .فبعد كل ما سبق من آيات البينات، وبعد وضوح الأدلة والبراهين، ما الذي يمنعكم من الإنفاق؟ ما العذر؟ إنه أسلوب يفضح الموانع النفسية الخفية، وعلى رأسها: حب المال، والخوف من الفقر، والتعلق بالدنيا .إنه يضع المؤمن في مواجهة صريحة مع نفسه: ما لك لا تنفق وأنت تعلم أن المال مال الله؟ ما لك تبخل وقد وعدك الله بالأجر الكبير؟
.2دلالة "أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ":
الإنفاق هنا مطلق في "سبيل الله"، ليشمل كل أوجه الخير وعمارة الأرض .نعم، قد جرت الآيات في الغالب باستخدام هذا اللفظ للقتال والجهاد، لأن النفقة في سبيل الله تتوقف عليها حياة الأمة وعزتها، وبذل الأموال تجهيزاً للجهاد .والتقاعس عن هذا الإنفاق يؤدي إلى الهلاك، كما قال تعالى: }وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ] {البقرة: .[195 ولكن المفهوم أوسع، فكل ما يخدم دين الله وينفع عباده هو من سبيل الله .والآية تعالج أزمة "حب المال" في النفوس، ومسألة "البخل" التي هي داء خبيث له آثار سلبية في هدم حياة الإنسان وتحطيم المجتمعات، وإبعادها عن الإيمان الحقيقي .فالبخيل لا يمكن أن يكون مؤمناً حقاً، لأن الإيمان يقتضي البذل والعطاء.
.3الرسالة العملية:
· مواجهة النفس: قف مع نفسك واسألها بصراحة: "ما لك لا تنفق؟ ما الذي يمنعك؟ هل هو الخوف من الفقر؟ أم حب المال؟ أم عدم الثقة في وعد الله؟".

المحور الثاني: "وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".. العلاج الإيماني لداء البخل

هذا هو العلاج الأول الذي تقدمه الآية. إنه حقيقة كونية إذا استقرت في القلب أزالت البخل من جذوره.

.1دلالة "وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ":
هذه الجملة تذكر الناس بحقيقة لا مراء فيها: أن كل ما في السماوات والأرض هو ملك لله، وأن مصيره كله راجع إليه .فالله هو الوارث الوحيد الباقي بعد فناء كل الخلائق .فما دام المال كله لله، وسيرجع إليه، فلماذا تبخل به؟ ولماذا تتباطأ في إنفاقه في سبيله؟ هذا التحفيز يذكر الإنسان بأن المال هو مال الله، وأن الجميع سيموتون ويعود كل شيء إلى الله، فهو الوارث لما في النفوس من تعلق.
.2الأبعاد النفسية والتربوية لهذه الحقيقة:
· زوال وهم الملكية: أنت لا تملك شيئاً، بل أنت مستخلف فقط .فعلامَ البخل بما ليس لك؟
· التحرر من الخوف من الفقر: كيف تخاف من الفقر وأنت تنفق من مال سيرجع إلى مالكه

الحقيقي، وهو قادر على أن يعطيك أضعافه؟
· التفكر في المصير: في الآية إيحاء بأن الإنسان سيموت، ويكون ماله لغيره .ولن يأخذ معه من المال شيئاً .والذين يأتون بعده هم أحد رجلين:
· الأول: إنسان صالح ينفق المال في أوجه الخير، فتحصل أنت على الأجر وتحرمه أنت، وكان من الممكن أن يكون ذلك المال لك!
· الثاني: إنسان فاسد يستغل المال في المعاصي والشرور، فتكون أنت قد أعنته على الشر بمالك الذي تركته له!
ففي كلا الحالين، أنت الخاسر إن لم تنفق .وهذا يدعو إلى اغتنام الفرصة، فالأموال ما زالت في أيديكم في الدنيا، فبادروا بإنفاقها في الخير قبل أن تنتقل من أيديكم، أو تنتقلوا أنتم عنها، وتعود إلى ملك الله عز وجل.
.3الرسائل العملية:
· تذكر الموت: استحضر أن هذا المال سيتركك وترحل عنه .فاجعله زاداً لك في رحلتك، لا وبالاً عليك.
· الإنفاق الفوري: لا تؤجل إنفاق اليوم إلى الغد، فأنت لا تدري متى تنتقل هذه الأموال إلى ورثتك.

المحور الثالث: "لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ".. قاعدة التفاضل في البذل والجهاد

بعد العلاج الإيماني للبخل، تأتي هذه القاعدة لتحفز على المبادرة والمسارعة إلى الإنفاق، وتوضح أن ليست كل النفقات سواء في الأجر.

.1دلالة "لَا يَسْتَوِي":
هذا إعلان واضح بوجود تفاوت وتفاضل في الدرجات بين المؤمنين، بناء على أعمالهم وأحوالهم . وهذا التفاوت ليس ظلماً، بل هو عدل وحكمة.
.2دلالة "مِن قَبْلِ الْفَتْحِ") فتح مكة(:
"الفتح" هنا هو فتح مكة، الذي كان بداية القوة والعزة للإسلام والمسلمين .ما قبله كان مرحلة ضعف واستضعاف، وما بعده مرحلة قوة وتمكين .فالذين أنفقوا أموالهم وبذلوها لنصرة دين الله في مرحلة الضعف، وقاتلوا بأموالهم وأنفسهم، هم أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا.
.3الحكمة الإلهية من هذا التفاضل:
في هذا إفصاح عن حكمة إلهية عظيمة، وهي أن قيمة العمل ترتبط بظروفه وأحواله .ففي مرحلة الضعف، تنعدم المصالح الشخصية، ويكون البذل والتضحية دليلاً على تجرد النفس من الأهواء، وخلوص النية لله، وقوة اليقين والثبات .إنه بذل في وقت الشدة، حيث النصر بعيد، والمخاطر كبيرة، وهذا يستوجب عظم الأجر .وهذه قاعدة من قواعد التصور الإسلامي: في إعداد المسلم لنفسه في مرحلة الضعف بالثبات والصمود، فهو يدرك أنه سينال الدرجات العُلى عند الله .أما بعد الفتح والقوة، فقد تدخل المصالح الشخصية، أو الرغبة في الظهور، أو غيرها من الدوافع.
.4الرسائل العملية:
· قاعدة المبادرة في الشدة: لا تنتظر الرخاء لتبذل، بل بادر في وقت الشدة والحاجة.
· تقدير أصحاب السبق: تعلم أن توقر الذين سبقوا في البذل والتضحية، وتعرف فضلهم.

المحور الرابع: "أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ".. عدالة الوعد الإلهي وجمع القلوب

بعد بيان التفاضل، تأتي هذه الجملة لتطمئن قلوب المتأخرين، وتجمع الصفوف على محبة الله وطلب الجنة.

.1دلالة "وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ":
"الحسنى" هي الجنة .وهذا وعد إلهي كريم يشمل الجميع: السابقين والمتأخرين، المنفقين و المجاهدين في كل المراحل .وهذا من كمال رحمة الله وعدله .فهو يخبر عن تفاوت الدرجات للتحفيز على التنافس في الخيرات، ولكنه في نفس الوقت لا يحبط الآخرين، بل يعدهم جميعاً بالحسنى.
.2دور النوايا والأعمال في تحديد المنزلة:
هذه الجملة الكريمة تزيل لبساً مهماً: وهي أن الوعد بالحسنى للجميع لا يعني التساوي في الدرجات .فالنية والإخلاص وإحسان العمل لها دور كبير في تحديد المنزلة النهائية .وكأن الله يقول

لنا: الوعد من الله للجميع بالجنة، ولكن التفاوت في الدرجات فيها قائم على الصدق والأقدمية والإخلا ص .ولكن المهم هو أن لا ييأس أحد، ولا يتكل أحد .فمن سبق له الإنفاق في مرحلة الضعف، لا يتكل على سبقه، بل عليه أن يديم العمل الصالح ويحاسب نيته .ومن جاء متأخراً، لا ييأس، بل يسارع ليدرك ما يمكنه إدراكه من الدرجات، فباب الله مفتوح، ووعده حق.
.3الرسائل العملية:
· التنافس لا اليأس: اجعل تفاوت الدرجات دافعاً للتنافس في الخيرات، لا مدخلا ً لليأس و القنوط .فحتى لو فاتك فضل السبق، فبإمكانك نيل الدرجات العالية بإخلاصك وجهادك في وقتك.
· عدم الاتكال على السبق: إن كنت من أصحاب السبق، فلا تتكل على ذلك، بل داوم على العمل الصالح، وجدد نيتك، وخَفْ على نفسك من الرياء.

المحور الخامس: "وَاللهُ بِمَا تعْمَلُونَ خَبِيرٌ".. تتويج العلاج بمراقبة الظواهر والبواطن

تأتي هذه الخاتمة لتذكر بالغاية والوسيلة معاً، ولتربط كل ما سبق بإخلاص النية ومراقبة الله.

.1دلالة "خَبِيرٌ":
"الخبير" هو العليم ببواطن الأمور وحقائقها .فهو سبحانه لا يرى ظاهر الإنفاق فقط، بل يعلم نيتك وهدفك ومقصدك .إنه مطلع على كل ما يخفيه صدرك، ويعلم هل كان إنفاقك لله خالصاً، أم لترائي الناس، أم لغير ذلك من الدوافع .وهذا يوجه المؤمن إلى أن يكون اهتمامه الأكبر بنقاء نيته وإخلاصها لله.
.2العلاقة بين صلاح الباطن وصلاح الظاهر:
هذه الخاتمة ترسخ مفهوماً عظيماً: توفيق الله للعبد إنما يكون بصلاح باطنه، أي صلاح النوايا .ف الشعور بأن المال هو مال الله، وتقدير نعم الله، يوجب التوجه بالإنفاق دون أي أذى أو منّ.
وهنا قاعدة مهمة: على المؤمن أن يكون خبيراً بما يجري في عالمه .فالله ذكر أن الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا أفضل، وهذا حكم مبني على حقائق مستنبطة من المنطق والواقع .الظاهر في التعامل هو الذي يجب على المؤمن الأخذ به في مواجهة الغير، فيتعامل معهم بحسن نية مع الحذر المشروع، ويقيم علاقاته على الظاهر .أما بالنسبة لنفسه، فلا بد أن يلزمها بالباطل القائم على الإخلاص والنوايا والقصد .فهو يبني النتائج في تعامله مع الناس على الحقائق الظاهرة، ولكنه يبني علاقته مع الله على صلاح الباطن.
.3الرسائل العملية:
· مراقبة النية: بعد كل عمل إنفاق، اسأل نفسك: "لماذا أنفقت؟" وتأكد من أن الجواب هو: "لله".
· دوام المحاسبة: لا تترك نفسك بلا تربية ومحاسبة، فالنية قد تتغير، والقلب قد يتقلب.

سؤال للتأمل:
كيف يمكن للمؤسسات الخيرية أن تستفيد من "قاعدة التفاضل" الواردة في هذه الآية، لتحفيز الناس على الإنفاق في المشاريع الصعبة والمعقدة التي تحتاج إلى بذل في "مرحلة الضعف" قبل أن تصبح مشاريع ناجحة يرغب الجميع في دعمها؟

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآية

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية"، يجب أن تربط بين أسلوب التعجب (العلاج)، والتذكير بالميراث (التحرر)، وقاعدة التفاضل (التحفيز)، وخبرة الله (المراقبة).

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "المسارعة إلى إنفاق المال في سبيل الله في كل وقت، وبالأخص في أوقات الشدة والحاجة، مع إخلاص النية لله، تخلصاً من داء البخل وتعلقاً بوعد الله بـ الحسنى".
· أبعاد الآية كقاعدة لضبط المسار:
1. ضبط بوصلة التملك: أن يتحرر القلب من وهم ملكية المال، مستحضراً أن ميراث السماوات والأ رض لله.
2. ضبط بوصلة التوقيت: أن يدرك أن للإنفاق في وقت الشدة والضعف فضلا ً أعظم، فيبادر ولا يسوف.

.3 ضبط بوصلة النية: أن يكون محور اهتمامه هو إخلاص العمل لله، لأن الله خبير بما في الصدور.

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون منفقين مسارعين، متحررين من عبودية المال، طالبين للدرجات العُلى، مخلصين النوايا.

· في حياتنا العملية، تدعونا الآية إلى:
· اغتنام الفرصة الآن: لا تقل سأنفق غداً، فالمال الآن في يدك، وغداً قد ينتقل إلى غيرك أو تنتقل أنت عنه.
· البحث عن مواطن الشدة: ابحث عن المشاريع والأعمال الخيرية التي هي في أمس الحاجة للدعم ، والتي لا يلتفت إليها الكثيرون، ليكون لك أجر السبق.
· تنقية القلب: قبل أن تنفق، طهّر قلبك من الرياء، ومن المنّ والأذى، ومن أي دافع غير وجه الله.

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغيرها من أربعة أوجه:

.1من منظور الملكية إلى منظور الأمانة: لم يعد المال ملكاً لي أخاف عليه، بل أمانة سأرحل عنها وأتركها.
.2من منظور التسويف إلى منظور المبادرة: لم يعد هناك وقت للتأجيل، فكل لحظة تمر هي فرصة لـ لإنفاق قد لا تتكرر.
.3من منظور المساواة المطلقة إلى منظور التفاضل بالعمل: أصبحت أنظر إلى الناس بتقدير أعمالهم وتضحياتهم، وخاصة السابقين منهم.
.4من منظور العمل الظاهر إلى منظور النية الباطنة: أصبح اهتمامي الأكبر هو صلاح قلبي وإخلاصه لله، لا مجرد حجم المال الذي أنفقه.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآية وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول) من أسلوب التعجب "وما لكم"(: محاسبة النفس على التباطؤ في الخير .التطبيق: خصص وقتاً لمراجعة صرفياتك الشهرية، واسأل نفسك: أين موضع الإنفاق في سبيل الله منها؟
· الدرس الثاني) من "ولله ميراث السماوات والأرض"(: التحرر من الخوف من الفقر .التطبيق: كلما وسوس لك الشيطان بالفقر عند إرادة الإنفاق، قل له: "المال مال الله، وهو يرزقني".
· الدرس الثالث) من "لا يستوي"(: تقدير السابقين وعدم التساوي بين المتفاضلين .التطبيق: لا تنتقد من أنفق أكثر منك أو سبقك إلى الخير، بل اقتدِ به، واعرف فضله.
· الدرس الرابع) من "وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى"(: التفاؤل وعدم اليأس .التطبيق: مهما كان تقصيرك في الماضي، لا تقنط من رحمة الله، وسارع إلى الإنفاق لتنال وعد الحسنى.
· الدرس الخامس) من "وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"(: الإخلاص في الإنفاق .التطبيق: كلما أنفقت مالا ً، استحضر نية صالحة، كأن تنوي بها إغاثة ملهوف، أو إعلاء كلمة الله، أو إدخال السرور على مسلم.

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآية في واقعنا العملي.

.1معيار التحرر من البخل: عندما أفكر في مشروع خيري، هل أول ما يخطر ببالي هو "كم سأخسر"، أم "كم سأكسب من الأجر"؟
.2معيار المبادرة) قبل الفتح(: هل أبحث بنفسي عن أوجه الخير الخفية التي تحتاج دعماً، أم أنتظر حتى يأتي إليّ السائلون؟
.3معيار النية الخالصة: هل يختلف إنفاقي في العلن عنه في السر؟ وهل أشعر بضيق إذا لم يعرف الناس أني أنفقت؟
.4معيار استشعار الخبرة الإلهية: هل أراجع نواياي بعد الإنفاق، وأجاهد نفسي على إبقائها خالصة لله؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا اليومية.

· وقفة القرار المالي: عندما تتلقى رزقاً أو ربحاً، تذكر أن "ولله ميراث السماوات والأرض"، وقل: "اللهم هذا رزقك، فأعني على إنفاقه في سبيلك قبل أن يفارقني أو أفارقه".

· وقفة التفاضل: عندما ترى من يسبقك إلى الخيرات، لا تحسده، بل قل: "اللهم اجعلني ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وارزقني الإخلاص في القول والعمل".
· وقفة الإخلاص: قبل أن تنقر على زر "تحويل" للتبرع، قف واسأل قلبك: "لمن هذا؟" فإن كان لله فأمض، وإن كان لغيره فصحح نيتك أولا ً.

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة فقه الأولويات: فهم أن للإنفاق في الظروف الصعبة أولوية وأجراً أعظم.
· مهارة تحليل النوايا: القدرة على كشف الدوافع الخفية وراء التباطؤ في الإنفاق.
· حياتياً:
· مهارة التخطيط المالي الاستباقي: تخصيص جزء من الدخل لمشاريع خيرية استراتيجية وطويلة ا لأمد.
· مهارة التغلب على البخل: تحويل الإنفاق من ألم إلى متعة روحية باستحضار الثواب.
· عملياً:
· مهارة المبادرة: المسارعة إلى اغتنام فرص الخير قبل فواتها.
· مهارة إخلاص العمل: تدريب النفس على أن يكون عملها لله وحده في كل حين.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

أولا ً: المفاهيم العملية من الآية وكيفية تطبيقها.

· مفهوم "الإنفاق الاستراتيجي": توجيه الإنفاق إلى القطاعات الحيوية التي قد لا يلتفت إليها الآخرون، كالعلم، أو دعم الأسر المنتجة في مراحلها الأولى، ليكون أجرك كأجر من أنفق "قبل الفتح" .التطبيق: إنشاء محفظة استثمارية خيرية تركز على "المشاريع الناشئة" في العمل الخيري.
· مفهوم "هندسة النوايا": أن يكون للمنفق مشروع دائم لمراجعة نيته وتطهيرها، لأن العمل الظاهر لا قيمة له بدون الباطن السليم .التطبيق: كتابة النية قبل أي عمل إنفاقي كبير، ومراجعتها بعد تنفيذه.

ثانياً: المفاهيم النفسية.

· مفهوم "التحرر من قلق الفقد": الخوف من فقدان المال هو سجن نفسي .حقيقة أن المال ميراث لله تحررك من هذا السجن، لأنك تدرك أنك ستفقده حتماً بالموت .فبدلا ً من أن تفقده بلا ثواب، اختر أن "تفقده" في سبيل الله لتنال الثواب .هذا المفهوم يعالج "القلق المالي" ويحوله إلى "طمأنينة".
· مفهوم "التنافس الروحي": بيان التفاوت في الدرجات يخلق في النفس "تنافساً روحياً" شريفاً، لا يقوم على الحسد والغيرة، بل على محاولة اللحاق بالسباقين في الخيرات .هذا يحول طاقات الغيرة و الحسد من طاقة هدامة إلى طاقة بناءة.
· مفهوم "لذة العطاء الخفي": ربط الإنفاق بـ "خبير" يدفع المؤمن للاستمتاع بالإنفاق الخفي الذي لا يعلمه إلا الله، أكثر من استمتاعه بالإنفاق المعلن .هذا يبني شخصية غنية بذاتها، تكتفي بنظر الله لها.

ثالثاً: المفاهيم الفكرية.

· مفهوم "عدالة التفاضل": التفاوت بين البشر ليس ظلماً، بل هو سنة من سنن الله في الخلق، وهو قائم على العمل والإخلاص والظروف .هذا المفهوم يبني عقلا ً عادلا ً، لا يرفض مبدأ التفاوت، بل يرفض أسبابه الجائرة، ويسعى للتفوق بأسباب عادلة.
· مفهوم "قيمة الظرف": الفكرة الإسلامية لا تقيس العمل بمعزل عن ظرفه .فالعمل نفسه في زمنين مختلفين له وزنان مختلفان .هذا يبني عقلا ً استراتيجياً يحلل السياقات، ويعطي لكل حدث وزنه الحقيقي.

رابعاً: المفاهيم التربوية.

· مفهوم "التربية على تقدير السابقين": تعليم الأبناء احترام تاريخ الأمة، وتقدير تضحيات السابقين، وعدم الاستهانة بإنجازاتهم، لأنهم عملوا في ظروف أصعب .التطبيق: سرد قصص السابقين في البذل)كعثمان بن عفان (بأسلوب يبرز ظروفهم الصعبة، ليتعلم الطفل أن قيمة العطاء ليست بقدره فقط، بل بظرفه أيضاً.

· مفهوم "تربية النية": كما نربي الأبناء على العمل، يجب أن نربيهم على "مراقبة النية" في العمل .
التطبيق: أن يسأل الأب ابنه بعد أن يتصدق: "لماذا تصدقت اليوم؟"، ليعلمه أن العمل يبدأ من القلب.

خامساً: أبعاد الآية وآفاقها.

· البعد الإيماني: ترسيخ أن الرزق بيد الله، وأن المال ملكه، وأن البذل في سبيله هو التجارة الرابحة.
· البعد الاقتصادي: تأسيس ثقافة "تدوير المال" في المجتمع، وعلاج مشكلة "اكتناز المال" التي تضر با لاقتصاد.
· البعد التاريخي والحضاري: ربط الأجيال الجديدة بتاريخ الأمة، وفهم أن النصر والتمكين له ثمن، وأن السابقين قدموه ليعيش اللاحقون في عز.

سادساً: مفاهيم البناء والتنمية من الآية.

· مفهوم "التنمية القائمة على السبق": تشجيع رواد الأعمال والمستثمرين على دعم الأفكار الجديدة و المشاريع الناشئة في مرحلة "ما قبل الفتح"، حيث المخاطر عالية والثواب أعظم .هذا يخلق بيئة حاضنة للابتكار والمبادرة.
· مفهوم "بناء مجتمع المبادرة": مجتمع يتربى أفراده على أن "وما لكم ألا تنفقوا" و"لا يستوي"، هو مجتمع يبادر إلى حل مشاكله بنفسه، ولا ينتظر الحلول من الخارج.

سابعاً: القيم التي تغرسها الآية في النفوس.

· قيمة الكرم والجود: التحرر من البخل والتعلق بالمال.
· قيمة المبادرة والمسارعة: اغتنام الفرص قبل فواتها.
· قيمة الإخلاص: العمل لله وحده في السر والعلن.
· قيمة تقدير السبق والفضل: الاعتراف بفضل السابقين.
· قيمة الأمل والطموح: السعي الدائم لنيل أعلى الدرجات.

ثامناً: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة لبناء الإنسان وصناعة التطور والنهضة في الحياة؟

يتم ذلك بتحويل الآية إلى "محرك للتنافس والإخلاص":

.1بناء الفرد المسارع:
· برنامج "فرص ما قبل الفتح": يدرب الأفراد على اكتشاف "فرص الخير" في محيطهم التي لا يلتفت إليها الآخرون، ودعمها، سواء كانت إنساناً محتاجاً خفياً، أو مشروعاً صغيراً يحتاج دفعة.
· دفتر "مراقبة النية": يخصص الفرد دفتراً صغيراً يدون فيه عند كل عمل خيري نيته، ثم يعود بعد أسبوع ليرى كيف تطورت هذه النية، وهل نقصت أم زادت.
.2صناعة التطور والنهضة:
· في الاقتصاد: بناء "صناديق دعم المبادرة"، التي تمول المشاريع الناشئة عالية المخاطر، والتي قد لا تمولها البنوك التجارية، استلهاماً من مفهوم "قبل الفتح".
· في الإعلام: تسليط الضوء على "أبطال ما قبل الفتح" في كل مجال: العلم، العمل الخيري، الإص لاح الاجتماعي، الذين عملوا في بداياتهم بصمت وإخلاص حتى حققوا نجاحاتهم .هذا يكرمهم ويحفز غيرهم.
· في التربية: إدخال "مسابقات النوايا" بين الطلاب، حيث يطلب منهم القيام بأعمال خيرية خفية، ويكتبون عنها وعن نواياهم فيها، ويتم تكريم من كان عمله أشد إخلاصاً وتجرداً.

ختاماً، هذه الآية هي إعلان حرب على داء البخل، وهي دعوة مفتوحة للانعتاق من عبودية المال، وهي وضع لمعايير دقيقة للتفاضل عند الله. إنها تبني الإنسان الذي يعيش في هذه الدنيا بجسده، وقلبه معلق بالدرجات العلا في الجنة، فلا يبخل، ولا يسوف، ولا يرائي، بل يبادر، وينفق، ويخلص، ويسابق إلى الخيرات، وهو على يقين بأن الله خبير بما يفعل.
ثانيا
تفسير الآية الحادية عشرة من سورة الحديد
قال الله تعالى: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}

المقدمة: الآية الحادية عشرة من سورة الحديد.. قمة التحفيز الإلهي وعلاج البخل بمنطق الحب والا

استثمار

بعد أن أرست الآيات السابقة قواعد التوحيد والإيمان، ودعت إلى الإنفاق، واستنهضت القلوب، وعالجت داء البخل بالتذكير بالميراث الإلهي وبيان التفاضل، تأتي هذه الآية الكريمة لتكون قمة التحفيز، وأرقى أساليب العلاج الرباني لأزمة "حب المال" و"الشح" في النفوس. إنها ليست مجرد آية، بل هي صرخة حب، ودعوة استثمار، وإعلان عن تجارة لن تبور.

تخيّل معي ملكاً عظيماً، يملك كل شيء، ويطلب منك - أنت الفقير المحتاج - أن تقرضه! إنه مشهد يهز الوجدان، ويثير التساؤل، ويفتح أبواب الأمل. هذا هو بالضبط ما تفعله هذه الآية. إنها تبدأ بسؤال استفهامي تقريري: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ}، ليس سؤالا ً عن الفاعل، بل هو حث وإغراء وترغيب، وأسلوب بديع يشد الانتباه إلى بيان ما هو محل اهتمام الخالق من النفقة المقبولة لديه.

إنها تعالج جذور البخل، لا بالأمر والنهي فقط، بل بتحويل نظرة الإنسان إلى المال والإنفاق رأساً على عقب. فبدلا ً من أن يرى الإنفاق خسارة وفقداً، يراه "قرضاً" لله، وبدلا ً من أن ينتظر السداد من فقير مثله، ينتظره من الغني الحميد الذي يضاعف ويهب الأجر الكريم. إنها تنقل التعامل من أفق البشر المحدود إلى أفق الله اللامحدود.

وهذا الأسلوب القرآني الفريد قد يشكل تساؤلا ً عند أصحاب القلوب المريضة، أو الغافلين الذين يحتاجون إلى علاج رباني ليخلصهم من تلك الأمراض. فقد يتساءلون: كيف نقرض الله وهو مالك الملك؟ كيف يكون السداد منه وهو مالك الشيء؟ وقد بلغ سوء الأدب ببعض اليهود حين قالوا: "إن الله فقير ونحن أغنياء"، فنزلت الآية في سورة آل عمران: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181]. ولهذا فإن الجواب على هذه التساؤلات يكمن في فهم أن هذه الآية فيها إدرار وترغيب وحوافز للإنفاق، باخراج حب التعلق بالمال من القلوب. فالخطاب هنا يتفق مع مبدأ الامتحان الذي يقوم على أساس إعطاء الإنسان حرية اختيار طريق الخير أو الشر، وجعل القابلية والاستعدادية التي تحكم سلوكه توصله إلى النتيجة التي يكون مسؤولا ً عنها أمام الله، ومصيرها الجنة أو النار.

إنها الآية التي تجعل المؤمن يشعر بأنه يتعامل مع الله مباشرة، فيرتقي بإنفاقه من مجرد إحسان إلى فقير، إلى صفقة رابحة مع الغني الحميد. يخبرنا الحق سبحانه بهذا الإعلان المحفز: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}.

دعنا نضع المفاتيح الرئيسية لفهم هذه الآية قبل الخوض في غمارها:

.1أسلوب الاستفهام للحث والتحفيز: "من ذا الذي" ليس سؤالا ً بل عرض استثماري إلهي، يثير الحماس ويطلق مشاعر الرغبة والرهبة.
.2تحويل الإنفاق إلى قرض لله: نقلة نفسية عظيمة، تجعل المنفق يشعر بالعزة والغبطة، لأنه يتعامل مع الله مباشرة، لا مع المخلوق.
.3شرط "القرض الحسن": ليس كل إنفاق مقبول، بل لا بد أن يكون حسناً، خالصاً لله، من أطيب المال، بلا منّ ولا أذى.
.4وعد مزدوج بالأجر: مضاعفة كمية) فيضاعفه له (ومضاعفة كيفية) أجر كريم(، مما يجعل العطاء استثماراً رابحاً لا خسارة فيه.

ثانياً: تحليل الآية.. رحلة في أعماق الاستثمار الإلهي وعلاج الشح

والآن، لنغص معاً في كلمات هذه الآية العظيمة، ونستخرج كنوزها التي تزكي النفوس وتطهر القلوب.

المحور الأول: في رحاب "مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ".. الاستفهام المحفز ومنطق الحب الإلهي

انظر كيف افتتحت الآية بهذا الاستفهام البديع: "مَن ذَا الَّذِي". إنه افتتاح يزلزل المشاعر، ويوقظ القلوب.

.1دلالة أسلوب الاستفهام "مَن ذَا الَّذِي":

هذا الاستفهام ليس استفهاماً حقيقياً يراد به معرفة الفاعل، بل هو استفهام تقريري للحث و التحفيز والإغراء .إنه أسلوب عربي بليغ، كأنك تقول لشخص: "من ذا الذي يساعدني في هذا الأمر العظيم وله عندي كذا وكذا؟" .فالمقصود هو شد الانتباه وبيان أن هذا الفعل) إقراض الله (هو محل اهتمام الخالق، وأن فاعله سينال عطاءً عظيماً .وهذا الأسلوب يخاطب القلوب والمشاعر، فيثير فيها الرغبة والرهبة، ويشعرها بأن هناك فرصة عظيمة معروضة عليها.

.2كيف يكون القرض لله وهو مالك الملك؟) علاج الشبهة(:

هذا السؤال هو الذي قد يثيره أصحاب القلوب المريضة .والجواب القرآني واضح: الله أخبرنا في بدايات السورة أنه له ملك السماوات والأرض، وهو المالك للمال كله .وهنا يطلب منا أن نقرضه .كيف؟

· الغرض هو الابتلاء والامتحان: الله منح الإنسان المال على سبيل الأمانة للقيام بالخلافة على الأ رض، وزوده بالإمكانيات والطاقات والقدرات والعقل والعلم، وسخر له كل ما في الأرض، ليقوم بأداء أمانة البناء والعمران وفق منهج الله .وهذا ابتلاء وامتحان من الله.

· عدم إجبار الإنسان: ولأن الله منح الإنسان الإرادة، فإنه لا يتحقق سلب هذه الإرادة، ولا يُنتزع منه ما غُرس في النفوس من حب الشهوات والأموال - كما قال تعالى:} زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ] {آل عمران: [14 - بطريق الجبر، بل تُركت للإرادة حرية الاختيار، ليكون الثواب بالجنة لمن كسر نفسه وشهواته، والعقاب لمن مال نحو الانحراف.

· الترغيب بالجنة ليكون زهداً عن الدنيا: الله يخاطب العباد بالترغيب بالجنة، ليكون ذلك عوناً لهم على الصبر عن الحرمان من هذه الشهوات .فكأنه يقول: أريدك أن تلجأ إليّ بالطاعة بمحبة وإرادة، وليس مجبوراً .وهذا لا يعني أن الله محتاج إلى مال العباد، فالناس هم الفقراء إلى الله:} يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ۖ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ] {فاطر: .[15 فالخطاب يتفق مع مبدأ الامتحان القائم على الاختيار.

· الفرق بين مقامي الإخبار والخطاب: النصوص في الآيات الأولى من السورة جاءت بصيغة الإخبار عن حقيقة ملكية الله المطلقة، والتي تُبنى عليها التصورات الإسلامية تجاه المال .هذه الحقيقة تغرس في قلب المؤمن أن المال لله، وهذا من كمال الإيمان .أما هنا، في هذا الموضع، فتأتي الحوافز التي تشكل وسائل علاج أزمات النفوس، لتنظيف المجتمع من الآثار السلبية الناتجة عن حب المال والشح . قال تعالى:} وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] {الحشر:.[9

.3التأثير النفسي لشعور "إقراض الله":

عندما يسمع المؤمن هذا النداء، تهتز مشاعره، ويقول في نفسه: "أنا الفقير المحتاج إلى الله، أقرض ربي الغني؟!" .هذا الشعور يولد في نفسه عزة، واندفاعاً، ومبادرة .إنه يحفزه على المسارعة إلى الإ نفاق، لأنه يرى أن التعامل ليس مع فقير محتاج، بل مع الله الغني الحميد .وهذه المشاعر تجعل المؤمن عندما ينفق، لا ينظر إلى وجه الشخص الذي يعطيه المال، بل ينظر إلى وجه الله العظيم، ويشعر أن التعامل بينه وبين الله، وأنه يقرض الله وليس هذا الإنسان المحتاج .واستقرار هذه المشاعر في القلوب يؤدي إلى البذل بسخاء وحب ورضا، وأن ينفق أجود ما لديه، فهو ينظر إلى وجه الله العظيم، وليس إلى وجه هذا الشخص الذي يراد له العطاء .وبالتالي، فإن تعظيم الله وإجلاله سيجعله يستحي أن ينفق إلا ما هو أجود وأطيب ما لديه.

.4الرسائل العملية:

· استشعار عظمة الفرصة: عندما تدعى إلى الإنفاق، استحضر أنك "تقرض الله"، واشعر بالعزة و الشرف في ذلك.

· تحويل وجهة التعامل: عند إعطاء المال لمحتاج، لا تنظر إليه نظرة استعلاء، بل انظر بقلبك إلى الله الذي تتعامل معه.

المحور الثاني: "قَرْضًا حَسَنًا".. شروط الاستثمار المقبول عند الله

بعد الحث والتحفيز، تأتي هذه الكلمة لتكون المفتاح والشرط. فليس كل إنفاق هو "قرض حسن" يقبله الله وتترتب عليه المضاعفة والأجر الكريم.

.1دلالة "قَرْضًا حَسَنًا":

هذا هو جواب السؤال: "من ذا الذي يقرض الله؟" .أي أن شرط السداد والثواب لهذا القرض هو أن يكون "حسناً" .فما هو القرض الحسن؟

· أن يكون خالصاً لله: أن يتوجه المؤمن بإنفاقه لله بإخلاص وقصد ونية، متجرداً لله، لا يريد جزاءً ولا شكوراً من البشر .فلا يكون رياءً ولا سمعة .قال تعالى:} وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِم] {البقرة:.[265

· أن يكون من أطيب المال وأجوده: أن ينفق الإنسان أفضل ما لديه وأحبه إليه، لا أن ينفق الرديء الذي لو أعطي له هو ما أخذه إلا أن يغمض فيه .قال تعالى:} لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا

تُحِبُّونَ] {آل عمران: .[92 وهذا من مقتضيات طيبات النفقة.
· ألا يلحقه أذى ولا منّ: ألا يلحق الأذى النفسي والمعنوي والمادي بالإنسان المعطى له المال، لأن ذلك يبطل الصدقة .قال تعالى:} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ] {البقرة: .[264 فالمنفق يتعامل مع الله، وبالتالي لا يلحق الأذى أو المن بمن أعطاه، لأن ذلك يخرجه من الإنفاق الحسن إلى القبيح.
· أن يكون للمحتاج دون تعصب: أن يكون الإنفاق حقاً لكل محتاج، دون النظر إلى دينه أو عرقه . فكما أن الله رب المؤمن ورب الكافر، وهو يرزق الجميع، فالمسلم ينفق لله، لا ينظر هل الآخذ مسلم أم كافر .قال تعالى:} لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ] {البقرة: .[272 فتلك هي حقيقة ملك الله، أنه كما هو رب المؤمن فهو رب الكافر.
.2دور هذه الشروط في علاج أمراض النفوس وبناء المجتمع:
· تخليص النفس من الشوائب: هذه الشروط) الإخلاص، عدم المن والأذى، الإنفاق من الطيب (تخلص النفس من شوائب الرياء والعجب والكبر التي تقتل إنسانية الإنسان.
· حماية مشاعر المحتاجين: الإسلام يحرص على تطهير النفس من أي مظاهر السوء المصاحبة للإ نفاق .ولهذا، فإن توزيع الزكاة من حق ولي الأمر على المستحقين أفضل في بعض الأحيان، حتى لا يشعر المستحق بالإذلال عند تسليمه المال مباشرة من صاحب المال .قال تعالى:} وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ] {التوبة:.[59
· إزالة الأحقاد بين الفقراء والأغنياء: وجوب عدم الإيذاء بالمنّ يحقق الغاية من إلزام الشرع للإ نسان بالإنفاق، وهو الترابط بين أفراد المجتمع .فحصول المن والأذى يزيد من مشاعر الانقسام و الطبقية والأحقاد بينهم .ولهذا يقول تعالى:} قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ] {البقرة: .[263 فاعتبر أن الابتسامة بوجه أخيك، والكلمة الطيبة، أفضل من العطاء الذي يلحقه الأذى.
.3الرسائل العملية:
· فحص النية: قبل كل إنفاق، اسأل نفسك: "لمن هذا؟" فإن كان لله فأمض، وإن كان لغير الله فطهر نيتك.
· اختيار الأفضل: عندما تريد أن تنفق، اختر الأفضل والأحب إليك، لا ما كاد أن يفسد أو ما استغنيت عنه.
· صيانة اللسان والقلب: لا تمنن على أحد بعطائك، ولا تؤذه، واعلم أن الكلمة الطيبة قد تكون خيراً من صدقة يتبعها أذى.

المحور الثالث: "فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ".. وعد الله الذي لا يتخلف ومنطق التجارة الرابحة

بعد بيان شروط القرض الحسن، يأتي وعد الله الكريم بالمكافأة، ليكتمل مشهد التحفيز والترغيب.

.1دلالة "فَيُضَاعِفَهُ لَهُ":
هذا هو السداد الإلهي للقرض .والمضاعفة هنا تحتمل معنيين عظيمين:
· المضاعفة من حيث الكمية: فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة .قال تعالى:} مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] {البقرة: .[261 وهذا وعد لا يتخلف، وسداد مضمون من الغني الحميد.
.2دلالة "وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ":
هنا ترتقي المكافأة إلى مستوى أعلى ."أجر كريم" يجمع معاني الكم والكيف والدوام معاً:
· من حيث الكيفية: فالأجر ليس فقط كثيراً، بل هو "كريم"، أي نفيس في نوعه وجودته .إنه أجر شريف، راقٍ، لا شائبة فيه ولا كدر.
· من حيث المثال: لو افترضنا أن أحداً أقرضك كيلو فضة، وعند حلول الأجل فوجئت بأنه سلمك بدلا ً منه كيلو ذهب، أو سبعمائة كيلو ذهب! فالذهب أنفس وأجود وله قدر وقيمة أفضل من الفضة .فكيف إذا كان المُقرِض هو الله؟! هذا هو المعنى من حيث المثال، للتقريب.
· من حيث الدوام: وصف "كريم" يشير أيضاً إلى أن هذا الأجر دائم لا ينقطع، فهو في الجنة، حيث النعيم المقيم الذي لا يفنى .فمحل هذا الأجر وموضعه هو يوم القيامة، يوم يكون الإنسان فقيراً محتاجاً إلى الحسنات، وإلى أقل أجر .فيأتي هذا الأجر الكريم عظيم النفع، دائم البقاء.
.3التأثير النفسي لهذا الوعد المزدوج:
هذا الوعد بالمضاعفة والأجر الكريم يحدث في النفس انقلاباً كاملا ً .فالمنفق لم يعد يرى أنه خسر ماله، بل يرى أنه استثمره أحسن استثمار، وأنه سيجني أرباحاً تفوق الخيال .هذا الوعد يشكل

"حسنات ورصيداً" يدخره عند الله، ويقوم السلوك الإنساني على أساسه .وبذلك، يتحول الإنفاق من عبء ثقيل إلى فرحة غامرة، ومن خوف من الفقر إلى طمع في الغنى عند الله.

سؤال للتأمل:
كيف يمكننا تحويل مفهوم "إقراض الله" إلى برنامج عملي في حياتنا، بحيث نتعامل مع كل فرصة إنفاق على أنها استثمار مضمون مع الله؟ وكيف نربي أبناءنا على هذا المفهوم العميق؟

ثالثاً: أهم الدروس والتوجيهات والرسائل العملية من الآية

الأمر الأول: كيف نفهم الآية فهماً عميقاً ونتجاوز التفسير اللفظي؟

لتتجاوز التفسير اللفظي إلى "القاعدة السلوكية"، يجب أن تربط بين أسلوب الاستفهام (التحفيز)، وشرط القرض الحسن (الإخلاص)، ووعد المضاعفة (الثقة).

· استخراج "القاعدة السلوكية": القاعدة هي: "استشعار أن الإنفاق في سبيل الله هو قرض مضمون السداد من الغني الحميد، بشرط الإخلاص والطيب، مما يحفز على البذل السخي ويطهر النفس من الشح".
· أبعاد الآية كقاعدة لضبط المسار:
.1 ضبط بوصلة الدافع: تحويل الدافع للإنفاق من الخوف أو العادة إلى الحب والطمع في وعد الله.
.2 ضبط بوصلة الجودة: أن يكون العطاء من أحب الأموال وأجودها، لا من رديئها.
.3 ضبط بوصلة العلاقة: أن تجعل علاقتك في العطاء مع الله وحده، فلا تمن ولا تؤذي.

الأمر الثاني: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

يريد الله منا أن نكون منفقين محسنين، نتعامل مع الله مباشرة في أموالنا، طالبين تجارته الرابحة.

· في حياتنا العملية، تدعونا الآية إلى:
· تحويل النية في كل إنفاق: أن ننوي بكل درهم نخرجه أنه قرض لله، وننتظر منه السداد.
· الإنفاق من أحب أموالنا: ألا نتصدق بما نستغني عنه فقط، بل بما نحبه ونريده.
· صيانة الإحسان عن المن والأذى: أن نراقب ألسنتنا وقلوبنا بعد العطاء، فلا نجرح مشاعر المحتاجين.

الأمر الثالث: كيف تغير الآية نظرتنا للحياة؟

تغيرها من أربعة أوجه:

.1من منظور الفقد إلى منظور الاستثمار: لم يعد الإنفاق خسارة، بل هو قرض واستثمار عند الله.
.2من منظور التعامل مع البشر إلى منظور التعامل مع الله: أصبحت أنظر إلى المحتاج على أنه "وسيط" أقرض عن طريقه الله.
.3من منظور التردد إلى منظور المبادرة: ما دامت التجارة رابحة، فلماذا التأخير؟ بادر قبل أن يفوتك العرض.
.4من منظور الأجر القليل إلى منظور الأجر الكريم: لم يعد همي هو مقدار ما سأدخره، بل مقدار الأ جر الكريم الذي سأجده عند الله.

الأمر الرابع: الدروس والعبر المستخلصة من الآية وكيفية تطبيقها في واقعنا العملي.

· الدرس الأول) من أسلوب "من ذا الذي"(: المبادرة إلى اغتنام الفرص الإلهية .التطبيق: كلما سمعت عن باب خير، بادر إليه فوراً، واستشعر أن الله يدعوك.
· الدرس الثاني) من "يقرض الله"(: استشعار العزة والغبطة في الإنفاق .التطبيق: عند الإنفاق، قل بقلبك: "اللهم هذا قرض لك، فأدّه لي أضعافاً مضاعفة".
· الدرس الثالث) من "قرضاً حسناً"(: الإخلاص والجودة في العطاء .التطبيق: لا تخرج الصدقة من الرديء، وأخلص نيتك لله، ولا تمنن بها.

· الدرس الرابع) من "فيضاعفه له"(: الثقة المطلقة في وعد الله .التطبيق: أنفق وأنت موقن أن الله سيخلف عليك خيراً، وأن كل درهم تنفقه سيعود إليك أضعافاً في الدنيا أو الآخرة.

الأمر الخامس: بناء "معيار تقييم" لمدى تحقيق قاعدة الآية في واقعنا العملي.

.1معيار الاستشعار) من ذا الذي(: عندما أدعى للإنفاق، هل يهتز قلبي فرحاً بالفرصة، أم أتردد وأحسب الخسارة؟
.2معيار الجودة) قرضاً حسناً(: هل آخر مال أنفقته كان من أحب أموالي إليّ، أم من فائضها؟ وهل خلصت نيتي لله؟
.3معيار الثقة) فيضاعفه له(: بعد أن أنفقت، هل أشعر بالقلق على مالي، أم بالطمأنينة والثقة في سداد الله؟

الأمر السادس: وقفات عملية مع الآية في حياتنا اليومية.

· وقفة العطاء: قبل أن تعطي فقيراً، توقف واسأل نفسك: "هل هذا قرض حسن لله؟" .ثم انظر بقلبك إلى الله، وأعطِ وأنت تشعر أنك تقرض الغني الحميد.
· وقفة المنع: عندما تمنع نفسك عن الإنفاق، تذكر أنك ترفض صفقة رابحة مع الله، واسأل نفسك: "لماذا لا أقرض الله قرضاً حسناً؟".
· وقفة الشكر: عندما يأتيك رزق غير متوقع، تذكر أنه "سداد" من الله لقرض سبق لك أن أقرضته، فاحمده واشكره.

الأمر السابع: المهارات الحياتية والمعرفية والعملية المستفادة.

· معرفياً:
· مهارة فهم الأسلوب القرآني: إدراك أن "من ذا الذي" ليس سؤالا ً بل حث.
· مهارة فقه القرض الحسن: معرفة شروط الإنفاق المقبول عند الله.
· حياتياً:
· مهارة إدارة المال بنية الاستثمار الأخروي: وضع خطة للإنفاق الشهري كاستثمار طويل الأمد عند الله.
· مهارة التغلب على الشح: تحويل الإحساس بالخسارة عند الإنفاق إلى إحساس بالربح.
· عملياً:
· مهارة الإخلاص في العطاء: تدريب النفس على أن يكون البذل لله وحده.
· مهارة العطاء السخي: تعويد النفس على إخراج الأجود والأفضل.

رابعاً: المفاهيم والقيم وأبعاد الآية

أولا ً: المفاهيم العملية من الآية وكيفية تطبيقها.

· مفهوم "الاستثمار الأخروي": التعامل مع كل فرصة إنفاق على أنها فرصة استثمارية مضمونة الربح عند الله .التطبيق: إنشاء "محفظة خيرية" شخصية، يخصص فيها الفرد جزءاً من دخله لمشاريع إنفاقية متنوعة، ويشعر أنه يستثمر في بنك الله.
· مفهوم "التعامل المباشر مع الله": أن يكون الدافع للإنفاق هو الله، وأن يكون المتلقي مجرد وسيط . التطبيق: عند التحويل البنكي لجهة خيرية، استحضر أنك تحول المال لله.

ثانياً: المفاهيم النفسية.

· مفهوم "العزة بالإنفاق": شعور المؤمن بأنه "مُقرِض لله" يمنحه عزة نفسية عجيبة، ويتحرر من الشعور بالذل أو التفضل على الآخرين .إنه يشعر أنه هو الطرف الأعلى في المعاملة، لأنه يتعامل مع الله.
· مفهوم "لذة الصفقة الرابحة": إدراك أن المضاعفة تصل إلى سبعمائة ضعف أو أكثر، وأن الأجر كريم، يحول الإنفاق إلى متعة نفسية .المؤمن يفرح بإنفاقه لأنه يرى نفسه رجل أعمال ناجحاً في تجارته مع الله.
· مفهوم "التحرر من عقدة الفقد": الخوف من فقدان المال هو الذي يسبب الشح .وعد الله بسداد القرض يحرر النفس من هذه العقدة، ويجعلها تنفق وهي مطمئنة.

ثالثاً: المفاهيم الفكرية.

· مفهوم "ربانية الاقتصاد": الآية تؤسس لمفهوم أن الاقتصاد الحقيقي ليس مجرد تداول مادي، بل هو تداول بين العبد وربه، قائم على الإقراض والمضاعفة الإلهية.
· مفهوم "تفاضل الأعمال بالكيف لا بالكم": "قرضاً حسناً" يدل على أن قيمة العمل ليست في حجمه فقط، بل في جودته وإخلاصه.

رابعاً: المفاهيم التربوية.

· مفهوم "التربية على حب العطاء": استخدام أسلوب "من ذا الذي" مع الأطفال في المنزل والمدرسة، لجعلهم يتسابقون إلى الخيرات بحب وشغف .التطبيق: أن يقول المعلم أو الأب: "من منكم يقرض الله قرضاً حسناً اليوم بمساعدة زميله أو التصدق من مصروفه؟".
· مفهوم "غرس الكرامة في العطاء": تربية الطفل على أنه عندما يعطي، فهو يتعامل مع الله، فلا يمنّ ولا يؤذي، لأن المتلقي ليس هو الطرف المقابل، بل الله.

خامساً: أبعاد الآية وآفاقها.

· البعد الإيماني: ترسيخ علاقة مباشرة بين العبد وربه في مجال المال.
· البعد الاقتصادي: فتح أفق "الاقتصاد الرباني" القائم على الإقراض والمضاعفة.
· البعد الاجتماعي: خلق مجتمع يقوم على التراحم والتكافل، خالٍ من المن والأذى.

سادساً: مفاهيم البناء والتنمية من الآية.

· مفهوم "تمويل التنمية بقروض حسنة": تشجيع الأغنياء على دعم المشاريع التنموية ليس كصدقة، بل كـ "قرض حسن" لله، ينتظرون سداده منه، مما يفتح باباً للإنفاق التنموي الضخم.
· مفهوم "بناء مجتمع المستثمرين في الله": مجتمع يتربى أفراده على أنهم "مقرضون لله"، هو مجتمع يبادر أفراده إلى حل مشاكل الفقر والجهل بأنفسهم، لأنهم يرون في كل مشكلة فرصة استثمار.

سابعاً: القيم التي تغرسها الآية في النفوس.

· قيمة الكرم السخي: العطاء من أحب الأموال.
· قيمة الإخلاص لله: في السر والعلن.
· قيمة الثقة بوعد الله: اليقين بالمضاعفة.
· قيمة العزة بالطاعة: الشعور بالشرف في الإنفاق.

ثامناً: كيف نحول هذه المفاهيم إلى طاقة لبناء الإنسان وصناعة التطور والنهضة في الحياة؟

يتم ذلك بتحويل الآية إلى "استثمار حضاري":

.1بناء الفرد المقرض:
· دفتر "قروض لله": يخصص الفرد دفتراً يسجل فيه كل إنفاق له على أنه "قرض لله"، ويكتب النية والتاريخ، ليكون له رصيداً يدخره ليوم الحاجة.
· مسابقة "أفضل قرض": في الأسرة، يعلن الوالدان عن مشكلة تحتاج مالا ً، ويسألون: "من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً لحل هذه المشكلة؟"، ليتبارى الأبناء في العطاء.
.2صناعة التطور والنهضة:
· إنشاء "بنك القروض الحسنة الإيماني": فكرة مصرف أو صندوق وقفي، يضع فيه الأغنياء أموالهم بنية أنها "قرض لله"، وتستخدم في تمويل المشاريع التنموية دون فوائد، شعاره: "أقرض الله ..يضاعف لك".
· في الإعلام: تحويل مفهوم "القرض الحسن" إلى برامج تلفزيونية، تعرض قصص أناس أنفقوا أموالهم في الخير، وكيف عوضهم الله أضعافاً في الدنيا قبل الآخرة، ليكون ذلك ترغيباً عملياً.

ختاماً، هذه الآية هي ذروة سنام العلاج الإلهي لداء البخل. إنها لا تأمر بالإنفاق فحسب، بل تنقلك إلى عالم آخر: عالم التجارة مع الله، والقروض المضمونة، والأرباح الخيالية. إنها تجعل منك شريكاً في تجارة لن تبور، وتدعوك لتترك المال الفاني، لتنال الأجر الكريم الباقي. فهل من مقرض؟

القسم الثالث

المبحث الأول
تفسير الآيتين (12-13) من سورة الحديد

)يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ(

حين يتحول الإيمان نوراً يسعى... وحين يتحول النفاق ظلمة وندماً
وحين يُضرب السور بين الرحمة والعذاب... مشهد تتجلى فيه حقيقة الكسب والخسران
رحلة في أعماق العدالة الإلهية والتمييز النهائي والمصير المحتوم

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من سورة الحديد ومن جدلية الإيمان والنفاق

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل قبل أن ندخل إلى رحاب هاتين الآيتين الكريمتين. إنك الآن أمام مشهد من أهول مشاهد يوم القيامة وأبلغها أثراً في النفس. إنه المشهد الذي ينتقل بك من غبار المعارك الأرضية وزيف الأقوال إلى نور المحشر حيث تكشف الحقائق. لقد مضت بنا سورة الحديد تفيض بالحديث عن الإيمان والإنفاق والجهاد والصدق، ورسمت صوراً للمنافقين وهم يخادعون الله ويخذلون المؤمنين. وها نحن الآن في ذروة المشهد، حيث تتحول تلك الحقائق الخفية إلى مرئيات لا تقبل التأويل: إيمان المؤمنين يتحول إلى نور حسي يسعى أمامهم، ونفاق المنافقين يتحول إلى ظلام دامس يطبق عليهم.

لقد جاءت الآيتان بعد أن وجهت السورة الخطاب للمؤمنين بقوله: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، وهو أسلوب قرآني بديع يجعل المؤمن في الدنيا يستحضر ذلك اليوم وكأنه يراه، فيرتجف قلبه شوقاً أو خوفاً. إن الآيتين ترسمان لوحتين متقابلتين: لوحة النور والرحمة والبشرى للمؤمنين والمؤمنات، ولوحة الظلمة والحسرة والتوسل للمنافقين والمنافقات. بين اللوحتين سور عظيم له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. إنه الفصل النهائي الذي لا رجعة فيه. إنها سنة إلهية ماضية: أن الباطل مهما طال ليله فلا بد أن ينقشع، وأن النور ولو خفي في الدنيا فلا بد أن يسطع.

وهكذا تنتقل بنا السورة من الحث على المسابقة إلى الخيرات في الدنيا، إلى عرض نتائج تلك المسابقة في الآخرة. إنها رحلة في أعماق النفس البشرية لترينا أن كل خاطر يخطر، وكل عمل يُعمل، وكل نية تُخفى، ستصبح يوماً ما نوراً أو ظلمة، رحمةً أو عذاباً.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيتين ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هاتين الآيتين. لا تمر عليها مروراً عابراً، بل تأملها، واجعلها تلامس قلبك وعقلك، فهي تختزل معاني عميقة:

.1تجسيد الأعمال والحقائق: الإيمان لم يعد مجرد اعتقاد قلبي، بل صار نوراً حسياً يسعى بين يدي صاحبه .والنفاق تحول إلى ظلمة مطبقة تحيط بالمنافقين .وهذا يعلمنا أن البواطن لا بد أن تصير ظواهر يوم القيامة.
.2تكريم المؤمنات: النص أفرد المؤمنات بالذكر في البشرى والنور، مما يعكس مكانة المرأة في الإسلا م وأن إيمانها وعملها ليسا بأقل من إيمان الرجل.
.3فضيحة المنافقين وطلبهم النور: انقلاب دراماتيكي في المشهد، حيث يتحول المستكبرون في الدنيا إلى متسولين للنور من المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم.
.4الجواب الصاعق:) ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا (يحمل في طياته التهكم والعدل الإلهي؛ فلا نور بلا إيمان، ولا إيمان بلا عمل، وقد فات الأوان.
.5السور العظيم: رمز الفصل النهائي بين الفريقين .باطنه رحمة للمؤمنين، وظاهره عذاب للمنافقين . فيه باب هو لحظة أمل خادعة تزيد الحسرة.
.6إثبات أن الفوز الحقيقي هو فوز الآخرة، وما عداه وهم زائل.

مقاصد الآيتين وأهدافهما:

· تثبيت المؤمنين وتشجيعهم: بأن نورهم ينتظرهم، وأن بشراهم آتية لا محالة.
· تحذير المنافقين والمترددين: أن النفاق وإن خفي في الدنيا فسيُفضح، وأن لحظة الكشف قادمة.
· ترسيخ عقيدة البعث والجزاء: بتصوير مشاهد حية تجعل الإيمان باليوم الآخر قوة دافعة للعمل.

· دعوة الأمة للصدق: فالنور لا يُمنح يوم القيامة، بل يُكتسب اليوم بالصدق مع الله.

المحور الأول

}يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ{

تجسيد الإيمان في يوم القيامة... حين يصبح الضمير ضياءً
تشريح الظاهرة الإيمانية... كيف يتحول الإيمان إلى نور يسعى؟

وقفة مع الظرف {يَوْمَ}: تعليق المشهد بلحظة مهولة

دعني أقف بك عند قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى}. "يوم" ظرف زمان منصوب، متعلق بفعل محذوف تقديره "اذكر" أو "يُقال لهم"، وهو من أساليب القرآن في إبراز أهمية المشهد. إنه ليس يوماً عادياً، بل هو اليوم الذي يجعل الولدان شيباً. والخطاب في {تَرَى} يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أولا ً، أو لكل من له أهلية الرؤية، فيشمل القارئ والمستمع. وكأن الآية تنقلك يا من تقرأ القرآن الآن إلى ذلك الموقف، لترى بعين قلبك ما سيحدث، فلا تكون غافلا ً عنه. {يَوْمَ تَرَى}... تفتح عينيك فترى النور يسعى، وترى الظلمة تطبق. يا له من أسلوب يجعل الغيب كأنه شهادة!

}الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ{: تكريم إلهي بذكر النساء صراحة

تأمل – رعاك الله – أن الآية لم تقل: "يوم ترى المؤمنين" فحسب، بل قالت: {الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}. هذا عطف صريح يقطع بأن للنساء المؤمنات شأناً عظيماً في ذلك اليوم. في وقت تظن فيه بعض النفوس أن ساحات الجهاد والإنفاق والمسابقة مقصورة على الرجال، يأتي البيان الإلهي ليُفرد النساء بـ الذكر في هذا المشهد المهيب. إن المرأة المؤمنة لها نورها الذي يسعى، ولها بشراها الخاصة، ولن تكون تبعاً مهملا ً. هذا هو التكريم الذي يمحو أي شعور بالنقص، ويدفع المرأة إلى أن تكون صاحبة همة في اكتساب النور. إن الإيمان والعمل الصالح لا يعرفان تفرقة بين رجل وامرأة، والجزاء من جنس العمل.

}يَسْعَىٰ نُورُهُم{: الإيمان يتحول إلى طاقة وحركة

انظر إلى كلمة {يَسْعَى}. إنها فعل مضارع يدل على الحركة السريعة والجهد. النور لا يقف، بل يسعى ويسرع، كأنه كائن حي يرشدهم إلى طريق الجنة. هذا السعي هو انعكاس لسعيهم في الدنيا إلى الخيرات، كما قال سبحانه: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}. لقد سعوا للآخرة في الدنيا بأقدامهم وقلوبهم وأموالهم، فجاءتهم ثمرة سعيهم نوراً يسعى بين أيديهم في أرض المحشر. إنه قانون إلهي: الجزاء من جنس العمل. فمن سعى في ظلمة الدنيا بـ الطاعة، سعى له نوره في ظلمة الآخرة.

}بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ{: إحاطة النور ودلالات الجهات

لاحظ التوزيع الجغرافي للنور: إنه {بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} أي من أمامهم، فهو يهديهم الصراط ويكشف لهم الطريق، فلا يخافون ما يستقبلونه. وهو {بِأَيْمَانِهِمْ} أي في أيديهم اليمنى، أو من جهة أيمانهم. وفي هذا إشارة لطيفة إلى أنهم أوتوا صحائف أعمالهم بأيمانهم، فهي منبع النور من تلك الجهة. النور إذاً يحيط بهم من الأمام، وينبع من صحائفهم التي بأيمانهم. إنه أمان من الخوف، وأمان من العذاب. تخيل – يا صاحبي – ذلك الموقف وقد أظلم على الخلائق، وإذا بهذا المؤمن وهذا المؤمنة يمشون في نورهم مطمئنين، بينما غيرهم يتخبط في الظلمات! إنه الفرق بين من جعل الله له نوراً في الدنيا بالقرآن والإيمان، ومن كان في ظلمة الكفر والنفاق.

المحور الثاني

}بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{

لحظة البشرى في موقف الرهبة... حين يفرح المؤمنون في يوم الحزن الأكبر

تحليل النداء الإلهي... وما فيه من تثبيت وطمأنينة

{بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ}: نداء الفرح في يوم الفزع

ها هو النداء يهتف في أرجاء المحشر، والخلائق في فزع عظيم: {بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ}. البشارة هي الخبر السار الذي يفيض على القلب فينشرح الصدر، ويظهر أثره على الوجه. "بشراكم" مبتدأ، و"جنات" خبر، وهو أسلوب يفيد القصر: أي لا بشرى حقيقية لكم اليوم إلا هذه، أو أن أعظم بشرى هي هذه. يُنادى عليهم بهذا النداء العلني تكريماً لهم، فتسمعه الملائكة والناس، فيُعرف بذلك شأنهم. لقد كانوا في الدنيا يسمعون كلمات التشكيك والتثبيط، أما اليوم فيسمعون البشرى من رب العالمين. يا له من شرف! يا له من فرح ينسي كل تعب!

{جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}: وصف النعيم المطلق

البشرى ليست مجرد نجاة، بل هي جنات، والجنات اسم جامع لكل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ووصفها بأن الأنهار تجري من تحتها يبعث صورة الانطلاق والحركة الدائمة و العطاء المتجدد. ثم قيد ذلك بالخلود {خَالِدِينَ فِيهَا} فقطع عنهم خوف الموت أو انقطاع النعيم. لقد كانوا في الدنيا في نعم زائلة، يخافون عليها الفناء، أما هنا فالخلود الأبدي. إنها بشرى تُنسي مرارة الدنيا، بل تجعلهم يحمدون الله على ما ابتلاهم به في الدنيا لأنه أوصلهم إلى هذا المقام.

{ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}: تعظيم إلهي للمشهد

تأمل ختام هذا الجزء من الآية: {ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}. اسم الإشارة {ذَٰلِكَ} للبعيد، لتعظيم المشار إليه. وضمير الفصل {هُوَ} للتوكيد والحصر، كأنه قيل: لا فوز إلا هذا، وما عداه من فوز الدنيا فليس بشيء. إنهم كانوا في الدنيا يتنافسون على فوز في تجارة أو منصب أو معركة، فيُقال لهم اليوم: هذا هو الفوز الحقيقي الذي كان يستحق كل تلك التضحيات. هذه الكلمة وحدها كفيلة بأن تبعث في قلب المؤمن السكينة واليقين بأن صفقته مع الله لن تبور.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية الأولى وشطر البشرى:

· الرسالة الفكرية: النور الإيماني ثمرة طبيعية للسعي في الدنيا، فلا تتوقع نوراً بلا سعي.
· الرسالة النفسية: المؤمن والمؤمنة يعيشان في الدنيا وفي قلبهما هذه البشرى، فلا ترهبهما صعوبات الطريق.
· الرسالة التربوية: ازرع في النشء أن التكريم الحقيقي هو تكريم الآخرة، لا تكريم الدنيا الزائل.

المحور الثالث

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ}

الوجه الآخر للمشهد... حين يتحول المستكبر إلى متسول
تشريح نفسية المنافقين في لحظة الكشف

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ}: ظهور الخفاء وفضيحة السرائر

بعد أن انتهى مشهد النور والبشرى، ينتقل السياق مباشرة إلى المشهد المقابل. إنه {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ}. مرة أخرى، يذكر الله المنافقات صراحة، ولكن هنا ليس تكريماً، بل فضيحة وشناراً. إن النساء المنافقات لهن نصيبهن من العذاب كما كان لهن نصيبهن من الكيد في الدنيا. لقد كانوا في الدنيا مستورين، يصلون مع المؤمنين، ويتكلمون بألسنتهم، ولكن قلوبهم مريضة. اليوم انكشف الغطاء، وظهر النفاق في صورة ظلمة حسية لا يمكن إخفاؤها. بينما يسعى نور المؤمنين، ينطفئ نور المنافقين فجأة ويُتركون في ظلام دامس.

{لِلَّذِينَ آمَنُوا}: التوجه إلى من كانوا يستهزئون بهم

انظر إلى عظمة المشهد: هؤلاء المنافقون، الذين كانوا في الدنيا ينظرون إلى المؤمنين نظرة استعلاء، ويصفونهم بالسذاجة لأنهم ينفقون ويجاهدون، هاهم الآن يتوجهون إليهم. لم يتوجهوا إلى الأنبياء

مباشرة، بل إلى المؤمنين العاديين، لأنهم يرون النور يسعى بين أيديهم. إنه انقلاب كامل للموازين. بالأ مس كانوا سادة المكر والخداع، واليوم صاروا تابعين متسولين.

}انظُرُونا نقتَبِسْ مِن نورِكمْ{: استجداء النور بعد فوات الأوان

"انظرونا" أي انتظرونا، أو التفتوا إلينا نظرة رحمة .إنها كلمة الملهوف الذي يرى طريق النجاة يسير أمامه ولا يستطيع اللحاق به .ثم قالوا:} نقتَبِسْ مِن نورِكمْ{، من القبس وهو الشعلة المأخوذة من النار للإضاءة .إنهم لا يطلبون الجنة مباشرة، بل يطلبون شيئاً من النور ليمشوا فيه خطوات .لكن هيهات! نور المؤمنين ليس ناراً تقتبس، بل هو منحة إلهية خاصة بهم، نابعة من إيمانهم، لا يمكن أن تنتقل إلى غيرهم .إنهم يطلبون ثمرة الإيمان وهم لم يزرعوا شجرته .هذا هو منطق الآخرة: لا هبة بلا سبب ، ولا نور بلا إيمان.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المشهد:

. الرسالة الفكرية: النور يوم القيامة ملكية خاصة لا تُوهب ولا تُسلب، فلا تغتر بمن يمنيك بالنجاة بغير عمل.
. الرسالة النفسية: المنافق يعيش في الدنيا آمناً بمكره، لكنه في الآخرة سيكون مفضوحاً ذليلا ً، فليتعظ من هذا المشهد.
. الرسالة التربوية: درب نفسك وأبناءك على ألا تكونوا انتهازيين، تريدون الجنة بلا عمل، والنور بلا إيمان.

المحور الرابع

}قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكمْ فَالتَمِسُوا نُورًا{

الجواب الصاعق... والمنطق العدلي الإلهي
حين يتهكم بهم المولى كما كانوا يستهزئون في الدنيا

}قِيلَ{: المبني للمجهول وهَيبة الرد

تأمل كيف أن القائل غير مذكور: {قِيلَ}. هذا البناء للمجهول يضفي على الرد قوة وهيبة. قد تكون الم لائكة هي القائلة بأمر الله، أو هو نداء إلهي مباشر. والأهم أنه حكم قضائي مبرم، لا استئناف بعده و لا مراجعة. إنه ليس رداً من بشر يمكن أن يشفع أو يلين، بل هو كلمة فصل من السماء.

}ارْجِعُوا وَرَاءَكمْ{: العودة إلى نقطة البداية المستحيلة

"ارجعوا" أي عودوا إلى الدنيا التي جئتم منها ."وراءكم" أي إلى الجهة التي خلفكم .إنه أمر تعجيزي بكل ما تحمله الكلمة من معنى .فالدنيا قد طويت، والميدان الذي كان يمكن فيه اكتساب النور قد أغلق .لقد أُعطيتم العمر الكافي، وأُرسلت لكم الرسل، وأُنزلت الكتب، ولكنكم أبيتم إلا النفاق والكفر .الآ ن تطلبون النور في غير زمانه ومكانه؟ ارجعوا إن استطعتم! إنه رد قاطع يحمل في طياته قمة العدل الإلهي.

}فَالتَمِسُوا نُورًا{: التهكم المرير الذي هو عين العدل

لاحظ كلمة {فَالتَمِسُوا}. الالتماس هو الطلب باجتهاد وجهد. والمعنى: اذهبوا فابحثوا لأنفسكم عن نور بأعمالكم، كما فعل المؤمنون في الدنيا. لكن هذا القول إنما هو على سبيل التهكم والتوبيخ، لأنهم يعلمون أن لا سبيل إلى ذلك. لقد كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون من سعيهم للآخرة، فجاءهم اليوم جواب السخرية: "اذهبوا فالتمسوا". وهذا من باب الجزاء من جنس العمل. إنه درس إلهي رهيب: أن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه أخذة رابية، فيرد عليه استهزاءه بمثله.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية:

. الرسالة الفكرية: وقت اكتساب النور هو الدنيا، واليوم هو يوم الجزاء لا يوم العمل.
. الرسالة النفسية: احذر أن يكون عملك في الدنيا نفاقاً، فيكون جزاؤك في الآخرة تهكماً.

· الرسالة التربوية: علم الأبناء قيمة الوقت، وأن العمر مزرعة للآخرة، فمن فرط في الزرع لن يحصد يوم الحصاد.

المحور الخامس

}فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{

السور العظيم... رمز الفصل النهائي والعدالة المطلقة
حين يصبح الباب لحظة أمل خادع تزيد الحسرة

}فَضُرِبَ{: سرعة الفصل والحسم الإلهي

الفاء هنا للتعقيب السريع. ما إن سمعوا الرد القاسي: {ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا}، حتى ضُرب سور عظيم بين الفريقين. {ضُرِبَ} فعل مبني للمجهول، يُشعرك بأن قوة هائلة قد أوجدت هذا السور في لمح البصر. إنه ليس مجرد جدار، بل هو آية من آيات الله تفصل بين أهل الجنة وأهل النار. لا مفاوضة ولا شفاعة، لقد حسم الأمر.

}بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ{: السور والباب ...دلالات نفسية عميقة

السور في اللغة هو الجدار العظيم المحيط بالمدينة لحمايتها. وهو هنا يفيد أمرين: أمان لمن في الداخل (المؤمنين) حيث إن السور يحميهم ويحفظ رحمتهم، ومانع هائل بين الفريقين، فلا يمكن للمنافقين الوصول إلى المؤمنين. لكن العجيب أن للسور {بَابٌ}! وجود الباب في هذا السياق عجيب ومؤثر. إنه يفتح نافذة أمل خادعة للمنافقين. إنهم يرون الباب، ربما يرونه مفتوحاً لوهلة، فيهرعون إليه زرافات. إنهم يظنون أنه طريق العبور إلى النور والرحمة. ولكن... حين يقتربون، يُغلق الباب في وجوههم! هذه هي ذروة العذاب النفسي؛ أن ترى الرحمة قريبة، أن تشم رائحة الجنة، ثم تُحرم منها وتُطرد إلى العذاب. لقد عاشوا في الدنيا على الحدود بين الإيمان والكفر، وكانوا يأتون المساجد ويجالسون المؤمنين كأنهم منهم، أما اليوم فهذا باب السور... نقطة تماس ثم افتراق أبدي.

}بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{: العدالة الإلهية في أبهى صورها

هنا تصل الصورة إلى قمة الإبداع القرآني. الباطن: وهو الجهة الداخلية من السور، مما يلي المؤمنين، فيه الرحمة. إنها الجنة، السكينة، الأمان، النور، الرضوان. والظاهر: وهو الجهة الخارجية من السور مما يلي المنافقين، {مِن قِبَلِهِ} أي من أمامه ومن جهته، العذاب. إنه جهنم، الخزي، الظلمة، الحسرة. يقف الفريقان متجاورين، لا يفصل بينهما إلا هذا السور. المؤمنون في باطن الرحمة محفوظون، والمنافقون في ظاهر العذاب معذبون. لقد تحول الإيمان الذي كان باطنه نوراً في القلب، إلى رحمة باطنة داخلة. وتحول النفاق الذي كان ظاهره في الدنيا إسلاماً وباطنه كفراً، إلى عذاب ظاهر مكشوف للعيان. {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ...} فيُقال لهم: هذا جزاء ما كنتم تكسبون. إنه مشهد يزلزل القلوب، ويجعل المؤمن يزداد شكراً، والمنافق يزداد حسرة.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية:

· الرسالة الفكرية: لا يمكن الجمع بين النور والظلمة، ولا بين الرحمة والعذاب .الحد الفاصل بينهما هو الإيمان الحقيقي.
· الرسالة النفسية: لا تغتر باللحظات التي تكون فيها قريباً من أهل الإيمان ظاهرياً وقلبك بعيد، فسيأتي يوم يُضرب فيه السور ويُغلق الباب.
· الرسالة التربوية: ربّوا أبناءكم على أن يكون باطنهم كظاهرهم، وألا يكونوا على الحدود بين الخير و الشر، فالسور سيُغلق في النهاية.

المحور السادس

ما تدعونا إليه الآيتان في الواقع المعاصر

أولا ً: فهم أن الصراع بين الحق والباطل ينتهي بالفصل النهائي

الآيتان تدعواننا إلى أن ننظر إلى صراع الإيمان والنفاق في عصرنا بعين الآخرة. إن المنافقين اليوم قد يلبسون ثوب الإيمان، ويتكلمون بألسنة المسلمين، وربما يجلسون في مواقع القرار، لكن سنتهم أن نورهم سينطفئ، وأنهم سيتسولون النور من المؤمنين. هذا الفهم يمنح المؤمن صبراً استراتيجياً، فلا ينهار أمام زيف المنافقين ونجاحهم الظاهري المؤقت.

ثانياً: التعرف على آلية كشف النفاق في الدنيا والآخرة

الآيتان تعلماننا أن للنفاق علامات في الدنيا (إخلاف الوعد، خيانة الأمانة، الكذب، التكاسل عن الصلاة) وأنه في الآخرة سيكون له كشف أعظم. وهذا يدفعنا لمراقبة أنفسنا ومجتمعاتنا، لا بقصد الفضح، بل بقصد الإصلاح والتحذير.

ثالثاً: تحذير الأمة من ظاهرة النفاق الجماعي

إن ذكر {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ} يحذر من ظاهرة النفاق المؤسسي والجماعي. فليس النفاق فردياً فقط، بل قد يكون ظاهرة اجتماعية تنتشر بين الرجال والنساء. والأمة التي ينتشر فيها النفاق تتعرض لخطر الفشل والهزيمة، لأن وحدتها الظاهرية مخدوعة من الداخل. الآيتان تدعوان إلى تحصين الأمة بـ الصدق والشفافية.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين

المفهوم الفكري: النور والظلمة حقيقتان لا استعارتان

الآيتان ترسخان مفهوماً فكرياً خطيراً: أن الإيمان والنفاق ليسا مجرد مصطلحات، بل حقيقتان موضوعيتان تتحولان يوم القيامة إلى نور وظلمة. هذه النقلة من المجاز إلى الحقيقة تجعل الإيمان ثقيلا ً في ميزان العاقل، وتجعل النفاق جريمة كبرى.

المفهوم النفسي: الشعور بالأمان والطمأنينة للمؤمنين

حين تقرأ الآية وأنت مؤمن، تشعر بأمان عجيب. أنت تعلم أن لك نوراً ينتظرك، وأن البشرى آتية. هذا الشعور يحررك من الخوف من المستقبل، ومن ضغط الواقع، ويجعلك تعيش في سلام نفسي.

المفهوم التربوي: التربية على مبدأ "لكل عمل نتيجة حسية"

الآيتان تبنيان في النفس مبدأ تربوياً عظيماً: أن كل عمل، مهما كان خفياً، سيتحول إلى أثر حسي يُرى يوم القيامة. هذه التربية تجعل الإنسان يراقب نفسه، لأنها تجعل الغيب ماثلا ً أمام عينيه.

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هاتين الآيتين؟

الإرادة الأولى: أن نطلب النور من منبعه الآن

الله يريد منا أن نتدبر قوله {ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} فنفهم أن وقت التماس النور هو الدنيا. يريد أن نسرع إلى الإيمان والعمل الصالح قبل أن يضرب السور ويغلق الباب. يريد أن نعيش اللحظة وكأننا نسمع البشرى: {بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ}.

الإرادة الثانية: أن نحذر النفاق بكل صوره

الله يريد منا أن نفحص قلوبنا وأعمالنا باستمرار، لئلا نكون من المنافقين والمنافقات الذين يطلبون

النور فلا يجدونه. يريد أن نكون صادقين في إيماننا، مخلصين في نياتنا.

الإرادة الثالثة: أن تُعلي من شأن المؤمنات

الله يريد أن تدرك الأمة أن النساء شقائق الرجال في التكريم والمسؤولية، وأن إيمانهن وعملهن لهما نفس الأجر ونفس النور. يريد منا أن نمحو أي ظلم أو تهميش للمرأة في ميدان الطاعة والمسابقة.

المحور التاسع

أبعاد الآيتين وآفاقهما

البعد الغيبي: إثبات اليوم الآخر بالمشاهد الحسية

الآيتان تنقلاننا إلى بُعد غيبي لا نراه الآن، لكنهما تصورانه تصويراً يجعلنا نكاد نراه. هذا يُرسخ الإيمان باليوم الآخر ويجعله قوة محركة للسلوك.

البعد الأخلاقي: النور ثمرة الصدق، والظلمة ثمرة النفاق

الآيتان تقدمان بُعداً أخلاقياً عميقاً: أن الأخلاق ليست مجرد قيم نظرية، بل هي أسباب للنجاة. الصدق يولد النور، والكذب والنفاق يولدان الظلمة.

البعد الحضاري: بناء مجتمع النور

أمة تقرأ هذه الآية وتعمل بها، ستسعى لبناء مجتمع من النور، مجتمع الصدق والشفافية والعمل، مجتمع لا مكان فيه للنفاق، لأن أبناءه يعلمون أن النفاق ظلمة يوم القيامة.

المحور العاشر

تحويل الآيتين إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الذي يسعى لنوره بنفسه

الآيتان تبنيان إنساناً مستقلا ً في اكتساب نوره، لا يتكل على غيره. إنه إنسان يفهم أن {نقتَبِسْ مِن نورِكمْ} طلب لا يُستجاب، فيجتهد ليكون نوره ذاتياً من إيمانه وعمله.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يحصن نفسه من النفاق

مجتمع يتربى على هذه الآيات سيكون مجتمعاً يكافح النفاق في جذوره، في التربية، في الإعلام، في الاقتصاد، لأنه يدرك خطورة النفاق وعاقبته.

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على النور الإيماني

الحضارة التي تقوم على الإيمان ستكون حضارة نور، تملك رؤية واضحة (بين أيديهم) وكتاباً ميموناً (بأيمانهم). هي حضارة آمنة مطمئنة، لا تملكها ظلمات الشكوك أو النفاق.

المحور الحادي عشر

كيف تحول الآيتين إلى واقع معاش؟

الخطوة الأولى: عش البشرى الآن

استشعر في كل طاعة تقوم بها أنك تزيد من نورك يوم القيامة. اجعل خيالك يرسم مشهد نورك يسعى بين يديك، فتهون عليك مشاق الدنيا.

الخطوة الثانية: حاسب نفسك... هل من صفات المنافقين فيك شيء؟

اسأل نفسك بصدق: هل أصدق في حديثي؟ هل أفي بوعدي؟ هل أرائي في عبادتي؟ إن وجدت شيئاً من ذلك، فتب وأصلح. لا تنتظر حتى يُقال لك {ارْجِعُوا}.

الخطوة الثالثة: كن عبداً صالحاً في السر والعلن

النور يوم القيامة يحتاج إلى صدق في السر. تعاهد مع الله على أعمال خفية لا يعلمها إلا هو، فهي التي ستكون لك نوراً خاصاً في ذلك اليوم.

خاتمة: النور الذي لا ينطفئ... والسور الذي لا يُخترق

أيها القارئ الكريم... لقد انتهت رحلتنا مع هاتين الآيتين الكريمتين، لكنهما لم ولن تنتهيا من حياة من تدبرهما. لقد رأينا فيهما كيف يتحول الإيمان إلى نور حسي، وكيف يتحول النفاق إلى ظلمة وخزي. رأينا البشرى تتنزل على المؤمنين والمؤمنات في أرض المحشر، ورأينا المنافقين والمنافقات يتسولون قبساً من النور فيُطردون. ورأينا السور العظيم يُضرب، فيصبح الفصل أبدياً بين الرحمة والعذاب.

والسؤال الآن: أين أنت من هذا المشهد؟ هل أنت ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وتتلى عليهم البشرى؟ أم أنك تخاف أن تكون ممن ينطفئ نورهم، فيقولون {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ}؟

اعلم – يا رعاك الله – أن باب السور لم يُغلق بعد. ما دمت في الدنيا، فالباب مفتوح، والنور ممكن اكتسابه. {فَالْتَمِسُوا نُورًا} ليس تهكماً الآن، بل دعوة حقيقية. التمس النور من كتاب الله، من الصلاة، من الصدقة، من الصحبة الصالحة. اغتنم الفرصة ما دام وقت الالتماس قائماً، قبل أن يُضرب السور، ويُقال للغافلين: {ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا}.

المبحث الثاني

تفسير الآيتين (14-15) من سورة الحديد

(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

حين يصرخ المنافقون من وراء السور... وحين يكشف المؤمنون أسباب الهلاك
وحين تغلق أبواب الفدية إلى الأبد... وتكون النار هي المولى والمصير
رحلة في أعماق النفس المنافقة وأسباب سقوطها والعدالة الإلهية في فصل القضاء

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من سورة الحديد ومن جدلية النداء والحوار بعد السور

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل قبل أن تدخل إلى رحاب هاتين الآيتين الكريمتين. إنك الآن أمام استكمال للمشهد المهيب الذي بدأناه في الآيتين السابقتين. لقد رأينا كيف أُعطي المؤمنون نورهم ، وكيف سعى بين أيديهم وبأيمانهم، وكيف نالوا البشرى العظيمة بدخول الجنات. ورأينا كيف انطفأ نور المنافقين، وكيف وقفوا في ظلمة دامسة يتسولون النور من المؤمنين قائلين: {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ}. ورأينا السور العظيم يُضرب بين الفريقين، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

والآن... يرفع المنافقون أصواتهم من وراء السور. إنهم ينادون المؤمنين. إنه نداء استجداء، نداء من باطن الظلمة إلى باطن الرحمة. إنهم يحاولون عبور السور بالصوت بعد أن عجزوا عن عبوره بالجسم. وهذا النداء ليس مجرد توسل، بل هو محاولة أخيرة لاستثارة شفقة المؤمنين، لعله باب أمل بعد أن أغلق الباب.

والآيتان تكشفان لنا حواراً عميقاً، يمثل تشريحاً كاملاً ً للنفس المنافقة وأسباب هلاكها، ثم يأتي الحكم النهائي الذي لا مرد له. إنها آيتان تبنيان في قلب المؤمن وعياً كاملاً ً بطبيعة النفاق وأسبابه وعواقبه، وفي الوقت نفسه تقدمان تحذيراً رهيباً لكل من تسول له نفسه أن يسير في طريق النفاق.

وهكذا تنتقل السورة من مشهد السور والفصل، إلى مشهد الحوار الأخير بين الفريقين، ثم إلى مشهد القضاء النهائي. إنها رحلة تبدأ من نور المؤمنين، وتمر بظلمة المنافقين، ثم تنتهي إلى حيث تستقر كل نفس في مصيرها الأبدي.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيتين ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هاتين الآيتين. لا تمر عليها مروراً عابراً، بل تأملها، واجعلها تلامس قلبك وعقلك:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1.حوار السور: آخر محاولات المنافقين للنجاة.
{يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ}... إنه نداء من وراء السور، محاولة يائسة لاستثارة ذكريات الصحبة الدنيوية، علها تشفع لهم عند المؤمنين.
2.اعتراف المؤمنين بصحبتهم، ثم كشف أسباب الهلاك.
{قَالُوا بَلَى}... يعترف المؤمنون أنهم كانوا معهم في الدنيا، لكنهم سرعان ما يكشفون الأسباب الحقيقية التي أوصلتهم إلى هذا المصير.
3.تشريح النفس المنافقة في خمس جرائم كبرى.
{وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}... هذه قائمة الاتهام الإلهية الموجزة التي تفسر كل ما وصلوا إليه.
4.إغلاق باب الفدية إلى الأبد.
{فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ}... يوم القيامة ليس سوقاً للصفقات، ولا محكمة للاستئناف. لقد أغلق باب التوبة، وسقطت كل الأوراق.
5.المصير المحتوم: النار هي المولى وبئس المصير.
{مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}... النار ليست مجرد عقاب، بل هي "مولى" أي ناصر وملجأ، في تهكم مرير يناسب حالهم.

مقاصد الآيتين وأهدافهما:

1.كشف حقيقة النفاق وأسبابه: لتحذير المؤمنين من السقوط في هذه الأسباب.
2.بيان أن صحبة المؤمنين شكلية لا تنفع: فالعبرة بالبواطن لا بالظواهر.
3.تثبيت المؤمنين: بأنهم كانوا على الحق، وأن عاقبة النفاق وخيمة.
4.بيان سنة إلهية: أن الفدية لا تقبل في الآخرة، فلا ملجأ إلا العمل الصالح.
5.بناء وعي الأمة بخطر النفاق النفسي: الذي يبدأ بفتنة النفس وينتهي بالاغترار بالله.

المحور الأول

{يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ}

حين يخترق الصوت السور... آخر محاولة للنجاة من وراء الجدار
نداء الذكرى والصحبة... هل تنفع صحبة الدنيا في ذلك اليوم؟

وقفة مع الأسلوب: {يُنَادُونَهُمْ}... صوت من وراء السور

دعني أقف بك عند هذه الكلمة الافتتاحية: {يُنَادُونَهُمْ}. الفعل "ينادي" فيه معنى رفع الصوت وبذل الجهد في النداء. إنه ليس مجرد كلام هادئ، بل هو نداء فيه توسل وفيه رجاء وفيه استغاثة. و المنافقون هم الذين ينادون، والمؤمنون هم المنادَوْن. والنداء يخترق السور. إنهم لا يستطيعون الوصول إلى المؤمنين بأجسامهم، فحاولوا الوصول إليهم بأصواتهم. لقد تحولوا من مستكبرين في الدنيا إلى متوسلين في الآخرة. و"هم" في {يُنَادُونَهُمْ} تعود على المؤمنين، وهم في باطن السور في الرحمة. إن المنافقين يرونهم من بعيد، في نورهم وفي نعيمهم، فيصرخون بأعلى أصواتهم.

وتأمل المضارع {يُنَادُونَهُمْ} الذي يفيد الاستمرار والتجدد. إنهم يكررون النداء مرة بعد مرة، علّ أحداً يلتفت، علّ باباً يفتح، علّ رحمة تنزل. ولكن السور قائم، والباب مغلق، والوقت قد فات. إنه مشهد

النداء الأخير، الذي لا إجابة له إلا كشف الحقيقة المرة.

{أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ}: استثارة ذكريات الصحبة الدنيوية

هذا هو نص النداء: {أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ}. إنه سؤال استفهامي، ولكنه في الحقيقة توسل. إنهم لا يسألون عن معلومة، بل يستعطفون. "ألم نكن معكم؟" أي في الدنيا. ألم نصلّ معكم؟ ألم نحج معكم؟ ألم نجاهد معكم؟ ألم نجلس في مجالسكم؟ ألم نكن نأكل معكم ونشرب معكم؟ إنهم يستحضرون كل ذكريات الصحبة الدنيوية الظاهرية، لعلها تشفع لهم. إنهم يقولون: "يا معشر المؤمنين، لقد جمعتنا بكم الدنيا، وجمعتنا المساجد، وجمعتنا الأعمال الظاهرة... ألا تنفعنا هذه الصحبة اليوم؟".

وهنا تكمن المأساة! لقد حسبوا أن صحبة المؤمنين في الظاهر تكفي للنجاة. لقد ظنوا أن مجرد الوجود الجسدي مع المؤمنين يمنحهم النور. ولكن هيهات! فالنجاة تحتاج إلى إيمان حقيقي، لا إلى جوار مكاني. {أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ}... سؤال يفيض حسرة وألماً، ويكشف عن سوء فهم عميق لحقيقة الدين.

الدلالة النفسية: استثارة ذكريات الصحبة

هذا النداء يكشف عن حالة نفسية عميقة للمنافقين. إنهم يتمسكون بأي خيط للنجاة، حتى لو كان مجرد ذكريات صحبة. إنهم يشعرون بالخيبة والضياع، فيحاولون استثارة شفقة المؤمنين بتذكيرهم بأيام الدنيا. هذا هو حال كل من بنى علاقته بالدين على المظهر لا على الحقيقة. يأتي يوم تنكشف فيه الحقائق، فلا تنفع فيه شفاعة شافع، ولا ذكريات ماضٍ زائف.

المهارة الحياتية: التمييز بين الصحبة الشكلية والصحبة الحقيقية

من هذه الآية نتعلم مهارة حياتية أساسية: أن الصحبة الحقيقية هي التي تقوم على الإيمان والصدق، لا على مجرد الوجود المكاني. كم من إنسان يجالس الصالحين ولكنه في الحقيقة بعيد عنهم! علّم نفسك وأبناءك أن تكون صحبتك للصالحين صحبة قلبية إيمانية، لا صحبة جسدية فقط. اسأل نفسك: هل أنا مع المؤمنين بقلبي كما أنا معهم بجسدي؟

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

- الرسالة الفكرية: مجرد الوجود مع المؤمنين لا ينفع يوم القيامة. العبرة بالإيمان الحقيقي.
- الرسالة النفسية: لا تغتر بصحبتك الظاهرية للصالحين، ففي الآخرة تنكشف الحقائق.
- الرسالة التربوية: ربّ أبناءك على الصدق في الانتماء، لا على الانتماء الشكلي.
- المهارة المعرفية: تعلم كيف تفرق بين علامات الصحبة الصادقة والصحبة المنافقة في الدنيا.

المحور الثاني

{قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ}

اعتراف المؤمنين بالصحبة... وبداية كشف أسباب الهلاك
الجريمة الأولى: فتنة النفس... حين يخون الإنسان نفسه قبل أن يخونه أحد

{قَالُوا بَلَىٰ}: اعتراف المؤمنين ثم تفنيد الأسباب

والآن يأتي الرد من المؤمنين. {قَالُوا} أي المؤمنون. إنهم يردون على المنافقين من داخل السور، من باطن الرحمة. وكلمة {بَلَىٰ} هي حرف جواب، يأتي لإثبات المنفي في السؤال. سأل المنافقون: {أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ}، أي: ألسنا كنا معكم؟ فجاء الجواب: {بَلَىٰ}. نعم، كنتم معنا في الدنيا. وهذا اعتراف من المؤمنين بصحبتهم الظاهرية. إنهم لا ينكرون أن المنافقين كانوا يصلون معهم ويحجون معهم ويجالسونهم.

لكن المؤمنين لا يقفون عند هذا الاعتراف. إنهم ينتقلون فوراً إلى كشف الأسباب الحقيقية التي أوصلت المنافقين إلى هذا المصير. وهاهنا اللمسة البلاغية البديعة: "بلى" إيجاب لما بعد النفي، ولكن مع استدراك بـ "لكن". "بلى، كنتم معنا في الظاهر، ولكن هذا لم ينفعكم لأنكم..." ثم تأتي قائمة الأسباب الخمسة المهلكة.

{وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ}: الجريمة الأولى... فتنة النفس وخيانة الذات

استمع إلى التعبير القرآني العجيب: {فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ}. الفتنة في اللغة: الاختبار والابتلاء، ثم صارت بمعنى الإضلال والإهلاك. والمعنى هنا: أنكم أهلكتم أنفسكم بأنفسكم. لم يفتنكم أحد غيركم، بل أنتم الذين فتنتم أنفسكم. لقد كنتم تملكون الاختيار، وكان أمامكم طريق الإيمان وطريق النفاق، فاخترتم النفاق. أنتم الذين عرضتم أنفسكم للهلاك، وأوقعتموها في الفتنة.

وفي هذا التعبير: {فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ} عدة دلالات بيانية:

· الأولى: تأكيد مبدأ المسؤولية الفردية. لا يمكن للمنافق أن يلقي باللوم على غيره. لم يفتنه الشيطان وحده، بل هو الذي فتن نفسه أولا ً.
· الثانية: أن أخطر فتنة هي الفتنة الداخلية. فتنة النفس أشد من فتنة الخارج. فتنة الشهوات و الشبهات التي يسمح لها الإنسان بأن تسكن قلبه.
· الثالثة: أن النفاق يبدأ من داخل النفس، ثم يظهر في الخارج. إنه مرض قلبي قبل أن يكون سلوكاً ظاهرياً.

الدلالة النفسية: كيف يفتن الإنسان نفسه؟

فتنة النفس تعني أن الإنسان هو الذي يعرض نفسه للخطر باختياره. إنه يختار قرناء السوء، يختار متابعة الشهوات، يختار الغفلة عن الله. وفي كل اختيار من هذه الاختيارات، هو يفتن نفسه، أي يهلكها. والمؤمنون في هذا الرد يكشفون للمنافقين: "أنتم أهلكتم أنفسكم، فلا تلوموا إلا أنفسكم".

المهارة العملية: المراقبة الذاتية الدائمة

من هذه الآية نكتسب مهارة عملية حياتية: المراقبة الذاتية. اسأل نفسك كل يوم: "هل أنا أفتن نفسي اليوم؟ هل اختياراتي تقودني إلى الهلاك أم إلى النجاة؟". هذه المراقبة الدائمة تحمي الإنسان من الغفلة، وتجعله واعياً بخطورة اختياراته.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

· الرسالة الفكرية: المسؤولية عن الهلاك تقع على الإنسان نفسه أولا ً. لا تلم غيرك، بل راجع نفسك.
· الرسالة النفسية: أخطر عدو هو النفس التي لا تراقب ولا تحاسب. فتن الداخل أشد من فتن الخارج.
· الرسالة التربوية: ربّ أبناءك على تحمل مسؤولية أخطائهم، وألا يلوموا الآخرين على سقوطهم.
· المهارة الحياتية: تعلم كيف تحاسب نفسك يومياً، وكيف تتعرف على علامات فتنة النفس قبل فوات الأوان.

المحور الثالث

{وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ}

الجريمتان الثانية والثالثة... التربص بالمؤمنين والارتياب في الدين
حين يتحول الانتظار إلى جريمة... وحين يقتل الشك الإيمان

{وَتَرَبَّصْتُمْ}: الجريمة الثانية... التربص والانتظار الخبيث

انظر إلى كلمة {وَتَرَبَّصْتُمْ}. التربص هو الانتظار والترقب، ولكن ليس أي انتظار. إنه انتظار المصائب و الدوائر أن تنزل بالمؤمنين. كان المنافقون يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ينتظرون أن تنهزم الدعوة، أن يُقتل النبي، أن يتفرق المؤمنون. {يَتَرَبَّصُونَ بِكُمُ الدَّوَائِرَ}. ولم يكتفوا بالانتظار السلبي، بل كانوا يتآمرون ويخططون. "تربصتم" أي انتظرتم بالمؤمنين سوء المنقلب، وفرحتم بمصائبهم، وحزنتم لنصرهم.

وهذا التربص يكشف عن خبث الطوية وسوء النية. المنافق لا يحب الخير للمؤمنين، بل ينتظر متى

تسوء أحوالهم. إنه يعيش على جمر الغيظ، يترقب متى ينتقم الله من المؤمنين! وهذه الجريمة عظيمة لأنها تظهر أن المنافق لم يكن محايداً، بل كان معادياً في الباطن.

اللمسة البلاغية: عطف "تربصتم" على "فتنتم أنفسكم"

لاحظ أن "تربصتم" معطوفة على "فتنتم أنفسكم". وهذا يدل على أن فتنة النفس تقود إلى التربص بـ المؤمنين. فالمنافق الذي يفتن نفسه أولا ً يصبح عدواً للمؤمنين في الباطن. إنها سلسلة مترابطة: فتنة النفس تولد الحقد، والحقد يولد التربص.

{وَارْتَبْتُمْ}: الجريمة الثالثة... الشك والارتياب في الدين

ثم تأتي الكلمة الثالثة في قائمة الاتهام: {وَارْتَبْتُمْ}. الارتياب هو الشك والتردد. وهو أشد من الشك المجرد؛ إنه شك مصحوب بتهمة وريبة. المنافقون لم يكتفوا بعدم الإيمان، بل ارتابوا في صدق النبي، وفي حقيقة الوحي، وفي وعد الله. دخل الريب إلى قلوبهم فأفسدها. {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}. وهذا المرض هو الريب والشك.

والارتياب علة خطيرة. إنه يمنع القلب من الإيمان الحقيقي، ويجعله متردداً لا يستقر على يقين. و المؤمن الحقيقي هو الذي وصل إلى درجة اليقين، أما المنافق فهو سجين الريب. والريب لا يبقى محصوراً في القلب، بل يظهر في السلوك: في التثاقل عن الجهاد، في الشك في أحكام الله، في إيثار الدنيا على الآخرة.

الدلالة النفسية: كيف يتسلل الريب إلى القلب؟

الريب لا يأتي دفعة واحدة، بل يتسلل خطوة خطوة. يبدأ بسؤال صغير، ثم شك عابر، ثم ظن سيء، ثم ريبة مستقرة. والمنافق فتح لنفسه باب الريب فدخل منه الشيطان. والمؤمن يغلق هذا الباب بـ اليقين والثقة بـالله.

المهارة المعرفية: بناء اليقين لمنع الريب

من هذه الآية نتعلم مهارة معرفية: بناء اليقين في القلب يمنع الريب. كيف نبني اليقين؟ بتدبر القرآن، وبالتفكر في آيات الله في الكون، وبملازمة الصالحين، وبالدعاء بأن يرزقنا الله اليقين. اليقين حصن حصين ضد وساوس الشيطان.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

· الرسالة الفكرية: التربص بالمؤمنين جريمة قلبية قبل أن تكون جريمة سلوكية، والارتياب يفسد الإ يمان كما يفسد العطب الثمرة.
· الرسالة النفسية: راقب قلبك... هل تفرح لمصيبة تصيب مؤمنا؟ هل تشك في وعد الله؟ هذه علا مات خطر.
· الرسالة التربوية: ربّ أبناءك على محبة المؤمنين والفرح لنجاحهم، لا على الحسد والتربص.
· المهارة الحياتية: تعلم كيف تحول الشك إلى يقين، بالبحث عن الإجابات، وسؤال العلماء، والرجوع إلى القرآن.

المحور الرابع

{وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}

الجريمة الرابعة... الأماني الكاذبة التي تخدع ولا تنفع
حين يعيش الإنسان على الأحلام... ويأتيه الموت فجأة

{وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ}: الجريمة الرابعة... الاغترار بالأماني

تأمل معي هذه الكلمة: {وَغَرَّتْكُمُ}. الغرور هو الخداع. و"الأماني" جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان ويحب أن يتحقق له. والمعنى: أن الأماني خدعتكم. ما هي هذه الأماني؟ هي أماني كثيرة ومتنوعة:

تمنوا ألا يكون هناك بعث ولا حساب، وتمنوا أن يغفر الله لهم بلا توبة، وتمنوا أن يشفع لهم آباؤهم، وتمنوا أن تكون العاقبة للكفر على الإيمان، وتمنوا طول العمر وهم في غفلتهم، وتمنوا أن ينتصروا على المؤمنين في الدنيا. لقد عاشوا على هذه الأماني، فخدعتهم وشغلتهم عن العمل.

والأماني هنا ليست مجرد رغبات، بل هي أماني كاذبة ليس لها أساس من الواقع. إنها أحلام اليقظة التي يعيش فيها المنافق، فلا هو آمن بالله حقاً، ولا هو عمل صالحاً. "سوف أتوب غداً"، "سوف أؤمن لاحقاً"، "الدنيا طويلة"... وهكذا تمر الأيام، وهو غارق في أمانيه الكاذبة.

اللمسة البلاغية: الأماني تغرّ... تشخيص بديع

لاحظ التعبير: {غَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ}. لقد جُعلت الأماني فاعلا ً، وهي التي تغر وتخدع. وهذا تشخيص بديع للأماني، كأنها كائن حي يخدع الإنسان ويوقعه في الهلاك. إن الأماني الكاذبة تزين للإنسان الباطل، وتصور له أنه على حق وهو على باطل. إنها كالسراب، يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

{حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}: حين يأتي الموت فجأة

{حَتَّى} حرف غاية، أي استمر اغترارهم بالأماني {حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}. و"أمر الله" هنا هو الموت، أو يوم القيامة. والمعنى: أنهم بقوا في غفلتهم وأمانيهم حتى فاجأهم الموت، فانقطعت الأماني، وظهرت الحقائق. وحين جاء أمر الله، لم يعد هناك وقت للتوبة، ولا مجال للعودة. لقد انتهى زمن العمل، وجاء زمن الجزاء.

وهنا تظهر خطورة الأماني الكاذبة: إنها تسرق العمر، وتخدر الضمير، وتجعل الإنسان يؤجل التوبة إلى الغد، ثم يأتي الغد... ويأتي بعده غد... حتى يأتي أمر الله فجأة، فيندم الإنسان حيث لا ينفع الندم.

الدلالة النفسية: سيكولوجية الأماني الكاذبة

الأماني الكاذبة هي آلية دفاعية نفسية يلجأ إليها الإنسان للهروب من مواجهة الحقيقة. إنه لا يريد أن يعترف بأنه على خطأ، فيصنع لنفسه أماني يصدقها ويعيش فيها. "الله غفور رحيم" صحيح، ولكن لمن تاب وعمل صالحاً، لا لمن اغتر بالأماني.

المهارة العملية: تحويل الأماني إلى أهداف عملية

من هذه الآية نتعلم مهارة عملية: حول أمانيك إلى أهداف. إذا كنت تتمنى الجنة، فاعمل لها. إذا كنت تتمنى المغفرة، فتب. إذا كنت تتمنى النجاة من النار، فاترك أسبابها. لا تعش على الأماني، بل عش على العمل.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

· الرسالة الفكرية: الأماني الكاذبة من أخطر أسلحة الشيطان، لأنها تخدر ولا تؤلم، وتؤجل ولا تقدم.
· الرسالة النفسية: راقب أمانيك... هل هي أمانٍ تدفعك للعمل أم أمانٍ تخدرك وتشغلك؟
· الرسالة التربوية: ربّ أبناءك على أن يكونوا عمليين، يحولون أحلامهم إلى خطط، وأمانيهم إلى أعمال.
· المهارة الحياتية: تعلم كيف تفرق بين الأمل الحقيقي الذي يدفع للعمل، والأمنية الكاذبة التي تشغل عن العمل.

المحور الخامس

{وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}

الجريمة الخامسة والأخطر... الاغترار بالله... ذروة الخداع
حين يصبح الشيطان هو الصديق... وحين يصبح الجهل بالله سبب الهلاك

{وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}: تحليل أعمق آية في أسباب الهلاك

هذه هي الجريمة الخامسة، وهي الأخطر والأشد. {غَرَّكُم} أي خدعكم. {بِاللَّهِ} أي في شأن الله، أو بالا عتماد على رحمة الله وعفوه. {الْغَرُورُ} هو الشيطان، صيغة مبالغة من "الغارّ"، أي كثير الخداع. و المعنى: أن الشيطان خدعكم في شأن الله، فجعلكم تأمنون مكر الله، وتغترون برحمته دون عمل، وتظنون أن الله لا يحاسب ولا يعاقب.

وهنا مربط الفرس. إنها جريمة الاغترار بالله. المنافقون لم يكتفوا بفتنة أنفسهم والتربص والارتياب والاغترار بالأماني، بل إنهم اغتروا بالله نفسه! ظنوا أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم، أو أنه لن يعاقبهم، أو أنهم أذكياء بما يكفي لخداع الله. {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ}.

لماذا {غَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} هي ذروة الأسباب؟

تأمل الترتيب القرآني: بدأ بفتنة النفس (الجريمة الداخلية الفردية)، ثم التربص (الجريمة تجاه المؤمنين)، ثم الارتياب (الجريمة الفكرية)، ثم الاغترار بالأماني (الجريمة الزمنية المستقبلية)، ثم ختم بـ الاغترار بالله (الجريمة الدينية الكبرى). إنه ترتيب تصاعدي في الخطورة. فمن فتن نفسه سهل عليه أن يتربص بالمؤمنين، ثم يرتاب في الدين، ثم يغتر بالأماني، وفي النهاية يصل إلى الاغترار بالله نفسه.

اللمسة البيانية: {الْغَرُورُ} بدل الشيطان

لم يقل "وغركم الشيطان"، بل قال: {الْغَرُورُ}. وهذا الاسم يشير إلى المبالغة في الخداع. فالشيطان ليس مجرد خادع، بل هو "الغَرور"، أي المبالغ في الخداع، المحترف فيه. إنه يقضي كل وقته في خداع الناس، وقد أتقن هذا الفن حتى صار لقبه "الغرور". وفي وصفه بهذا الاسم تحذير لنا من قوته في الخداع، ودعوة لنا لعدم الاستهانة به.

الدلالة النفسية: كيف يخدع الشيطان الناس بالله؟

الشيطان يخدع الناس بالله بطرق متعددة: يوسوس لهم بأن الله غفور رحيم وسيغفر لهم، فيؤخرون التوبة. يزين لهم المعاصي ويقول: "الله لا يعذب أحداً". يجعلهم يعتقدون أنهم مصلحون وهم مفسدون. إنه يستخدم أسماء الله وصفاته ليخدع الناس، وهذا منتهى الخبث.

المهارة المعرفية: معرفة مكائد الشيطان للنجاة منها

من هذه الآية نتعلم مهارة معرفية في غاية الأهمية: معرفة مداخل الشيطان. ومن أعظم مداخله: الا غترار برحمة الله دون عمل. فاحذر هذا المدخل. اعلم أن الله غفور رحيم، ولكن لمن تاب وعمل صـ الحاً، لا لمن اغتر وتمادى. التوازن بين الخوف والرجاء هو النجاة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

· الرسالة الفكرية: الاغترار بالله أخطر من أي اغترار آخر، لأنه يتعلق بالعقيدة والمصير.
· الرسالة النفسية: لا تأمن مكر الله. عش بين الخوف والرجاء، ولا تجعل الشيطان يخدعك باسم رحمة الله.
· الرسالة التربوية: علّم أبناءك أسماء الله وصفاته، ولكن مع تعليمهم وجوب العمل بمقتضاها. "الله غفور" لا تعني أن تعصيه، بل تعني أن تتوب إليه.
· المهارة الحياتية: تعلم كيف تتعرف على وساوس الشيطان، وكيف تردها بالعلم والعمل.

المحور السادس

{فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}

الحكم النهائي... إغلاق باب النجاة إلى الأبد
حين لا تنفع الفدية... ولا يبقى إلا الحساب

{فَالْيَوْمَ}: الفاء التي تفيد النتيجة الحتمية

بعد أن سرد المؤمنون أسباب هلاك المنافقين، جاءت الفاء: {فَالْيَوْمَ}. هذه الفاء فاء النتيجة. "بما أنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم واغتررتم بالأماني وغركم بالله الغرور... فاليوم لا ينفعكم شيء". إنها نتيجة حتمية، لا مجال للاستئناف.

و"اليوم" هو يوم القيامة، يوم الجزاء، يوم الحساب. و"أل" في "اليوم" للعهد، أي اليوم الذي تعرفونه و الذي وقفتم فيه، والذي طالما كذبتم به في الدنيا. ها هو قد جاء، ولكن لا فدية فيه.

{لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ}: إغلاق باب المساومة

{لَا يُؤْخَذُ} فعل مبني للمجهول، وهذا يشعر بأن الحكم صادر من جهة عليا لا مرد لكلامها. {مِنكُمْ} أيها المنافقون. {فِدْيَةٌ} هي ما يبذل لفكاك الأسير أو إنقاذ الغريق. والمعنى: لا تقبل منكم فدية اليوم. لو جئتم بملء الأرض ذهباً، لن يُقبل منكم. لو قدمتم كل ما تملكون، فلن ينفعكم. إن باب الفدية مغلق إلى الأبد.

وهذا رد على ما كانوا يظنونه في الدنيا من أن أموالهم وأولادهم ستشفع لهم. {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى}. اليوم لا فدية، لا شفاعة، لا واسطة. اليوم تجزون ما كنتم تعملون.

{وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}: تعميم الحكم ليشمل كل الكافرين

ثم يعمم الله الحكم: {وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}. ليس فقط المنافقون لا تقبل منهم فدية، بل كل الذين كفروا علناً، المشركون والملحدون والمكذبون، كلهم لا تقبل منهم فدية. إنه حكم عام: في ذلك اليوم، لا فدية من أي كافر، سواء كان نفاقه خفياً أو ظاهراً.

وهذا التعميم يقطع الأمل عن أي كافر يظن أنه يستطيع النجاة بمال أو جاه. الكل في ذلك اليوم سواء: لا فدية ولا خلاص إلا برحمة الله لمن آمن وعمل صالحاً.

الدلالة النفسية: قطع الأمل أشد أنواع العذاب

هذه الآية تهدف إلى قطع الأمل عن المنافقين والكافرين. إنهم في ذلك اليوم يتمسكون بأي قشة للنجاة، فيأتيهم الرد القاطع: {لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ}. هذا الرد هو عذاب نفسي فوق العذاب الجسدي. إنه اليأس التام، القنوط المطلق. لا مخرج، لا شفيع، لا فدية. لقد أغلقت كل الأبواب، ولم يبق إلا النار.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

· الرسالة الفكرية: الآخرة دار جزاء لا دار عمل، ومن لم يقدم الفدية (الإيمان والعمل الصالح) في الدنيا، فلن تنفع الفدية في الآخرة.
· الرسالة النفسية: لا تؤجل التوبة إلى الغد، فالغد قد لا يأتي، وإذا جاء فلا فدية فيه.
· الرسالة التربوية: ربّ أبناءك على أن ثمن النجاة هو العمل الصالح، لا المال ولا الجاه ولا النسب.
· المهارة الحياتية: تعلم أن تستثمر في ما ينفعك يوم القيامة، لا فيما يفنى.

المحور السابع

{مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}

المصير المحتوم... حين تكون النار هي المأوى والمولى
ختام المشهد... سخرية القدر... وبئس المصير

{مَأْوَاكُمُ النَّارُ}: تحديد المصير بدقة

{مَأْوَاكُمُ} أي مثواكم ومقركم ومستقركم الدائم. {النَّارُ} هي جهنم. إنه ليس مجرد عقاب مؤقت، بل هو مأوى دائم. كما أن المؤمنين مأواهم الجنة خالدين فيها، فالمنافقون مأواهم النار خالدين فيها. هذا هو المسكن الأخير، الذي لا انتقال بعده.

وتأمل أن الكلمة جاءت بالإفراد: {مَأْوَاكُمْ} لتدل على أنهم جميعاً في مأوى واحد، هو النار، لا يتفرقون. لقد كانوا في الدنيا حزباً واحداً ضد المؤمنين، فها هم اليوم في مسكن واحد، يتساوون في العذاب.

{هِيَ مَوْلَاكُمْ}: المفارقة العجيبة... النار مولى!

وهنا تأتي اللمسة البلاغية المذهلة التي ينبغي أن تقف عندها طويلا ً: {هِيَ مَوْلَاكُمْ}. "مولى" تعني الناصر والمعين والولي والملجأ. والمعنى الظاهر: أن النار هي ناصركم وملجؤكم. ولكن ما هذه المفارقة ؟ النار... ناصر؟ النار... ولي؟ نعم، إنها السخرية الإلهية المريرة. لقد كان المنافقون في الدنيا يتولون الشياطين والكافرين، واليوم... لا ولي لهم ولا ناصر إلا النار! النار هي التي تحتضنهم وتضمهم. لا مفر منها، ولا هروب عنها. إنها مولاهم ونعم المولى! وهذا كما قال تعالى في موضع آخر: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ}. فجعل النار مولاهم، في تهكم يليق بحالهم.

لماذا {هِيَ مَوْلَاكُمْ} أبلغ من "لا مولى لكم"؟

تأمل: لو قال "لا مولى لكم" لكان المعنى واضحاً. ولكنه قال: {هِيَ مَوْلَاكُمْ}، فأثبت لهم مولى، وجعله النار. هذا أبلغ في التهكم والتوبيخ. إنه يقول لهم: "كنتم تبحثون عن مولى ينصركم، وها هو مولاكم: النار. فلتكن نعم النصير!". وهذا من باب: "بشرهم بعذاب أليم". إنه إيلام نفسي قبل أن يكون جسدياً.

{وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}: الخاتمة التي توجع

ثم تأتي الخاتمة: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}. "بئس" فعل ذم، و"المصير" هو المكان الذي يصير إليه الإنسان، أو العاقبة. والمعنى: وقبح هذا المصير! وساء هذا المكان الذي صرتم إليه! إنه تقبيح من الله، فكيف يكون حال من قبح الله مصيره؟!

وهذه الجملة تزيد المشهد ألماً. إنها ليست مجرد إخبار عن مصيرهم، بل هي ذم لهذا المصير وتقبيح له. وكأن الله يقول لهم: "ألا ترون إلى أي مكان قادكم نفاقكم؟ هذا هو المصير الذي اخترتموه بأنفسكم، فبئس المصير".

الدلالة النفسية: ألم التقبيح الإلهي

أن يذم الله مصيرك، هذا أشد ألماً من المصير نفسه. إنه خزي لا يوصف. فكيف بمن يسمع ربه يقول له: {بِئْسَ الْمَصِيرُ}؟! إنها لحظة الانهيار النفسي التام.

المهارة المعرفية: تدبر هذه الخاتمة يومياً

من هذه الآية نكتسب مهارة معرفية: أن نختم كل تأمل في النار بهذه الكلمة: {بِئْسَ الْمَصِيرُ}. إنها تذكرنا بقبح العاقبة، فتدفعنا إلى العمل. كلما قرأت في القرآن عن النار، تذكر هذه الكلمة، وقل بقلبك: " اللهم إني أعوذ بك من هذا المصير".

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

· الرسالة الفكرية: النار ليست مجرد عقاب، بل هي "مولى" في تهكم إلهي مرير، وهي "بئس المصير" في تقبيح دائم.
· الرسالة النفسية: تأمل هذه الآية يحرك القلب خوفاً من سوء المصير، ورغبة في حسن المصير.
· الرسالة التربوية: ربّ أبناءك على استقباح النار واستعظامها، لا على الاستهانة بذكرها.
· المهارة الحياتية: تعلم كيف توازن بين الخوف من النار والرجاء في الجنة، وكيف تستخدم هذا التوازن للعمل.

المحور الثامن

ما تدعونا إليه الآيتان في الواقع المعاصر

أولا ً: فهم أسباب الهلاك المعاصرة

الآيتان تقدمان لنا قائمة بخمسة أسباب للهلاك: فتنة النفس، التربص، الارتياب، الاغترار بالأماني، والا غترار بالله. هذه الأسباب ليست تاريخية، بل هي حية في كل عصر. كم من إنسان اليوم يفتن نفسه بالشهوات! كم من إنسان يتربص بالمؤمنين ويكره ظهور الإسلام! كم من إنسان يشك في دينه وفي وعود الله! كم من إنسان يعيش على أماني المغفرة بلا توبة! كم من إنسان يغتر بالله ويأمن مكره! الآيتان تدعواننا إلى مراجعة أنفسنا ومجتمعاتنا على ضوء هذه القائمة.

ثانياً: تربية الجيل على تحمل المسؤولية

الآية تقول: {فَتَنتُمْ أَنفُسَكُم}. هذا يعلمنا أن نربي الجيل على تحمل مسؤولية أخطائه. لا نربهم على لوم الآخرين والظروف والمجتمع، بل نقول لهم: "أنتم المسؤولون عن اختياراتكم، وأنتم الذين تفتنون أنفسكم أو تنقذونها".

ثالثاً: محاربة ثقافة الأماني الكاذبة

نحن نعيش في عصر ينتج الأماني الكاذبة بكميات هائلة: الأفلام، الإعلانات، وسائل التواصل، كلها تغذي الأماني الكاذبة وتجعل الناس يعيشون في أحلام اليقظة. الآية تدعونا إلى محاربة هذه الثقافة، وإلى بناء ثقافة العمل والجد.

رسائل ودروس وتوجيهات:

· الواقع المعاصر مليء بمغريات فتنة النفس والاغترار بالأماني، فعلينا الوعي بها.
· تربية الشباب على تحمل المسؤولية الفردية ضرورة قصوى.

المحور التاسع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين

المفهوم الفكري: سلسلة أسباب الهلاك

الآيتان تقدمان مفهوماً فكرياً مهماً: أن الهلاك لا يأتي دفعة واحدة، بل هو سلسلة مترابطة. فتنة النفس تقود إلى التربص، والتربص يقود إلى الارتياب، والارتياب يقود إلى الاغترار بالأماني، وهذه تؤدي إلى الاغترار بالله. هذا المفهوم يعلمنا أن ننظر إلى الذنوب نظرة سلسلية، لا نظرة فردية. الذنب الواحد يقود إلى أخيه، حتى يصل الإنسان إلى الهاوية.

المفهوم النفسي: آلية الخداع الذاتي عند المنافقين

الآيتان تكشفان آلية نفسية خطيرة: الخداع الذاتي. المنافق يفتن نفسه أولا ً، ثم يخدع نفسه بالأ ماني الكاذبة، ثم يخدع نفسه بالاغترار بالله. إنه يعيش في وهم كبير، يظن أنه على حق وهو على باطل. وهذا الخداع الذاتي من أخطر الأمراض النفسية.

المفهوم التربوي: بناء الضمير الحي

الآيتان تبنيان ضميراً حياً. إنهما تزرعان في النفس الخوف من هذه الأسباب الخمسة، والرغبة في تجنبها. عندما تقرأ قائمة الاتهام: {فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ...}، يسأل المؤمن نفسه: "هل أنا بريء من هذه التهم؟". هذا السؤال هو بداية الضمير الحي.

المهارات الحياتية والمعرفية والعملية من الآيتين:

المجال المهارة التطبيق العملي
معرفية فهم أسباب الهلاك الخمسة حفظ هذه الأسباب ومراجعتها دورياً
حياتية المراقبة الذاتية تخصيص وقت يومي لمحاسبة النفس
حياتية التمييز بين الصحبة الصادقة والزائفة تقييم علاقاتك على ضوء هذا المعيار
عملية تحويل الأماني إلى أهداف كتابة أهداف أسبوعية مستمدة من أمانيك
معرفية معرفة مداخل الشيطان دراسة كتاب عن مكائد الشيطان

حياتية التوازن بين الخوف والرجاء عيش حالة وسطى بين الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته عملية استثمار الوقت قبل فوات الأوان وضع جدول أعمال صالحة يومية

المحور العاشر

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هاتين الآيتين؟

الإرادة الأولى: أن نتعرف على عدونا الداخلي

الله يريد منا أن نعرف أنفسنا. أن نتعرف على نقاط ضعفنا التي قد تقودنا إلى هذه الأسباب الخمسة. يريد منا أن نسأل أنفسنا: "هل أفتن نفسي؟ هل أربص بالمؤمنين؟ هل في قلبي ريبة؟ هل تغرني الأ ماني؟ هل أغتر بالله؟". هذا السؤال هو بداية النجاة.

الإرادة الثانية: أن نعيش اللحظة ولا نؤجل التوبة

الله يريد منا أن نستفيد من درس {حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}. لا تؤجل. لا تقل "غداً سأتوب". لا تغتر برحمة الله. بادر الآن. فالموت يأتي فجأة، وحين يأتي فلا فدية ولا شفاعة.

الإرادة الثالثة: أن نبني مجتمعاً واعياً بأسباب الهلاك

الله يريد أمة كاملة واعية، لا أفراداً فقط. مجتمعاً يعرف هذه الأسباب الخمسة، ويحذرها، ويربي أبناءه على تجنبها. مجتمعاً لا يعيش على الأماني، بل يعمل ويجتهد.

الإرادة الرابعة: أن نستقبح النار ونطلب الجنة

الله يريد منا أن نستقبح النار استقباحاً حقيقياً يمنعنا من معصيته. يريد منا أن نقول بقلوبنا عندما نقرأ {بِئْسَ الْمَصِيرُ}: "اللهم أجرنا من هذا المصير".

المحور الحادي عشر

أبعاد الآيتين وآفاقهما

البعد النفسي: فهم النفس المنافقة

الآيتان تقدمان لنا بعداً نفسياً عميقاً. إنهما تشريح كامل للنفس المنافقة: كيف تبدأ (بفتنة النفس)، كيف تتطور (بالتربص والارتياب)، كيف تستمر (بالاغترار بالأماني)، وكيف تنتهي (بالاغترار بالله ثم بالنار).

البعد الاجتماعي: تحذير من النفاق الاجتماعي

الآيتان لهما بعد اجتماعي: تحذير المجتمعات من انتشار النفاق. فإذا انتشرت هذه الأسباب الخمسة في مجتمع، فهذا يعني أن المجتمع يسير نحو الهلاك. المجتمعات التي تفتن نفسها بالشهوات، وتتربص بـ المؤمنين، وترتاب في القيم والمبادئ، وتعيش على الأماني، وتغتر بالله... هذه مجتمعات في طريقها إلى الانهيار.

البعد الحضاري: بناء حضارة اليقين والعمل

حضارة الإسلام هي حضارة اليقين، لا حضارة الريب. هي حضارة العمل، لا حضارة الأماني. هي حضارة الصدق، لا حضارة النفاق. هذه الآيات تبني هذه الحضارة في النفوس أولاً، ثم في الواقع ثانياً.

المحور الثاني عشر

تحويل الآيتين إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الصادق مع نفسه

الآيتان تبنيان إنساناً لا يخدع نفسه، ولا يغتر بالأماني، ولا يغتر بالله. هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح. إنه يمتلك ضميراً حياً، يحاسب نفسه يومياً، ويعمل بجد واجتهاد. لتحقيق هذا: ابدأ بمراجعة نفسك يومياً على ضوء الأسباب الخمسة.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتحصن من النفاق

مجتمع يقرأ هذه الآيات ويتدبرها سيكون مجتمعاً يحصن نفسه من النفاق. إنه مجتمع يربي أبناءه على الصدق، وعلى محبة المؤمنين، وعلى اليقين في الدين، وعلى العمل وترك الأماني. لتحقيق هذا: انشر ثقافة المراجعة الذاتية في محيطك.

المسار الثالث: بناء الحضارة العاملة

الحضارة التي تقوم على هذه الآيات هي حضارة تعمل ولا تغتر بالأماني. إنها حضارة تنتج وتصنع وتبني، ولا تكتفي بالتمني والأحلام. لتحقيق هذا: حول أمانيك إلى خطط عملية، وكن قدوة في ذلك.

المحور الثالث عشر

كيف تحول الآيتين إلى واقع معاش؟

الخطوة الأولى: احفظ الأسباب الخمسة ورددها

احفظ قوله تعالى: {فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}. رددها كثيراً. اجعلها أمام عينيك. اسأل نفسك كل يوم: "هل فعلت شيئاً من هذا اليوم؟".

الخطوة الثانية: افتح ملفاً للمراجعة الذاتية

خصص دفتراً تكتب فيه يومياً إجابات عن أسئلة مستمدة من الآية:

- هل فتنت نفسي اليوم بشيء؟
- هل ربيت شيئاً تجاه أحد من المؤمنين؟
- هل دخل قلبي شك أو ريبة في الدين؟
- هل غرتني أماني كاذبة؟
- هل شعرت بالأمان من مكر الله؟

هذا الدفتر سيكون مرآتك التي ترى فيها حقيقتك.

الخطوة الثالثة: حول كل ذنب إلى توبة فورية

كلما وجدت نفسك قد وقعت في شيء من هذه الأسباب الخمسة، تب فوراً. لا تؤجل. تذكر: {حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}. الموت لا ينتظر، فلا تؤجل التوبة.

الخطوة الرابعة: درب غيرك على هذه المهارات

علم أبناءك وإخوانك هذه الأسباب الخمسة. افتح معهم حواراً عنها. اسألهم: "ما هي أمانيكم؟ هل هي أماني كاذبة أم أمانٍ تدفعكم للعمل؟". انقل لهم هذه المعرفة لتعم الفائدة.

خاتمة: الحوار الأخير... والعبرة الباقية

أيها القارئ الكريم...

لقد انتهت رحلتنا مع هاتين الآيتين الكريمتين، ولكن رسالتهما ينبغي ألا تنتهي في قلبك. لقد سمعت نداء المنافقين من وراء السور: {أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ}. وسمعت رد المؤمنين: {بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ}. لقد تشريحت لنا الآيات أسباب الهلاك واحداً واحداً: فتنة النفس، التربص، الارتياب، الاغترار بالأماني، الاغترار بالله. ثم سمعنا الحكم النهائي: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ}... {مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

هذا هو المصير الذي ينتظر المنافقين. ولكن... ماذا عنا نحن؟ هل فينا شيء من هذه الأسباب الخمسة ؟ هل نفتن أنفسنا؟ هل نتربص؟ هل نرتاب؟ هل تغرنا الأماني؟ هل نغتر بالله؟

اسأل نفسك هذه الأسئلة بصدق. فإن وجدت في نفسك شيئاً من ذلك، فبادر إلى التوبة. فإن باب التوبة ما زال مفتوحاً، وشمس الدنيا ما زالت تشرق. ولكن تذكر: {حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}. لا تدري متى يأتي أمر الله، فكن مستعداً.

بسم الله الرحمن الرحيم
المقطع الثاني
القسم الاول
اولا
تفسير الآية (16) من سورة الحديد

)أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(

حين ينهمر العتاب الإلهي على قلوب المؤمنين حباً وتربيةً
وحين يُقرع سمعُ القلبِ بسؤال: أما آن لك أن تخشع؟
وحين يُراد للقلب أن يبقى حياً يقظاً متدفقاً بالمعرفة والخشية
رحلة في عمق التربية الإيمانية ...وكيف تبنَى القلوبُ لتستقبل أنوار الحق

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من سورة الحديد ومن جدلية التربية الإلهية للمؤمنين

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل ضرورية قبل أن نلج إلى رحاب هذه الآية الكريمة، التي قال فيها بعض السلف: "إنها آية قارئة" .إنك تقف الآن أمام مشهد من أرقّ مشاهد القرآن وأعمقها أثراً في تربية النفس المؤمنة .لقد مضت بنا السورة تعرض أهوال القيامة، وتفضح المنافقين، وتكشف أسباب ه لاكهم الخمسة: فتنة النفس، والتربص، والارتياب، والاغترار بالأماني، والاغترار بـالله .وبعد هذا المشهد المهيب الذي يهز الوجدان، يتوجه الخطاب فجأة إلى المؤمنين ...نعم، إلى المؤمنين أنفسهم!

وليس هذا فحسب، بل إن الخطاب جاء في صورة استفهام عتابي رقيق:} أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا .{وهذا هو موضع الدهشة والتأمل: بعد كل ذلك التهديد والوعيد للمنافقين، يأتي العتاب للمؤمنين؟! إنه عتاب المحب لحبيبه، عتاب المربي لتلميذه النجيب، عتاب القائد لجنده المخلصين الذين يحبهم ويخشى عليهم من التراخي .إنها التربية الإلهية في أرقى صورها: أن تُعاتب وأنت توصَف بالإيمان، ليبقى إيمانك حياً متجدداً، لا أن يموت تحت ركام العادة والغفلة.

وهكذا تنتقل السورة من التحذير من النفاق إلى تثبيت الإيمان، ومن فضيحة المنافقين إلى تربية المؤمنين .إنه الانتقال الطبيعي في المنهج القرآني: بعد أن ترى عاقبة الباطل، تنظر إلى نفسك لتتأكد من سلامتها، وها هو القرآن يعينك على هذا النظر، فيعاتبك لتصحو، ويقرع سمعك لتتيقظ، ويصفك با لإيمان لتستجيب.

وهذا الأسلوب – أسلوب الاستفهام العتابي – يكشف عن منهج تربوي فريد: أن المؤمن ليس بمنأى عن المحاسبة والمراجعة، وأن صفة الإيمان التي يحملها ليست جواز مرور دائم، بل هي مسؤولية تتطلب التجديد والمجاهدة الدائمة .إن الخطاب يهتف بالقلب المؤمن: "أما آن لك أن تعيش الإيمان لا ككلمة تقال، بل كخشوع يملأ القلب ودمعة تفيض من العين؟".

وسنرى في رحلتنا مع هذه الآية كيف أن الله يريد لنا قلوباً حية، قلوباً تخشع عند ذكره، قلوباً تنتفض حين تسمع الحق، قلوباً لا تصدأ بطول الزمن ولا تقسو بطول الأمد .وسنرى كيف أن هذه الآ ية ترسم لنا خريطة كاملة لآداب تلقي ذكر الله، وتكشف عن العلاقة العضوية بين المعرفة بـالله و الخشوع له، وتبين خطورة الغفلة التي تؤدي إلى قسوة القلب ثم إلى الفسق.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآية الكريمة، لتكون على بصيرة وأنت تخوض في معانيها:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

١.الاستفهام العتابي كأسلوب للتربية الإيمانية:} أَلَمْ يَأْنِ {ليس استفهاماً حقيقياً، بل هو استفهام إنكاري عتابي، يحمل في طياته معاني الحب والتحفيز والتحذير معاً .إنه "قرص الأذن" الإلهي الذي يشد انتباه المؤمنين.

٢.وصفهم بالإيمان قبل عتابهم:} لِلَّذِينَ آمَنُوا {فيه تكريم وتثبيت، وفيه إشارة إلى أن العتاب إنما هو لحفظ هذه الصفة وتنميتها، لا لإلغائها.

.٣الخشوع مطلب قلبي:} أن تخْشَعَ قُلُوبُهُمْ {يبين أن العبرة في القلب، لا في الجوارح وحدها . الخشوع ليس مجرد خفض صوت أو إطراق رأس، بل هو حالة قلبية من الخوف والوجل والتعظيم و المحبة.

.٤شمول مفهوم ذكر الله:} لِذِكْرِ اللهِ {يشمل كل ما يذكر بالله: القرآن، والآيات الكونية، والأوامر و النواهي، والنعم الظاهرة والباطنة.

.٥خصوصية القرآن في "ما نزل من الحق":} وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ {بعد العموم، إشارة إلى عظمة القرآن، فهو الحق الذي تشهد له الفطرة السليمة، وهو المعجزة الخالدة المتجددة.

.٦التحذير من القسوة بطول الزمن:} وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ {درس من التاريخ، يحذر المؤمنين من أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة.

.٧العلاقة بين قسوة القلب والفسق:} وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ {تبين أن قسوة القلب تؤدي حتماً إلى الفسق والخروج عن طاعة الله.

مقاصد الآية وأهدافها:

.١تربية المؤمنين على الخشوع الدائم وتجديد الإيمان.
.٢بيان أن صفة الإيمان ليست ثابتة، بل تزيد وتنقص، وتحتاج إلى رعاية وتجديد.
.٣إرشاد المؤمنين إلى آداب تلقي ذكر الله، سواء كان قرآناً أو آيات كونية.
.٤التحذير من آفة الغفلة ومرض قسوة القلب الذي أصاب الأمم السابقة.
.٥بيان أن القرآن حق لا يبلى، ومعجزة خالدة تنسجم مع الفطرة السليمة.
.٦دعوة المؤمنين إلى استغلال الوقت في الطاعة قبل فوات الأوان.

المحور الأول

}أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا{

حين يقرع الاستفهام الإلهي سمع القلب ..."أما آن لك أن تخشع؟"
قرص الأذن الإلهي ...عتاب المحب لحبيبه ...وتنبيه النائم قبل فوات الأوان

تشريح الأسلوب الاستفهامي:} أَلَمْ يَأْنِ{

دعني أقف بك وقفة تحليلية عميقة عند قوله تعالى:} أَلَمْ يَأْنِ .{إنها كلمة واحدة، لكنها تحمل عالماً من المعاني والدلالات ."ألم" هي الهمزة للاستفهام، و"لم" حرف نفي وجزم وقلب .و"يأن" فعل مضارع مجزوم، من "أنى يأني" بمعنى: حان وجاء وقته.

ولكن السؤال: ما نوع هذا الاستفهام؟ إنه ليس استفهاماً حقيقياً يُطلب به الجواب .فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عباده عن شيء يجهله .بل هو استفهام إنكاري عتابي، والمعنى: "لقد طال عليكم الزمان، وحان لكم أن تخشع قلوبكم، فما الذي يؤخركم؟" .إنه استفهام يحمل في طياته معاني:

• العتاب الرقيق: عتاب من يحبك ويريد لك الخير.
• الاستبطاء: استبطاء لاستجابتهم، فكأن الزمن قد طال عليهم دون أن يصلوا إلى هذه الحالة القلبية المطلوبة.
• الحث والتحفيز: حث على المسارعة إلى الخشوع، وعدم التأخير.
• التعجيب: تعجيب من حال المؤمنين الذين لم تخشع قلوبهم بعد!
• التوبيخ اللطيف: توبيخ من يرجى منه الخير، لا من يئس منه.

اللمسات البيانية والبلاغية في} أَلَمْ يَأْنِ{:

تأمل معي – يا صاحبي – روعة التعبير القرآني .لم يقل "اخشعوا" بصيغة الأمر المباشر .ولو كان أمراً مباشراً لكان له وقعه، ولكن وقع الاستفهام أعمق وأبلغ .لماذا؟

.١الاستفهام يثير الانتباه ويوقظ المشاعر .إنه يجعل السامع يسأل نفسه: "نعم، ألم يأن لي؟" .فيتحول من متلقٍّ سلبي إلى مشارك نشط في العملية التربوية.

.٢الاستفهام يتضمن اعترافاً ضمنياً .حين تقول لشخص: "ألم يأن لك أن تفعل كذا؟"، فأنت تفترض أنه يعرف أن الوقت قد حان، وتطلب منه أن يعترف بذلك.

.٣الاستفهام ألطف من الأمر .الأمر فيه معنى الإلزام والجبر، أما الاستفهام ففيه معنى الإقناع و التحفيز الذاتي.

.٤الاستفهام فيه استنهاض للهمة .كأنه يقول: "لقد أعطيتكم الوقت الكافي، فماذا تنتظرون؟".

هذا هو "قرص الأذن" الإلهي الذي أشرت إليه .إنه ليس إهانة ولا توبيخاً قاسياً، بل هو تنبيه المحب لحبيبه، وتنبيه المعلم لتلميذه النجيب الذي يخاف عليه من التراخي .وهذا تماماً كما يفعل المعلم الحكيم حين يوجه تلاميذه المتفوقين: "ألم يأن لكم أن تكونوا في المقدمة؟" .إنه لا يطردهم من الفصل، بل يستحثهم على الحفاظ على تفوقهم .وهكذا الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين: يعاتبهم ليحفظهم في مقام الإيمان، لا ليسقطهم منه.

الدلالة التربوية لهذا الأسلوب:

من هذا الأسلوب نتعلم منهجاً تربوياً رفيعاً: أن العتاب أحياناً أبلغ من الأمر .فحين تريد أن تستثير همة ابنك أو تلميذك، لا تأمره أمراً مباشراً جافاً، بل قل له: "ألم يأن لك أن تتفوق؟" .هذا الأسلوب يحافظ على كرامته، ويشعره بالمسؤولية، ويدفعه إلى الاستجابة من تلقاء نفسه.

وكذلك في تربية النفس: لا تنتظر أن يأتيك الأمر صريحاً، بل بادر أنت واسأل نفسك: "ألم يأن لي أن أخشع؟ ألم يأن لي أن أتوب؟ ألم يأن لي أن أراجع علاقتي بربي؟".

رسائل وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: أسلوب الاستفهام القرآني ليس لمجرد البلاغة، بل هو أسلوب تربوي مقصود، يهدف إلى استثارة العقل والقلب معاً.
• الرسالة النفسية: المؤمن يحتاج بين الحين والآخر إلى "قرص أذن" يوقظه من غفلته، وهذا العتاب دليل محبة الله له، لا دليل سخطه عليه.
• الرسالة التربوية: المربي الناجح هو الذي يعاتب المحسن ليبقى محسناً، ولا يهمل المسيء فيتمادى، ويوازن بين الأمر المباشر والعتاب المحفز.
• المهارة الحياتية: تعلم كيف توجه العتاب لنفسك أولا ً، ثم لمن تحب، بأسلوب يحفظ الكرامة ويستثير الهمة.
• المهارة العملية: اجعل لك في كل يوم وقفة مع نفسك تسألها فيها: "ألم يأن لك أن ترجعي؟ ألم يأن لك أن تنيبي؟".

المحور الثاني

}لِلَّذِينَ آمَنُوا{

توصيفهم بالإيمان قبل العتاب ...تثبيت وتكريم ومسؤولية
حين يكون العتاب شهادة إيمان لا تهمة نفاق

دلالة وصفهم بـ "الذين آمنوا" قبل توجيه العتاب:

تأمل – رعاك الله – هذا الوصف القرآني البديع:} لِلَّذِينَ آمَنُوا .{إن الله سبحانه وتعالى لم يقل: "ألم يأن للناس" أو "ألم يأن للمسلمين" أو "ألم يأن للمنافقين" .بل خص الخطاب بـ} الَّذِينَ آمَنُوا .{وهذا ا لاختيار له دلالات عميقة:

.١تثبيت لهم على إيمانهم: كأنه يقول لهم: "أنتم أيها المؤمنون، أنتم أهل الإيمان، فلا يليق بكم أن

تتأخروا عن الخشوع" .إنه يثبتهم على صفة الإيمان، ويدفعهم إلى ما يناسب هذه الصفة.

.٢تكريم لهم وتشريف: الخطاب لم يأتِ بصيغة الذم، بل بصيغة الشرف ."يا أيها الذين آمنوا" هو نداء تكريم، و"للذين آمنوا" هو وصف تشريف .فالعتاب هنا يأتي في إطار التكريم، لا في إطار الإهانة.

.٣إشارة إلى أن الإيمان هو المؤهل للخطاب: هم مؤمنون، ولهذا هم أهل لأن يخاطبهم الله بهذا الخطاب .المنافقون أبعد من أن يُعاتبوا هذا العتاب؛ لقد فُضحوا وذكرت أسباب هلاكهم .أما المؤمنون فهم أهل للتربية والرعاية.

.٤تذكيرهم بمسؤولية الإيمان: وصفهم بالإيمان يحمل تذكيراً ضمنياً بأن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال، بل هو مسؤولية وأمانة .فإذا كنتم مؤمنين حقاً، فأين أثر الإيمان في قلوبكم؟ أين الخشوع؟ أين الوجل عند ذكر الله؟

.٥طمأنتهم على بقاء صفة الإيمان معهم: العتاب لم يرفع عنهم صفة الإيمان، بل خاطبهم بها .وهذا يعني أن قلوبهم ما زالت حية، وما زالت قابلة للتأثر .وهذا يدل على فضل الله عليهم ورحمته بهم.

اللمسة البلاغية: الجمع بين العتاب والتشريف:

هذا الأسلوب – الجمع بين العتاب والتشريف – من أبلغ أساليب التربية .إنك حين توجه عتابك لإ نسان وتقول له: "أنت الرجل الناجح، ألم يأن لك أن ترتقي؟"، فأنت تجمع بين أمرين: الاعتراف بفضله، وحثه على المزيد .وهذا ما يفعله الله مع المؤمنين هنا.

وهذا يشبه ما أشرت إليه من مثال المعلم الذي ينهر الطلاب المتفوقين ليحافظوا على تفوقهم .إنه لا يقول لهم: "أنتم فاشلون"، بل يقول: "أنتم متفوقون، فلماذا لا تبذلون ما يستحقه هذا التفوق من جهد؟ " .إنه أسلوب يبني الثقة في النفس، ويحفز على البذل، ويحذر من التراجع في آن واحد.

العلاقة بين هذا الوصف وسياق السورة:

لاحظ – يا صاحبي – أن السورة قبل هذه الآية كانت تعرض المنافقين والكافرين وتكشف أسباب هلا كهم .ثم يأتي الخطاب للمؤمنين .هذا الانتقال من الظلمة إلى النور، ومن التهديد إلى العتاب، يجعل المؤمن يفيق من غفلته ويقول: "الحمد لله أنني لست من أولئك، ولكن هل أنا على المستوى المطلوب من الإيمان؟" .إنه أسلوب قرآني فريد يجعل المؤمن يقيس نفسه على معايير دقيقة، فلا هو يأمن على نفسه فيغتر، ولا هو ييأس من رحمة الله فيقنط.

رسائل وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: وصف المؤمنين بالإيمان قبل العتاب هو تكريم إلهي، وتذكير بأنهم أهل للترقية لا للعقوبة.
• الرسالة النفسية: حين تشعر أن الله يعاتبك، فلا تيأس، بل افرح بأنه ما زال يعتبرك مؤمناً أهلا ً للخطاب.
• الرسالة التربوية: المربي الناجح يثبت المتربي على إيجابياته قبل أن ينقد سلبياته، ويجمعهما معاً في خطاب واحد.
• المهارة الحياتية: تعلم كيف تعاتب الآخرين بأسلوب يجمع بين تقدير مكانتهم وحثهم على الارتقاء.
• المهارة المعرفية: ادرس مواضع الخطاب بـ "الذين آمنوا" في القرآن، وتأمل كيف يختلف سياقها وأسلوبها.

المحور الثالث

}أن تخْشَعَ قلُوبُهُمْ{

الخشوع ...ذلك السر الإلهي الذي يجعل القلب ينحني لله وحده
حين يصبح القلب ميدان المعرفة ...وحين تتحول المعرفة إلى خشية

ماهية الخشوع: ليس مجرد دموع ...بل حالة قلبية شاملة

}أن تخشَعَ قلوبُهُمْ .{الخشوع في اللغة: السكون واللين والتذلل .وخشوع القلب: هو لينه وسكونه وخضوعه لله، بحيث يكون القلب ممتلئاً بالتعظيم والمحبة والوجل من الله.

ولكن هل الخشوع هو البكاء فقط؟ كلا! البكاء قد يكون علامة على الخشوع، لكن الخشوع أعمق وأشمل .الخشوع هو حالة قلبية دائمة، تظهر آثارها على الجوارح:

• خشوع القلب عند سماع القرآن: أن يتدبر ويتفهم ويتأثر.
• خشوع القلب عند رؤية آيات الله الكونية: أن يتفكر في عظمة الخالق وإبداعه.
• خشوع القلب عند تلقي النعم: أن يشعر بالامتنان والخضوع للمنعم.
• خشوع القلب عند تذكر أوامر الله ونواهيه: أن يمتثل بطواعية وحب.
• خشوع القلب عند الوقوف بين يدي الله في الصلاة: أن يستحضر عظمة الله فيسكن ويخضع.

الخشوع إذاً هو ثمرة من ثمرات الإيمان، وعلامة على حياة القلب .والقلب الذي لا يخشع هو قلب مريض أو ميت .ولذلك قال الله في وصف المؤمنين:} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا .{فالوجل هو الخوف المقترن بالتعظيم والمحبة، وهو قريب من الخشوع.

كيف يتولد الخشوع في القلب؟

الخشوع لا يأتي فجأة، بل هو ثمرة لعدة مقدمات:

.١المعرفة بالله: كلما عرفت الله أكثر، عرفت عظمته وجلاله، فخشعت له .المعرفة تورث المحبة، و المحبة تورث الخشية.

.٢التفكر في آيات الله:} وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .{التفكر يفتح للقلب أبواب المعرفة، ويقوده إلى الخشوع.

.٣تدبر القرآن: ليس المطلوب مجرد تلاوة القرآن، بل تدبره وفهم معانيه .وحين يتدبر المؤمن القرآن، يجد قلبه يلين ويخشع.

.٤دوام ذكر الله:} الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .{الذكر الدائم يبقي القلب حياً خاشعاً.

.٥مجاهدة النفس: الخشوع يحتاج إلى مجاهدة، لأن النفس بطبيعتها تميل إلى الغفلة .فعلى المؤمن أن يجاهد نفسه ليبقى خاشعاً.

الدلالة التربوية: الخشوع يحتاج إلى تدريب:

كما أن العضلات تحتاج إلى تمرين لتقوى، فالقلب يحتاج إلى تمرين ليخشع .تمرين القلب يكون بـ التعرض لموجبات الخشوع: تلاوة القرآن بتدبر، التفكر في آيات الله، قيام الليل، مجالسة الصالحين، البعد عن قساة القلوب.

رسائل وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: الخشوع ليس مجرد مشاعر، بل هو حالة إيمانية شاملة تجمع المعرفة بالله و المحبة له والخوف منه.
• الرسالة النفسية: القلب الخاشع هو القلب المطمئن .لا سعادة للقلب إلا بخشوعه لله.
• الرسالة التربوية: درب قلبك على الخشوع كما تدرب جسدك على الرياضة، بالتعرض لموجبات الخشوع والبعد عن مثبطاته.
• المهارة العملية: خصص وقتاً يومياً للتفكر في خلق الله، ووقتاً لتدبر القرآن، واجعل ذلك عادة ثابتة.
• المهارة المعرفية: تعلم كيف تفرق بين الخشوع الحقيقي الذي يغير السلوك، والتأثر العابر الذي لا يترك أثراً.

المحور الرابع

}لِذِكرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقّ{

شمول الذكر وخصوصية القرآن ...الفرق بين "ذكر الله" و"ما نزل من الحق"
كيف تنسجم الفطرة السليمة مع الحق المنزّل؟

}لِذِكرِ اللهِ{: شمول المفهوم واتساعه

دعنا نقف عند قوله تعالى:} لِذِكرِ اللهِ .{"ذكر الله" مفهوم واسع شامل، يدخل فيه كل ما يذكر بالله سبحانه وتعالى .إنه ليس مقصوراً على تلاوة القرآن فقط، ولا على التسبيح والتحميد فقط .إن ذكر الله يشمل:

١.القرآن الكريم: فهو الذكر الأعظم، والكتاب المبين .قال تعالى:} وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ.{

٢.آيات الله الكونية: وهي الآيات التي في السماوات والأرض، وفي خلق الإنسان، وفي المخلوقات كلها .كل ما في الكون يذكر بالله، ويدل على عظمته وإبداعه .فالفراشة التي تحمل ألوانها دلالات إبداع الخالق، والشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار، كلها آيات تذكر بالله.

٣.أوامر الله ونواهيه: حين تقرأ أمراً من أوامر الله، أو تنتهي عن نهي، فهذا من ذكر الله .لأنك تستحضر أمره ونهيه، وهذا يذكرك به.

٤.نعم الله الظاهرة والباطنة: حين ترى نعمة من نعم الله عليك، وتتذكر المنعِم، فهذا من ذكر الله . فذكر الله يكون باللسان، وبالقلب، وبالعمل، وبالحال.

إذن، فالمؤمن مطالب بأن يرى الله في كل شيء، وفي كل زمان ومكان .ليس هناك شيء في هذا الكون إلا وهو آية من آيات الله تذكر به .كما قال تعالى:} وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ.{

}وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقّ{: خصوصية القرآن بعد العموم

وهنا يأتي السؤال: إذا كان ذكر الله يشمل القرآن، فلماذا قال بعدها:} وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقّ{؟ هذا من عطف الخاص على العام، وفيه فوائد جليلة:

١.إبراز أهمية القرآن ومكانته الخاصة: القرآن هو الذكر الأعظم، وهو الحق اليقين، فخصه بالذكر بعد العموم تعظيماً لشأنه.

٢.التأكيد على أن القرآن حق: وصف القرآن بأنه "الحق" يعطيه قوة وثباتاً .فهو ليس مجرد كلام، بل هو كلام حق، يشهد بصحته كل من تدبره بقلب سليم .وفيه إشارة إلى أن ما فيه من أخبار وأحكام هو الحق الذي لا مرية فيه.

٣.توجيه الأنظار إلى معجزة القرآن الخالدة: بخلاف الكتب السابقة التي حُرّفت وطال عليها الأمد ففقدت تأثيرها، فإن القرآن باقٍ على حقه، متجدد في معجزاته، لا يبلى .فهو معجزة خالدة إلى يوم القيامة، تظهر فيه عظمة الله في كل عصر، ويكتشف العلماء في كل يوم حقائق جديدة قد ذكرها القرآن قبل 1400 عام.

٤.الإشارة إلى أن القرآن ينسجم مع الفطرة السليمة: "الحق" هو ما تشهد بصحته الفطرة السليمة التي لم تلوثها الانحرافات .فالقرآن حق، والفطرة السليمة تميل إليه وتتقبله .ولهذا قال الله عن أهل المعرفة:} وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقّ .{ فمعرفتهم بالحق دفعتهم للبكاء والخشوع.

٥.أن في القرآن شفاء لما في الصدور:} هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .{فهو يهدي القلوب إلى الطريق المستقيم، ويشفيها من أمراض الشبهات والشهوات.

العلاقة بين ذكر الله وما نزل من الحق:

ذكر الله هو المفهوم الأوسع الذي يشمل كل ما يذكر بالله .والقرآن هو رأس الذكر وأعلاه .فالمؤمن يخشع قلبه عند ذكر الله بأي صورة من صوره، ولكن أعلى صور الخشوع وأكملها هو الخشوع عند تلا وة القرآن وتدبره .وكما قال بعض السلف: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"، و"ذكر الله" يشمل هنا كل ما يذكر به، وفي مقدمته القرآن.

رسائل وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: مفهوم ذكر الله واسع يشمل كل ما يذكر به، من قرآن وآيات كونية وأوامر ونواهٍ ونعم.
• الرسالة النفسية: حين ترى آية كونية تدل على عظمة الله، فوقفت متأملا ً خاشعاً، فأنت في عبادة .لا تظن أن العبادة مقصورة على المسجد.
• الرسالة التربوية: ربِّ أبناءك على أن يروا الله في كل شيء حولهم، في الفراشة، في الشمس، في المطر، في كل آية.
• المهارة الحياتية: تعلم كيف تحول أي مشهد تراه في حياتك إلى ذكر لله وخشوع له.
• المهارة المعرفية: اقرأ في إعجاز القرآن العلمي، لتزداد يقيناً بأن ما نزل من الحق، وتزداد معرفة بعظمة الله.

المحور الخامس

}وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{

التحذير من قسوة القلوب ...عبرة التاريخ الذي لا ينبغي أن نكرره
كيف يتحول القلب الحي إلى قلب ميت؟ وكيف يقود الموت القلبي إلى الفسق؟

}وَلَا يَكُونُوا{: النهي الإلهي عن التشبه بأهل الكتاب

بعد أن حث الله المؤمنين على الخشوع، نهاهم عن أن يكونوا كأهل الكتاب .وهذا هو الأسلوب القرآني في التربية: الجمع بين الترغيب والترهيب، وبين الأمر والنهي، وبين ذكر النموذج الإيجابي و النموذج السلبي .فبعد أن بين لهم ما يريده منهم، بين لهم ما لا يريده لهم.

}كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ{: هم اليهود والنصارى، الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل .كانوا في البداية على شيء من الإيمان والاستقامة، ولكنهم انحرفوا .لماذا؟ لأن...

}فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ{: مرض القسوة القلبي

}طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ {أي طالت عليهم المدة الزمنية، وامتد بهم العمر، وتوالت عليهم الأيام .وطول الأمد في ذاته ليس مشكلة، ولكنه أصبح مشكلة حين أنساهم الله والدار الآخرة .ولهذا جاءت الفاء:} فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .{أي أن طول الزمن قادهم تدريجياً إلى قسوة القلوب.

وهذا تنبيه خطير للمؤمنين: أنتم أيضاً سيطول عليكم الأمد، وستمتد بكم الأيام، فإن لم تجددوا إيمانكم، وتجاهدوا أنفسكم على الخشوع، فسيصيبكم ما أصابهم .إن طول الزمن – إن لم يُصحب بتجديد الإيمان – يؤدي إلى:

١.تحول العبادات إلى عادات: فيصلي المؤمن لأن هذه عادته، لا لأنه يريد الوقوف بين يدي الله.
٢.موت الشعور بالرهبة من الآيات: تمر عليه آيات القرآن وآيات الكون، فلا يتحرك قلبه، لأنها أصبحت مألوفة لديه.
٣.تراكم الغفلة على القلب: الغفلة إذا طالت أصبحت غطاءً يمنع وصول النور إلى القلب.
٤.التبلد الحسي: فلا يعود يفرح بطاعة، ولا يحزن لمعصية.

}وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{: قسوة القلب تقود إلى الفسق

ثم تأتي نتيجة قسوة القلب: الفسق .الفسق هو الخروج عن الطاعة .والقلب القاسي لا يبالي بمعصية الله، لأنه فقد الحساسية تجاه الحق .وهكذا تبدأ القصة بغياب الخشوع، وتمر بقسوة القلب، وتنتهي بـ الفسق .إنها سلسلة خطيرة: طول الأمد ← قسوة القلب ← الفسق.

الوقاية من هذه السلسلة:

المؤمن يحتاج إلى حماية نفسه من هذه السلسلة .كيف؟

.١تجديد الإيمان باستمرار: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم" .فالإيمان يبلى كما يبلى الثوب، فيحتاج إلى تجديد.

.٢تزكية النفس ومجاهدتها:} قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا .{تزكية النفس تكون بالطاعات، وترك المعاصي، وتذكر الآخرة.

.٣عدم الأمان من مكر الله: لا تقل: "أنا مؤمن ولن يصيبني ما أصابهم" .فهذا شعور خطير قد يودي بك إلى الغرور.

.٤التعرض الدائم لموجبات الخشوع: لا تمر الأيام وأنت بعيد عن القرآن، أو بعيد عن التفكر في آيات الله.

رسائل وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: قسوة القلب ليست قدراً محتوماً، بل هي نتيجة طبيعية للغفلة وطول الأمد دون تجديد الإيمان.
• الرسالة النفسية: راقب قلبك باستمرار .هل ما زال يتأثر؟ هل ما زال يخشع؟ أم بدأ يقسو؟
• الرسالة التربوية: لا تسمح للزمن أن يحول عباداتك إلى عادات .جدد نيتك كل يوم، واجعل لكل عمل عبادة روحاً.
• المهارة الحياتية: ضع برنامجاً دورياً لتجديد إيمانك: خلوة أسبوعية، قراءة في الرقائق، محاسبة شهرية للنفس.
• المهارة المعرفية: ادرس أحوال بني إسرائيل في القرآن، لتعرف كيف انحرفوا، وكيف تتجنب ما وقعوا فيه.

المحور السادس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

.١إعادة تعريف العبادة والذكر:
الآية تدعونا إلى أن نعيد تعريف العبادة في حياتنا .العبادة ليست طقوساً جوفاء، بل هي حياة قلبية . ذكر الله ليس مجرد ألفاظ تقال، بل هو حضور قلب، وخشوع، ومعرفة .فلنخرج من عبادة العادة إلى عبادة العبادة.

.٢محاربة قسوة القلوب المعاصرة:
في عصرنا، تتعدد أسباب قسوة القلوب: الشاشات التي لا تنطفئ، ضجيج المدن، الانغماس في الماديات، طول الأمل، التسويف .هذه كلها عوامل تؤدي إلى قسوة القلب .الآية تدعونا إلى أن ننتزع أنفسنا من هذا الضجيج، لنخلو بالله، ونتدبر آياته.

.٣أدب تلقي آيات الله:
الآية تعلمنا أدب التعامل مع آيات الله، سواء كانت مقروءة) القرآن (أو مرئية) الكون .(علينا أن نقف منها موقف المتأمل المتعظ، لا موقف الغافل المار} .وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .{فلا نكن منهم.

.٤التوازن بين المزاح والجد:
في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت حين كثر المزاح بين الصحابة .وهذا لا يعني أن المزاح حرام، بل يعني أن لكل وقت مقتضاه .ساعة للمزاح، وساعة للجد والعبادة .لا ينبغي أن نعيش حياتنا كلها مزاحاً، فيقسو القلب .والمزاح قد يكون عبادة إن كان في وقته وبشروطه، وحين يحضر ما يستوجب التوقير والتعظيم، يجب أن نتوقف ونعظم.

رسائل وتوجيهات:

• علينا أن نعيش التوازن:} سَاعَةٌ لِقلبِكَ وَسَاعَةٌ لِرَبِّكَ.{
• لا تسمح للملهيات أن تملأ كل وقتك، فتميت قلبك.
• اجعل لكل يوم ورداً من التفكر والتدبر، بعيداً عن صخب الحياة.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: الإيمان ليس ثابتاً بل يتجدد ويزيد وينقص

الآية ترسخ مفهوماً فكرياً مهماً: الإيمان ليس حالة ثابتة في القلب، بل هو شيء يزيد وينقص، ويبلى ويحتاج إلى تجديد .المؤمن ليس معصوماً من الغفلة، بل هو معرّض لها .ولهذا يحتاج إلى العتاب و التذكير والتحفيز .هذا المفهوم يجعل المؤمن دائم المراقبة لنفسه، لا يأمن عليها، بل يخاف عليها من الزيغ.

المفهوم النفسي: الحساسية المفرطة تجاه قسوة القلب

الآية تبني في المؤمن حساسية مفرطة تجاه قسوة القلب .تجعله في حالة طوارئ دائمة: "هل قلبي ما زال حياً؟ هل ما زلت أتأثر؟" .هذه الحساسية هي التي تحميه من الانهيار .وكما أن الألم الجسدي يحمي الجسم) إذ ينبه لوجود خطر(، فالألم القلبي) الخوف من القسوة (يحمي القلب.

المفهوم التربوي: التربية على الخشوع مسؤولية الفرد والمجتمع

الآية تبين أن الخشوع ليس موهبة، بل هو مهارة تربوية تكتسب بالتدريب والمجاهدة .والمجتمع مسؤول عن تربية أفراده على الخشوع، من خلال إقامة مجالس الذكر، وتدبر القرآن، ونشر ثقافة التفكر في آيات الله.

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نعيش الخشوع لا أن نتظاهر به
الله يريد منا قلوباً خاشعة حقاً، لا جوارح خاشعة فقط .يريد أن تنتقل محبة الله وخشيته من العقل إلى القلب، ومن الظاهر إلى الباطن .يريدنا أن نكون صادقين في إيماننا.

الإرادة الثانية: أن ننظر إلى الوقت كرأس مال لا يعوض
}أَلَمْ يَأْنِ ...{يريد منا أن نستشعر قيمة الوقت، وألا نؤجل توبتنا، وألا ننتظر "الغد" الذي قد لا يأتي . الوقت يمضي، والقلب يقسو، فبادر قبل فوات الأوان.

الإرادة الثالثة: أن نقرأ التاريخ بعين الاعتبار
يريد منا أن ننظر في أحوال الأمم السابقة، لا للتسلية، بل للاعتبار .ماذا حدث لهم؟ طال عليهم الأمد فقست قلوبهم .فهل نريد أن نكون مثلهم؟ كلا! فلنجتهد ألا نكون منهم.

الإرادة الرابعة: أن نميز بين أوقات الجد وأوقاح المزاح
يريد منا التوازن .المزاح مباح، بل قد يكون مستحباً في وقته .ولكن يجب ألا يطغى على وقت الجد والعبادة، وألا يجعلنا نمر على آيات الله غافلين.

المحور التاسع

أبعاد الآية وآفاقها

البعد الإيماني: تجديد الإيمان
الآية تدعو إلى تجديد الإيمان باستمرار، فهو الذي يمنع قسوة القلب ويورث الخشوع.

البعد الأخلاقي: الصدق في العلاقة مع الله
الآية تؤسس لخلق الصدق مع الله، فلا يكون ظاهر الإنسان خشوعاً وباطنه غفلة.

البعد الحضاري: بناء حضارة القلوب الحية
حضارة تقوم على هذه الآية هي حضارة يخشع فيها العالم عند اكتشافه لآية كونية، ويخشع فيها القارئ عند تلاوة آية قرآنية، ويخشع فيها الغني والملك عند رؤية نعمة الله عليه .إنها حضارة القلوب الحية.

المحور العاشر

تحويل الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الخاشع
الآية تبني إنساناً قلبه حي، يخشع لله في كل لحظة .هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتوازن
مجتمع يتربى على هذه الآية سيكون مجتمعاً متوازناً، يمزج بين الجد والمزاح، وبين الدنيا والآخرة، وبين العمل والعبادة.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي لا تقسو بطول الزمن
الحضارة التي تخشع لله هي حضارة لا تقسو ولا تنحرف .إنها حضارة تجدد نفسها باستمرار بتجديد إيمانها.

المحور الحادي عشر

كيف تحول الآية إلى واقع معاش؟) المهارات الحياتية والمعرفية والعملية(

هذه الآية ليست مجرد نص يُتلى، بل هي برنامج عملي متكامل لبناء القلب الحي .وإليك المهارات التي تستخرجها منها:

المهارة الحياتية الأولى: مهارة محاسبة النفس واستثارة الهمة.
تعلم كيف تسأل نفسك كل يوم سؤال العتاب الإلهي: "ألم يأن لك أن تخشع؟" .اجعل هذا السؤال مفتاح يومك .اكتبه في مكان تراه، واجعله يقرع سمع قلبك كل صباح .لا تمر على آية كونية أو قرآنية دون أن تحاسب نفسك: "كيف كان موقف قلبي منها؟" .هذه المهارة تحميك من الغفلة، وتجعل إيمانك في حالة تجدد مستمر .وحين تجد في نفسك فتوراً، استخدم أسلوب الاستفهام العتابي مع نفسك؛ قل لها: "ألم يأن لك أن ترجعي؟ ألم يأن لك أن تتيقظي؟" .إن استثارة الهمة بهذا الأسلوب أنفع من جلد الذات، لأنه يجمع بين العتاب والأمل.

المهارة الحياتية الثانية: مهارة إدارة الوقت بين الجد والمزاح.
تعلم من الآية أن تنظم وقتك كما كان السلف: "ساعة لقلبك، وساعة لربك، وساعة لنفسك، وساعة لأ هلك" .ليس المطلوب أن تكون راهباً لا يمزح، بل المطلوب أن تملك الوقت ولا يملكك .إذا حضرت لحظة تذكر فيها بالله، فتوقف عن مزاحك وانظر فيها بخشوع .رأيت فراشة بديعة الألوان؟ قف وتأمل وقل: سبحان الله .سمعت آية قرآن تمر أمامك؟ أنصت وتدبر .إن هذه المهارة تجعلك تعيش عبداً لله في كل أوقاتك، لا في أوقات العبادة فقط .والمؤمن الذكي هو من يحول حتى أوقات مباحاته إلى طاعة، بأن يستحضر النية الصالحة في مزاحه، وبأن يعرف متى يتوقف.

المهارة المعرفية الأولى: مهارة التفكر في آيات الله الكونية والقرآنية.
تعلم كيف تقرأ كتاب الكون كما تقرأ كتاب القرآن .كلاهما آيات من الله .اخرج إلى الطبيعة وتفكر في خلق السماوات والأرض .افتح المصحف وتدبر آياته .إن هذه المهارة توسع مداركك، وتزيد معرفتك ب الله، وتورثك خشوعاً لا ينقطع .اقرأ في إعجاز القرآن العلمي، وتأمل كيف أن القرآن حق، ينسجم مع الفطرة ويشهد له العلم الحديث .وحين تقرأ عن اكتشاف علمي جديد، تذكر أن القرآن قد ذكره من قبل، فهذا يزيد إيمانك ويجعلك تخشع.

المهارة المعرفية الثانية: مهارة قراءة التاريخ للاعتبار.
تعلم كيف تقرأ قصص الأمم السابقة في القرآن، ليس كحكايات، بل كدروس .اسأل نفسك: "لماذا قست قلوبهم؟ وماذا أفعل لأتجنب ما وقعوا فيه؟" .إن هذه المهارة تجعلك تستفيد من تجارب الآخرين، فلا تكرر أخطاءهم .وتجعلك تخاف على نفسك من طول الأمد، فتبادر إلى تجديد إيمانك باستمرار.

المهارة العملية الأولى: مهارة تجديد الإيمان يومياً.
ضع لك برنامجاً لتجديد إيمانك: خصص ورداً من تدبر القرآن، وآخر من التفكر في خلق الله، وآخر من الذكر باللسان والقلب .اجعل لك جلسة محاسبة قبل النوم: كيف كان قلبي اليوم؟ هل خشع؟ هل قسا؟ إن تجديد الإيمان كتجديد الثوب، إن لم تفعل ذلك بلي إيمانك ورثّ.

المهارة العملية الثانية: مهارة تحويل العادة إلى عبادة.
تفقد عباداتك: هل صلاتك أصبحت عادة؟ هل صيامك أصبح روتيناً؟ إن وجدت ذلك، فاجتهد أن تستحضر نية جديدة، وتستشعر عظمة الله قبل كل عبادة، لتعود العبادة إلى روحها .وكذلك في مباحاتك: أكلت؟ استشعر نعمة الله .نمت؟ استشعر آية النوم .بهذا تتحول حياتك كلها إلى عبادة وذكر وخشوع.

خاتمة: خشوع اليوم ...نجاة الغد

أيها القارئ الكريم...

ها قد رافقنا هذه الآية الكريمة وهي تنفذ إلى أعماق قلوبنا، تقرع أسماعنا بسؤالها المهيب:} أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .{لقد رأينا فيها كيف أن الله يحبنا فيعاتبنا، وكيف يريد لقلوبنا أن تبقى حية خاشعة، وكيف حذرنا من طول الأمد الذي يقسي القلوب.

فلنأخذ هذا السؤال معنا أينما ذهبنا .ولنجعله نبراساً يضيء لنا دروب الحياة .ففي كل غفلة، نذكر به: "ألم يأن لك أن تخشع؟" .وفي كل تأجيل، نصرخ به: "ألم يأنِ لك أن تتوب؟" .وفي كل قسوة، نبكي به: "ألم يأنِ لقلبك أن يلين؟".

اللّهم اجعل قلوبنا خاشعة لك، منيبة إليك، وجلة منك، محبة لك .اللّهم جدد الإيمان في قلوبنا، ولا تجعلنا من الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكانوا فاسقين .وارزقنا يا ربنا أدب تلقي آياتك، واجعلنا من الذين إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق . برحمتك يا أرحم الراحمين
المبحث الثاني
تفسير الآيات (17-19) من سورة الحديد

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

حين ينزل الماء من السماء فتحيا الأرض الميتة... وحين ينزل القرآن فتحيا القلوب القاسية
وحين تتحول الصدقة إلى قرض لله يضاعف أضعافاً كثيرة... وحين يصير المؤمن صديقاً وشهيداً
رحلة من مشهد الأرض الميتة إلى مشهد القلب الحي... ومن آية الإنفاق إلى مقام الصديقية

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من سورة الحديد ومن جدلية حياة القلوب وموتها

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل ضرورية قبل أن نلج إلى رحاب هذه الآيات الثلاث الكريمة.

إنك الآن أمام استكمال للنسيج القرآني البديع الذي بدأناه في الآيات السابقة. لقد رأينا في الآية (16) ذلك السؤال الإلهي الذي يقرع سمع القلب المؤمن: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}. لقد عاتبنا ربنا عتاب المحب لحبيبه، وحذرنا من طول الأمد الذي يقسي القلوب، ونبهنا إلى أن قسوة القلب تقود إلى الفسق.

والآن، وبعد هذا العتاب وهذا التحذير، تأتي هذه الآيات الثلاث لترسم لنا طريق النجاة، وتفتح لنا أبواب الأمل. إنها لم تتركنا في خوف من قسوة القلوب دون أن تدلنا على الدواء. بل بينت لنا كيف تحيا القلوب، وما هي الوسائل التي تبقى بها طرية لينة خاشعة. إنها آيات تبين أن القلوب تمرض وتموت وتقسو، ولكن لها ربيعاً كما للأرض ربيع. وكما أن الله يحيي الأرض بعد موتها بالماء، فهو يحيي القلوب الميتة بالقرآن، ويزكيها بالإنفاق، ويرفعها إلى مقام الصديقية والشهادة.

إن هذه الآيات تنتقل بنا نقلة عظيمة: من مشهد التهديد والوعيد في السورة، إلى مشهد الرحمة و الوعد. بعد أن كشف الله لنا عن المنافقين وأسباب هلاكهم، وبعد أن عاتب المؤمنين على بطء استجابتهم... ها هو الآن يفتح أمامهم طريق الحياة. كأنه يقول لهم: "لا تخافوا من قسوة القلوب، فهذا هو الدواء، وهذه هي الحياة". إنه المنهج القرآني في التربية: يذكر الداء أولا ً، ثم يصف الدواء ، ليكون الدواء مقبولا ً ولتتشربه النفوس وهي في أشد الحاجة إليه.

وهكذا نجد أنفسنا أمام ثلاثة مشاهد مترابطة: مشهد إحياء الأرض الميتة بالماء (مثال حسي)، ومشهد إحياء القلوب بالإنفاق والتصديق (تطبيق عملي)، ومشهد الجزاء العظيم حيث يكون المؤمنون صديقين وشهداء (نتيجة إيمانية). إنها رحلة من ظاهر الأرض إلى باطن القلب، ومن مشهد الموت إلى مشهد الحياة، ومن بذل المال إلى نيل المقامات العالية.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآيات الثلاث. لا تمر عليها مروراً عابراً، بل تأملها، واجعلها تلامس قلبك وعقلك:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

١.المثال التربوي لإحياء الأرض:} اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ...{مشهد حسي يخاطب العقول والقلوب معاً، ليبين أن الله الذي يحيي الأرض بعد موتها قادر على إحياء القلوب.

٢.بيان أن القرآن ماء القلوب: كما أن الماء ينزل من السماء فيحيي الأرض الميتة، فالقرآن ينزل من السماء فيحيي القلوب الميتة .هذه هي الوسيلة الأولى لحياة القلوب.

٣.أهمية العقل في تلقي الآيات:} لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ...{إشارة إلى أن الانتفاع بهذه الآيات إنما هو لأصحاب العقول المستنيرة، الذين يتفكرون ويتدبرون.

٤.الوسيلة الثانية لحياة القلوب: الصدقة والإنفاق:} إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ...{الإنفاق يزكي النفس ويزيل عنها غطاء الشح، ويفتح للقلب أبواب الحياة.

٥.مضاعفة الأجر والثواب:} يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ...{وعد كريم من الله للمنفقين.

٦.مقام الصديقية والشهادة:} أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ...{ثمرة الإيمان والإنفاق، و الوصول إلى أعلى المقامات.

٧.مصير المكذبين:} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ...{في مقابل مصير المؤمنين، يأتي مصير الكافرين، ليكتمل المشهد.

مقاصد الآيات وأهدافها:

١.تعليم المؤمنين أن القلوب تحيا بالقرآن كما تحيا الأرض بالماء.
٢.الحث على تدبر القرآن والتفكر في آيات الله، فذلك حياة القلوب.
٣.الحث على الصدقة والإنفاق، فهي تزكي النفس وتطهر القلب.
٤.بيان أن الإيمان الصادق يوصل صاحبه إلى مقام الصديقية والشهادة.

.٥ربط حياة القلوب بخشية الله، وأن أهل العلم هم الذين يخشون الله حقاً.
.٦إقامة الحجة على المعرضين، وأن مصيرهم الجحيم.

المحور الأول

{اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}

المشهد الذي يخاطب العقول والقلوب... كيف تحيا الأرض الميتة وكيف تحيا القلوب القاسية؟
المثال كأسلوب تربوي... تقريب الحقائق الغيبية بالمشاهد الحسية

وقفة مع الأسلوب: {اعْلَمُوا}... الأمر الإلهي الذي يفتح العقل

دعنا نقف – يا صاحبي – عند هذه الكلمة الافتتاحية البديعة: {اعْلَمُوا}. إنه فعل أمر، يدعو إلى العلم والمعرفة. ولكن العلم المطلوب هنا ليس مجرد علم ذهني جاف، بل هو علم يقود إلى اليقين، ويقود إلى العمل. {اعْلَمُوا} أي تيقنوا وأيقنوا، واجعلوا هذه الحقيقة حاضرة في أذهانكم وقلوبكم.

وهذا الأمر – {اعْلَمُوا} – هو افتتاح لافت للنظر، لأنه جاء بعد آية العتاب (ألم يأن). فكأن الله يقول لعباده المؤمنين: "بعد أن عاتبتكم على قسوة قلوبكم، ها أنا ذا أعلمكم كيف تحيا هذه القلوب". انتقل من أسلوب الاستفهام العتابي إلى أسلوب الأمر التعليمي. وهذا الانتقال ينقل المؤمن من موقف المتلقي للتوبيخ إلى موقف المتلقي للعلم، فيفتح ذهنه وقلبه لما سيأتي.

{أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}: المثال الحسي الذي يخاطب العقول

والآن تأمل هذا المثال القرآني العظيم: {أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}. إنه مشهد يراه الناس بأعينهم في كل عام: الأرض الجدباء القاحلة الميتة، التي تصدعت وتشققت، ولم يعد فيها أثر للحياة. فجأة... ينزل المطر من السماء. وإذا بالأرض تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج. تتحول من صفراء يابسة إلى خضراء مخضرة. ينقلب الموت حياة، والجدب خصوبة، والقسوة ليناً.

وهذا المشهد ليس مجرد وصف طبيعي، بل هو آية من آيات الله، ومثال يقرّب الحقيقة الغيبية. فما هي هذه الحقيقة الغيبية؟

إنه قياس بديع: الأرض الميتة تُحيى بالماء... والقلوب الميتة تُحيى بالقرآن. وكما قال سبحانه في موضع آخر: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}. وقال: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا}. فالماء في الآيات هو القرآن، والأرض الميتة هي القلوب القاسية. وكما أن الماء ينزل من السماء فيحيي الأرض، فالقرآن ينزل من السماء فيحيي القلوب.

أهمية المثال كأسلوب تربوي:

هذا المثال ليس مجرد تزيين للكلام، بل هو أسلوب تربوي قرآني أصيل. والأمثلة في القرآن تقرب الحقائق الغيبية إلى العقول البشرية من خلال المشاهد الحسية. فالناس يرون بأعينهم كيف تحيا الأ رض بعد موتها، فيمكنهم أن يفهموا كيف تحيا القلوب بعد موتها. هذا هو جوهر التربية: الانتقال من المحسوس إلى المعقول، ومن المعلوم إلى المجهول، ومن المشاهد إلى الغائب.

والمثال هنا يخاطب مشاعر المؤمنين وأحاسيسهم وعقولهم معاً. إنه يحرك فيهم الأمل: إذا كانت الأ رض الميتة تعود إليها الحياة... فقلوبكم أيضاً يمكن أن تعود إليها الحياة. ليس هناك قلب مات لا يمكن أن يحييه الله. فكما أن المطر يحيي الأرض الهامدة، فالقرآن يحيي القلوب القاسية. هذا المثال يزرع الأمل في النفوس، ويقطع اليأس، ويدفع إلى العمل.

{قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ}: الإشارة إلى وضوح الحجة

{قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ}... "قد" للتحقيق والتوكيد. "بينا" أي وضحنا وأظهرنا. "الآيات" هنا تشمل الآيات الكونية (كإحياء الأرض) والآيات القرآنية (ما نزل من الحق). والمعنى: لقد أقمنا لكم الحجج، ووضحنا لكم الأدلة، وما تركنا لكم عذراً. الآيات بينة واضحة، ولكن...

{لَعَلَّكُمْ تعْقِلُونَ}: ربط حياة القلوب بالعقل المستنير

وهنا يأتي التعقيب المهم: {لَعَلَّكُمْ تعْقِلُونَ}. "لعل" للترجي، أي أن الله بين الآيات لأجل أن تعقلوا وتتفكروا وتتدبروا. وهذا يبين أن حياة القلوب مرتبطة بالعقل. القلب الحي يسكن في صدر إنسان يعقل. أما القلب الميت فهو في صدر إنسان غافل لا يعقل.

وليس المقصود بـ "العقل" هنا مجرد الذكاء أو القدرة على التحليل المنطقي. بل المقصود العقل المستنير بنور الوحي، العقل الذي يتفكر في آيات الله في الكون والقرآن، العقل الذي يقوده التفكير إلى اليقين، واليقين إلى الخشوع. وهذا هو عين ما قاله سبحانه في ختام هذه الآيات: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} (من سورة فاطر). فالعلماء الحقيقيون هم الذين استعملوا عقولهم في التفكر في آيات الله، فوصلوا إلى معرفة الله، فأورثتهم هذه المعرفة خشية الله وخشوع القلوب.

وهكذا نرى تلاحماً بين آية "ألم يأن" وآية "اعلموا". في الأولى عاتبهم على عدم الخشوع، وفي الثانية بين لهم طريق الخشوع: إنه التفكر والتعقل. فالقلب لا يخشع إلا إذا عقل صاحبه وتفكر. ولهذا قال بعض السلف: "من كان بالله أعرف، كان منه أخوف". وقال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}.

كيف تحيا القلوب بالقرآن؟

الآن نصل إلى لب الرسالة: كما أن الماء يحيي الأرض، فالقرآن يحيي القلوب. كيف ذلك؟

١.القرآن يزيل غشاوة القلب:} أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .{تدبر القرآن يفتح أقفال القلب ويزيل الغطاء الذي يحجب عنه نور الله.

٢.القرآن يلين القلب:} ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .{التعرض للقرآن يورث اللين بعد القسوة.

٣.القرآن يهدي القلب:} هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .{يهدي القلب إلى الحق، ويشفيه من الشبهات و الشهوات.

٤.القرآن يطمئن القلب:} أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .{ذكر الله يشمل القرآن، والقلب المطمئن هو القلب الحي.

الوسيلة الأولى لحياة القلوب: تلاوة القرآن وتدبره

الآية تدلنا على أن الوسيلة الأولى لحياة القلوب هي القرآن. علينا أن نتلوه ونتفكر في معانيه ونتدبره ونتفهم مراد الله منه. وعندها يكون القرآن نوراً للقلوب وحياة لها، ويزيل عنها الغشاوة. وكما أن المطر ينزل فيشق الأرض ويخرج منها النبات، فالقرآن يشق القلب القاسي ويخرج منه الخشوع والإ يمان.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: القلوب تحيا بالقرآن كما تحيا الأرض بالماء. هذه سنة إلهية مطردة، فمن طلب حياة قلبه فليلزم القرآن.
• الرسالة النفسية: لا تيأس من قسوة قلبك. الأرض الميتة يعيدها الله حية، وكذلك قلبك يمكن أن يعود حياً.
• الرسالة التربوية: استخدم الأمثلة الحسية في تربية أبنائك، فهي أقرب إلى الفهم وأبلغ في التأثير.
• المهارة الحياتية: تعلم كيف تقيس الغائب على الشاهد. عندما ترى الربيع يكسو الأرض بعد موتها، تذكر أن القرآن يفعل بقلبك مثل ذلك.
• المهارة العملية: خصص ورداً يومياً من القرآن بتدبر، واجعله وسيلتك لإحياء قلبك.
• المهارة المعرفية: اقرأ في كتب التفسير والتدبر، لتتعرف على معاني القرآن وتتفهم مراد الله، فيحيا قلبك.

المحور الثاني

{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}

الوسيلة الثانية لحياة القلوب... الصدقة والإنفاق في سبيل الله
حين يصبح المال وسيلة لتزكية النفس وإزالة أغطية الشح عن القلب

{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ}: تخصيص المزكين بالذكر بعد العموم

بعد أن بين الله الوسيلة الأولى لحياة القلوب (القرآن والعقل)، جاء إلى الوسيلة الثانية: الصدقة والإنفاق. قال تعالى: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ}. و"المصدقين" جمع "مُصَدِّق"، وهو من يتصدق أو يزكي. وقد أفردت الآية النساء مرة أخرى بالذكر مع الرجال، تكريماً لهن، كما في الآيات السابقة. {الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ} رجالاً ونساءً، الجميع مدعوون إلى التصدق.

لماذا الصدقة وسيلة لحياة القلوب؟

الصدقة ليست مجرد بذل مال، بل هي تطهير للنفس وتزكية للقلب. اسم "المصدق" مشتق من الصدقة ، وهو أيضاً مشتق من التصديق، لأن المتصدق يصدق إيمانه بفعله. والتصدق يزكي النفس من الشح والبخل، وهما من أمراض القلوب القاتلة. قال تعالى: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}. وقال: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}.

فالصدقة تزيل عن القلب أغطية الشح والحرص على الدنيا، وتجعله ليناً متفتحاً لنور الله. ولهذا قال بعض السلف: "إن من عقوبات الذنوب قسوة القلب، وإن من أسباب حياة القلوب الصدقة". فالمنفق الذي يخرج المال – وهو شقيق الروح – إنما يتدرب على التخلص من حب الدنيا، وهذا يجعل قلبه حراً طليقاً، متصلاً بالله.

{وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}: الصدقة قرض لله

تأمل هذا التعبير القرآني الرقيق: {وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}. إنه يصف الصدقة بأنها قرض لله! والله سبحانه وتعالى غني عن العالمين، لا يحتاج إلى أموالهم. ولكنه يريد أن يشرفهم بهذا الوصف. إنه ينزل إلى مستوى عباده، ويقول لهم: "أنفقوا، فإن ما تنفقونه هو قرض تعطونني إياه، وأنا سأرده لكم أضعافاً مضاعفة".

"القرض الحسن" هو ما كان خالصاً لوجه الله، من مال حلال طيب، دون منّ ولا أذى. وقيل: هو ما كان من المال المحبوب إلى النفس، لا من رديء المال. ووصف القرض بأنه "حسن" يدل على أن الصدقة ليست مجرد إخراج مال، بل هي عبادة تحتاج إلى إحسان النية وإحسان المال وإحسان الأسلوب.

{يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}: وعد بالمضاعفة

{يُضَاعَفُ لَهُمْ} أي يضاعف الله لهم أجرهم أضعافاً كثيرة. وفي آية أخرى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ}. إنه كرم الله الذي لا حدود له. تعطي درهماً، فيرده الله لك بسبعمائة درهم، بل بأكثر.

{وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} أي فوق المضاعفة، لهم أجر كريم، أي حسن جميل، لا كدر فيه ولا منة، وهو الجنة والرضوان. وهذا الأجر الكريم هو الذي يجعل الإنفاق سهلاً على النفس، لأنها تعلم أن ما تتركه من مال الدنيا سيعود إليها أضعافاً في الآخرة.

العلاقة بين الصدقة وحياة القلب:

الصدقة تزكي النفس، والنفس المزكاة قلبها حي. الصدقة تقضي على الشح، والشح هو موت القلوب. الصدقة تفتح للقلب أبواب النور، وتمنع عنه أغطية الظلمة. لهذا كانت الصدقة وسيلة من وسائل حياة القلوب، وهي الوسيلة الثانية بعد القرآن.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: الصدقة ليست نقصاً للمال، بل هي نماء له في الدنيا والآخرة، وهي حياة للقلب وتزكية للنفس.
• الرسالة النفسية: إذا شعرت بقسوة في قلبك، فتصدق. فالصدقة تلين القلب وتذهب قسوته.
• الرسالة التربوية: درب أبناءك على الصدقة منذ الصغر، لينشأوا بقلوب حية سخية.
• المهارة الحياتية: اجعل لك في كل يوم أو أسبوع صدقة، ولو قليلة، فهي تحيي قلبك وتقربه من الله.
• المهارة العملية: تعلم كيف تبحث عن المحتاجين لتتصدق عليهم، فالإنفاق يحتاج إلى همة وبحث.

المحور الثالث

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}

ثمرة الإيمان والإنفاق... مقام الصديقية والشهادة
وكيف تصل القلوب الحية إلى أعلى عليين

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}: من هم الصديقون؟

بعد أن ذكر الله وسيلتي حياة القلوب: القرآن (في الآية ١٧)، والصدقة (في الآية ١٨)، ذكر هنا الثمرة والنتيجة. {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}. "الذين آمنوا" هم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فآمنوا بالله ورسله، وتدبروا القرآن، وأنفقوا أموالهم. هؤلاء هم "الصديقون".

والصديق: هو كثير الصدق، الذي يصدق في إيمانه، ويصدق في عمله، ويصدق في كل أحواله. وهو الذي يصدق الخبر ويحققه، فلا شك عنده ولا تردد. و"الصديقية" هي أعلى مقامات الإيمان بعد النبوة. وقد سمي أبو بكر رضي الله عنه "الصديق" لأنه بادر إلى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به.

{وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ}: مقام الشهادة

{وَالشُّهَدَاءُ} معطوف على {الصِّدِّيقُونَ}، أي أنهم جمعوا بين مقام الصديقية ومقام الشهادة. والشهداء هم الذين يشهدون يوم القيامة على الأمم، وهم الذين استشهدوا في سبيل الله. ودرجتهم تلي درجة الصديقين. {عِندَ رَبِّهِمْ} أي في جواره وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهذا أعظم ما في جزائهم: أنهم عند ربهم.

{لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}: الجزاء الوافي

{لَهُمْ أَجْرُهُمْ} أي أجرهم كامل غير منقوص. {وَنُورُهُمْ} أي نورهم الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم القيامة. وهذا يربطنا بما سبق في أول السورة من آيات النور. فهؤلاء هم أصحاب النور الحقيقي يوم القيامة.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}: الوجه المقابل

وكما هو المنهج القرآني في الجمع بين الوعد والوعيد، ختمت الآيات بذكر مصير الكافرين المكذبين: {أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}. هم أصحاب النار وملازموها، لا يخرجون منها. وفي هذا تذكير بأن من لم يحيا قلبه بالقرآن والصدقة، فسيصير إلى هذا المصير.

أقسام القلوب في ضوء هذه الآيات:

من خلال هذه الآيات الثلاث وما سبقها، يمكننا أن نستخلص أقسام القلوب:

١.القلب الحي: وهو قلب المؤمن الصادق، الذي خشع لله، وتدبر القرآن، وأنفق ماله .هذا القلب هو الذي يصل إلى مقام الصديقية .وهو القلب الذي وصفه الله بأنه يخشع لذكر الله وما نزل من الحق.

.٢القلب المريض: وهو قلب المنافق، الذي فيه شك ونفاق .وقد سبق وصفه في الآيات السابقة.

.٣القلب الميت: وهو قلب الكافر، الذي قسا وطبع الله عليه .وهو الذي لا ينتفع بالآيات ولا يتدبر القرآن.

وقد بينت الآيات أن القلب الميت يمكن أن يحييه الله بالقرآن والصدقة. فلا ييأس أحد من رحمة الله. الأرض الميتة تحيا بالماء، والقلوب الميتة تحيا بالقرآن.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: من جمع بين الإيمان والإنفاق وصل إلى مقام الصديقية، وهو أعلى مقام بعد النبوة.
• الرسالة النفسية: لا تظن أن الصديقية مقام بعيد المنال. كلما زدت إيماناً وصدقاً وإنفاقاً، اقتربت من هذا المقام.
• الرسالة التربوية: رب أبناءك على حب الصديقية والشهادة، وحدثهم عن سير الصديقين والشهداء.
• المهارة الحياتية: اسأل نفسك: أين أنا من مقام الصديقية؟ أين أنا من مقام الشهادة؟ واجعل هذه الأ سئلة دافعاً لك للارتقاء.
• المهارة المعرفية: اقرأ في سير الصديقين والشهداء، لتتعرف على صفاتهم وأعمالهم، وتقتدي بهم.

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

.١إحياء القلوب بالقرآن في عصر الماديات:
في عصر طغيان الماديات، الآيات تدعونا إلى أن نعود إلى القرآن، فهو الماء الذي يحيي قلوبنا في صحراء الحياة. كم منا اليوم يشعر بقسوة في قلبه؟ العلاج في القرآن.

.٢تعزيز ثقافة الصدقة والإنفاق:
الآيات تدعونا إلى أن نجعل الصدقة جزءاً من حياتنا اليومية، لا أن تكون عملا ً موسمياً. الصدقة تزكي النفس وتطهر المال وتحيي القلب.

.٣استثمار الأمثلة الحسية في التعليم والتربية:
الآية علمتنا كيف نستخدم الأمثلة الحسية في تقريب المعاني. فعلينا أن نستخدم هذا الأسلوب في تربية أبنائنا وتعليمهم.

.٤التذكير بأن العلم الحقيقي يقود إلى الخشية:
{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}. العلم الذي لا يقود إلى خشية الله هو علم ميت. فعلينا أن نربط تعليمنا بالتربية الإيمانية.

رسائل وتوجيهات:

• لا تسمح للماديات أن تقسي قلبك. ارجع إلى القرآن.
• اجعل لك يداً في الصدقة، ففيها حياة قلبك.
• كن عالماً يخشى الله، لا عالماً يقسو قلبه.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: القلوب تحيا وتموت كما تحيا الأرض وتموت

الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً عظيماً: أن القلوب كالأرض، تمرض وتموت وتقسو، ولكن لها ربيعاً. وكما أن الماء يحيي الأرض، فالقرآن يحيي القلوب. وهذا المفهوم يمنح المؤمن أملا ً، ويجعله يبحث عن وسائل إحياء قلبه.

المفهوم النفسي: التزكية المستمرة للنفس
الآيات تبني مفهوماً نفسياً: أن النفس تحتاج إلى تزكية مستمرة. والصدقة والإنفاق من أعظم وسائل التزكية. النفس التي لا تزكى تصدأ وتقسو وتموت.

المفهوم التربوي: استخدام الأمثلة الحسية في التربية
الآية تقدم نموذجاً تربوياً رفيعاً: الانتقال من المحسوس إلى المعقول. وهذا الأسلوب هو الذي ينبغي أن نتبعه في تعليمنا وتربيتنا.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نعي أن القرآن هو حياة القلوب
الله يريد منا أن نوقن بأن القرآن هو دواء قسوة القلوب، وأن نتدبره ونتفهم معانيه، ليكون نوراً لنا وحياة.

الإرادة الثانية: أن نكثر من الصدقة والإنفاق
يريد منا أن ننفق في سبيله، فهذا يزكي أنفسنا ويحيي قلوبنا.

الإرادة الثالثة: أن نرتقي إلى مقام الصديقية
يريد منا أن نكون صادقين في إيماننا، صادقين في عملنا، صادقين في إنفاقنا، حتى نصل إلى مقام الصديقين.

الإرادة الرابعة: أن نفرق بين الأحياء والأموات من القلوب
يريد منا أن نميز بين القلب الحي والقلب الميت، لنسعى إلى أن نكون من أصحاب القلوب الحية.

المحور السابع

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد الإيماني: ربط حياة القلوب بالإيمان والعمل
الآيات تربط حياة القلوب بالإيمان والقرآن والإنفاق. وهذا البعد الإيماني هو الذي يبني الإنسان.

البعد الأخلاقي: تزكية النفس من الشح
الآيات تعالج خلق الشح الذي هو من أسباب قسوة القلوب، وتدعو إلى السخاء والكرم.

البعد الحضاري: بناء مجتمع القلوب الحية
حضارة الإسلام هي حضارة القلوب الحية، التي تخشع لله، وتتدبر القرآن، وتنفق في سبيل الله. هذه الحضارة لا تقوم على الماديات وحدها، بل على حياة القلوب.

المحور الثامن

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الحي القلب

الآيات تبني إنساناً قلبه حي، يخشع لله، ويتدبر القرآن، وينفق ماله. هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتراحم
مجتمع يقرأ هذه الآيات سيكون مجتمعاً تسوده الرحمة والصدقة والتكافل، مما يجعله مجتمعاً حياً قوياً.

المسار الثالث: بناء الحضارة المتصلة بالله
حضارة تبنى على هذه الآيات هي حضارة متصلة بالله، لا تقسو ولا تجفو، بل تظل حية طرية بذكر الله والصدقة.

المحور التاسع

كيف تحول الآيات إلى واقع معاش؟ (المهارات الحياتية والمعرفية والعملية)

هذه الآيات ليست مجرد نصوص تقرأ، بل هي خريطة عملية لحياة القلوب. وإليك المهارات التي تستخرجها منها:

المهارة الحياتية الأولى: مهارة قياس أحوال القلب على أحوال الأرض.
تعلم أن تنظر إلى قلبك كما تنظر إلى الأرض. الأرض تحتاج إلى ماء لتحيا، وكذلك قلبك يحتاج إلى قرآن ليحيا. في كل مرة ترى فيها المطر ينزل، أو ترى الأرض تخضر بعد جدب، تذكر أن قلبك يحتاج إلى غيث القرآن. هذه المقارنة الحسية تجعل الغيب ماثلاً أمام عينيك، وتساعدك على تذكر الدواء كلما رأيت الداء. اجعل مشاهد الطبيعة من حولك تذكرة دائمة لك بحال قلبك وحاجته إلى الله.

المهارة الحياتية الثانية: مهارة استخدام الأمثلة في التربية والتعليم.
تعلم كيف تشرح المفاهيم المعنوية بأمثلة حسية. إذا أردت أن تعلم ابنك أهمية القرآن، اشرح له قصة الأرض الميتة والماء. قل له: "قلبك مثل هذه الأرض، والقرآن مثل هذا الماء. إذا قرأت القرآن بتدبر أصبح قلبك أخضر حياً". هذا الأسلوب يرسخ المعاني في النفوس أكثر من الكلام النظري المجرد.

المهارة الحياتية الثالثة: مهارة تحويل المال إلى وسيلة لتزكية النفس.
تعلم كيف تستخدم مالك في تزكية نفسك لا في إهلاكها. كلما أنفقت في سبيل الله، استشعر أن هذا الإنفاق يزيل عن قلبك غطاء الشح، ويفتح له أبواب النور. الصدقة ليست مجرد إخراج مال، بل هي رياضة للنفس على الكرم، ودواء للقلب من البخل. ضع لك برنامجاً للصدقة اليومية أو الأسبوعية، واجعلها عبادة قلبية قبل أن تكون عبادة مالية.

المهارة المعرفية الأولى: مهارة فهم العلاقة بين العلم والخشية.
تعلم أن العلم الذي لا يقود إلى خشية الله هو وبال على صاحبه. اقرأ في العلم الشرعي والعلم الكوني، واجعل هدفك من كل علم أن تزداد معرفة بالله، فتقودك المعرفة إلى الخشية، وتقودك الخشية إلى الخشوع. وكلما تعلمت شيئاً جديداً، اسأل نفسك: هل زادني هذا علماً بالله؟ هل قربني من خشيته؟ فإن لم يفعل، فراجع طريقة تعلمك.

المهارة المعرفية الثانية: مهارة التفكر في آيات الله الكونية.
تعلم كيف تتفكر في آيات الله في الكون. انظر إلى السماء كيف رفعت، وإلى الأرض كيف سطحت، وإلى المطر كيف ينزل، وإلى النبات كيف ينبت. هذا التفكر يفتح بصيرتك، ويزيد إيمانك، ويجعل قلبك يخشع لله. لا تمر على آية كونية مرور الغافلين، بل قف وتأمل وسبح.

المهارة العملية الأولى: مهارة تدبر القرآن يومياً.
خصص وقتاً يومياً لتدبر القرآن، ولو كان آية واحدة. اقرأ تفسيرها، وتفكر في معانيها، واسأل نفسك: ماذا يريد الله مني في هذه الآية؟ اجعل هذا الوقت هو "سقي قلبك" اليومي. فكما أن النبات يحتاج إلى سقي يومي ليبقى حياً، فقلبك يحتاج إلى سقي يومي بالقرآن ليبقى حياً.

المهارة العملية الثانية: مهارة الصدقة اليومية.
اجعل لك في كل يوم صدقة، ولو كانت شيئاً يسيراً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اتقوا النار ولو

بشق تمرة". هذه الصدقة اليومية تبقي قلبك طرياً سخياً، وتمنع عنك قسوة الشح. والأفضل أن تكون الصدقة سراً، ليكون ذلك أدعى للإخلاص وأدعى لحياة القلب.

المهارة العملية الثالثة: مهارة ربط حياة القلب بخشية الله عند التعلم.
كلما جلست لتتعلم علماً، استحضر نية التقرب إلى الله، واطلب منه أن يرزقك خشيته. تعلم وأنت تستشعر أن العلم الحقيقي هو ما يقودك إلى الله. اسأل الله قبل كل درس أن يرزقك علماً نافعاً وقلباً خاشعاً.

خاتمة: من موت الأرض إلى حياة القلوب

أيها القارئ الكريم...

لقد انتهت رحلتنا مع هذه الآيات الثلاث الكريمة، ولكن رسالتها ينبغي ألا تنتهي في قلبك. لقد رأينا كيف أن الله يحيي الأرض بعد موتها، ورأينا كيف أن هذه الآية في الآفاق هي آية في الأنفس: القلوب تحيا بالقرآن كما تحيا الأرض بالماء. ورأينا كيف أن الصدقة تزكي النفس وتحيي القلب. ورأينا كيف أن ثمرة ذلك كله هي مقام الصديقية والشهادة، ذلك المقام الذي يصل إليه أصحاب القلوب الحية.

فلنأخذ هذا الدرس معنا في كل يوم: أن قلوبنا تحتاج إلى غيث كما تحتاج الأرض إلى غيث. وغيث القلوب هو القرآن. وأن قلوبنا تحتاج إلى تزكية، وتزكيتها بالصدقة والإنفاق. ولنعلم أننا إذا فعلنا ذلك، فسنكون من الصديقين والشهداء عند ربنا، لنا أجرنا ونورنا.

وأن الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، فأولئك أصحاب الجحيم. فلنختر أي الفريقين نكون.
المبحث الثالث
تفسير الآية (20) من سورة الحديد

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

حين تكشف حقيقة الدنيا... فتنكشف معها أسباب قسوة القلوب
وحين يُخاطب العقل ليرى ما وراء الزينة... فيختار بين فناء الدنيا وبقاء الآخرة
وحين يذبل الزرع ويصير حطاماً... تنكشف حقيقة كل ما اغتر به البشر

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من سورة الحديد ومن جدلية حقيقة الدنيا وعلاقتها بمرض القلوب

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل ضرورية قبل أن ندخل إلى رحاب هذه الآية العظيمة، التي قال عنها بعض السلف: "ما أنزل الله آية أشد تقريعاً للدنيا وأهون لشأنها من هذه الآية". إنك الآن تقف أمام مشهد من أروع مشاهد القرآن في كشف حقيقة الدنيا وزيف بريقها. لقد مضت بنا السورة تعالج قضية القلوب المريضة والقاسية والميتة، وبينت لنا وسائل حياة القلوب من قرآن وصدقة وخشوع. وها نحن الآن نصل إلى آية تكشف لنا أحد الأسباب الرئيسية لقسوة القلوب: إنه التعلق بالدنيا والاغترار بزينتها.

تأمل – يا صاحبي – موقع هذه الآية في سياق السورة. لقد جاءت بعد الحديث عن المنافقين وأسباب هلاكهم، وبعد عتاب المؤمنين على بطء خشوعهم، وبعد بيان وسائل إحياء القلوب. ثم تأتي هذه الآية لتشخص الداء: إن الذي يقسي القلوب ويجعلها لا تخشع هو التعلق بالحياة الدنيا وزينتها. إنها آية تكشف العلاقة العضوية بين حب الدنيا وقسوة القلوب. فمن تعلق بالدنيا قسا قلبه عن ذكر الله، ومن زهد في الدنيا رق قلبه وخشع.

وقد افتتحت الآية بقوله تعالى: {اعْلَمُوا}، وهو خطاب للعقل أولاً. إن الله يريد منا أن نستخدم عقولنا لندرك حقيقة الدنيا، لا أن ننجرف وراء عواطفنا وشهواتنا. ثم ترسم الآية لوحة فنية بلاغية متكاملة، تصف الدنيا بخمسة أوصاف متدرجة: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر. هذه الأوصاف الخمسة هي مراحل حياة الإنسان في الدنيا، منذ الطفولة حتى الشيخوخة، أو هي مراحل تطور

التعلق بالدنيا في قلب الإنسان. ثم تختم الآية بمثال زراعي بديع، يرسم صورة بصرية مؤثرة عن سرعة زوال الدنيا وفنائها.

ثم يأتي التعقيب الإلهي: {وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}. إنه تحقير كامل للدنيا، وتنبيه إلى أنها متاع مؤقت، وأن الاغترار بها هو عين الغرور. وفي مقابل ذلك، تذكر الآية أن في الآخرة عذاباً شديداً ومغفرة من الله ورضواناً. فليختر العاقل لنفسه.

وهكذا تكتمل اللوحة: الدنيا بكل زينتها وزخرفها... ثم الآخرة بما فيها من جزاء. والعاقل هو الذي يوازن بينهما فيختار ما يبقى على ما يفنى.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآية الكريمة. لا تمر عليها مروراً عابراً، بل تأملها، واجعلها تلامس قلبك وعقلك:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

١.مخاطبة العقل أولاً: {اعْلَمُوا ...}خطاب للعقل ليدرك حقيقة الدنيا، لأن إدراك هذه الحقيقة هو أساس علاج قسوة القلوب.

٢.الأوصاف الخمسة للدنيا:) لعب، لهو، زينة، تفاخر، تكاثر (وهي مراحل عمر الإنسان في الدنيا، ومراحل تطور التعلق بها.

٣.التصوير البلاغي الزراعي:} كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ...{ مشهد بصري مؤثر عن سرعة زوال الدنيا.

٤.الموازنة بين الدنيا والآخرة:} وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ...{بيان أن العاقل هو الذي يختار مغفرة الله ورضوانه على متاع الدنيا الزائل.

٥.حقيقة الدنيا النهائية:} وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ...{تحقير كامل للدنيا، وبيان أنها ليست إلا متاعاً مؤقتاً يغتر به الجاهلون.

٦.الدنيا سبب قسوة القلوب: التعلق بالدنيا وزينتها هو الذي يجعل القلوب تقسو وتغفل عن ذكر الله.

مقاصد الآية وأهدافها:

١.تحقير شأن الدنيا في قلوب المؤمنين، لئلا تتعلق بها قلوبهم فتقسي.
٢.بيان أن الدنيا لا تستحق أن تكون غاية، لأنها زائلة فانية.
٣.إيقاظ العقول من سبات الغفلة، وإرشادها إلى حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة.
٤.معالجة قوى الشهوة والحب والإرادة في النفس الإنسانية، وتوجيهها نحو الله والدار الآخرة.
٥.بيان أن الابتلاء بالدنيا إنما هو اختبار، لينظر الله أينا أحسن عملاً.
٦.تذكير المؤمنين بأن العاقل لا يجعل الدنيا غايته، بل يجعلها وسيلة إلى الآخرة.

المحور الأول

{اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}

مخاطبة العقل أولاً... وبداية كشف حقيقة الدنيا
اللعب واللهو... المرحلتان الأولى والثانية من مراحل التعلق بالدنيا

وقفة مع الأسلوب: {اعْلَمُوا}... خطاب العقل لإدراك الحقيقة

دعنا نقف – يا صاحبي – عند هذه الكلمة الافتتاحية البديعة: {اعْلَمُوا}. إنه فعل أمر، يدعو إلى العلم والمعرفة واليقين. والمقصود بـ "اعلموا" ليس مجرد العلم النظري، بل العلم الذي يستقر في القلب

ويغير السلوك. إنه خطاب للعقل أولا ً، لأن العقل هو الذي يدرك الحقائق، ثم ينقلها إلى القلب، فيؤمن بها وينفعل بها. وهذا هو المنهج القرآني في معالجة قضايا الإيمان: يبدأ بالعقل ليفهم، ثم ينتقل إلى القلب ليؤمن ويخشع.

وافتتاح الآية بـ {اعْلَمُوا} فيه إشارة إلى أن حقيقة الدنيا لا تُدرك بالشهوات والعواطف، بل تُدرك بـ العقل المتفكر. فالذي ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة يراها جنة ونعيماً، أما الذي ينظر إليها بعين العقل يراها لعباً ولهواً وزينة متاعاً زائلا ً. ولهذا كان الخطاب الأول للعقل: {اعْلَمُوا}.

{أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا}: حصر وتحديد

{أَنَّمَا} هنا تفيد الحصر. أي: ليست الحياة الدنيا إلا هذه الأوصاف الخمسة. إنها محصورة فيها، لا تتجاوزها. والمعنى: أن الحقيقة الكاملة للدنيا تنحصر في هذه الأوصاف، وما زاد على ذلك فليس من حقيقتها.

{الحَيَاةُ الدُّنْيَا}: وصفها بأنها "الدنيا" أي القريبة الدانية، مقابل "الآخرة" أي المتأخرة. وهي حياة مؤقتة، وحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية الباقية. قال تعالى: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} أي الحياة الحقيقية الكاملة.

{لَعِبٌ}: المرحلة الأولى من التعلق بالدنيا

اللعب هو أول ما يبدأ به الإنسان حياته. الطفل يلعب، ولا يهتم بشيء سوى لعبه. واللعب هو عمل لا فائدة منه، يشغل الجسد ويأخذ الوقت، ولكنه لا يعود على صاحبه بنفع حقيقي. والدنيا – في حقيقتها – لعب. إنها تشغل الأبدان، وتأخذ الأوقات، ولكنها لا تعود على صاحبها بنفع دائم.

وتأمل كيف أن وصف الدنيا بـ "اللعب" يبين حقيقتها: إنها مثل لعبة الطفل. الطفل يلعب بلعبته، فإذا ملها رمى بها وطلب لعبة أخرى. وهكذا ينتقل من لعبة إلى لعبة، ولا يشبع منها أبداً. وكذلك حال الإ نسان مع الدنيا: يطلب المال، فإذا حصله طلب المزيد. يطلب المنصب، فإذا ناله طلب ما هو أعلى. إنها لعبة لا تنتهي، وشهوة لا تشبع. ومن يتصور أنه يضحك على الدنيا فهو جاهل، لأن الدنيا هي التي تضحك عليه. فما بين الموت والحياة إلا لحظة، تنزل فتسلب الإنسان حياته، وتنتهي اللعبة فجأة.

{وَلَهْوٌ}: المرحلة الثانية... غفلة القلب عن الحقيقة

اللّهو هو الانشغال بما لا فائدة فيه عن ما ينفع. وهو أشد من اللعب، لأن اللعب قد يكون فيه حركة بدنية، أما اللّهو فهو انشغال القلب بالباطل عن الحق. واللّهو في اللغة: الانصراف عن الشيء المهم إلى ما لا يهم.

والدنيا لهو، لأنها تشغل القلوب عن الله والدار الآخرة. إنها تجعل القلب يغفل عن الحقيقة، وتشغله بـ السفاسف والتوافه. الناس في الدنيا منهمكون في أموالهم وأولادهم وشهواتهم، غافلون عن ذكر الله وعن الاستعداد للآخرة. وهذا هو اللّهو بعينه.

واللّهو يصيب القلب بالغفلة، والغفلة تؤدي إلى قسوة القلب. ولهذا كان التعلق بالدنيا سبباً رئيسياً من أسباب قسوة القلوب. فكلما زاد لهو القلب بالدنيا، زادت غفلته عن الله، وكلما زادت غفلته عن الله، قسا قلبه. وهكذا نرى العلاقة بين حب الدنيا وقسوة القلوب: الدنيا لهو، واللّهو غفلة، والغفلة قسوة.

الفرق بين اللعب واللّهو:

اللعب يشغل الجسد، واللّهو يشغل القلب. اللعب يتعلق بالأطفال وصغار العقول، واللّهو يتعلق بالشباب ومن هم في مقتبل العمر، حيث ينشغلون بملذاتهم وشهواتهم عن الواجبات. والدنيا تجمع الوصفين: هي لعب للأبدان، ولهو للقلوب.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: حقيقة الدنيا تبدأ باللعب واللّهو، وهما مرحلتان تشغلان الإنسان عن غايته الحقيقية.
• الرسالة النفسية: من أراد حياة قلبه فعليه أن يقلل من لعب الدنيا ولهوها، ويقبل على ذكر الله.
• الرسالة التربوية: رب أبناءك على أن الدنيا ليست غاية، بل هي وسيلة، وعلمهم أن يتجاوزوا مرحلة اللعب واللّهو إلى مرحلة الجد والعمل للآخرة.

• المهارة الحياتية: تعلم كيف تفرق بين اللعب المباح الذي يعين على الجد، واللعب الذي يتحول إلى غاية في نفسه.
• المهارة المعرفية: تأمل في المراحل العمرية للإنسان، وكيف أن مرحلة الطفولة (لعب) ومرحلة الشباب (لهو) هي مراحل تمهيدية ينبغي أن تقود إلى مرحلة النضج (الجد).

المحور الثاني

{وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ}

الأوصاف الثلاثة الباقية... من زينة الدنيا إلى التفاخر والتكاثر
كيف تفسد هذه الأوصاف قوى الحب والإرادة والغضب في النفس؟

{وَزِينَةٌ}: المرحلة الثالثة... خداع العيون وفساد الرؤية

الزينة في اللغة: ما يتزين به الشيء ليظهر بأحسن صورة. والدنيا زينة، أي أنها تتزين لأهلها وتتزين بـ الغرور، فتظهر بمظهر جميل فاتن، لكن حقيقتها قبيحة. والزينة تخدع العيون، وتجعل الإنسان يرى الظاهر اللامع ولا يرى الحقيقة المخفية.

وتأمل كيف أن الزينة تحدث فساداً في رؤية الحقائق. إنها تجعل الإنسان يرى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً. تجعله يرى النحاس لامعاً فيظنه ذهباً، ولا يرى اللؤلؤ المخفي في أعماق البحار. وتجعل الشخص فاقداً للعلم والمعرفة، فتسوء عنده الحسنات وتحسن السيئات. وهذا من أعظم مفاسد التعلق بالدنيا: أن يصبح الإنسان لا يميز بين الحق والباطل، ولا بين النافع والضار.

ولكي تقترب الصورة إلى ذهنك – يا صاحبي – تأمل هذا المثال الواقعي الذي يبين أثر الزينة في فقدان الإدراك الصحيح للأشياء: المرأة حين تطلب منها قطعة من حليها ومجوهراتها الخاصة، فإنها غالباً ما ترفض بيعها مهما عرض عليها من ثمن. ولكنها حين تمتلك قطعة أرض، وتعرض عليها الشراء، فإنها غالباً ما تقبل بيعها ولو بثمن بخس. لماذا؟ لأن الزينة (الحلي والمجوهرات) تخدع عينها وقلبها، فترى فيها جمالها وزينتها، وتنسى قيمتها المادية الحقيقية. أما الرجال فعلى العكس: هم أكثر تعلقاً بالأرض والعقار، لأنهم يرون فيها مصدر القوة والثراء. وفي كلا الحالين، الزينة تخدع القلوب بما تغرس فيها من سرور موهوم، وتخدع العيون فتصيبها بالعمى عن الحقيقة. فالقصور والمراكب والمطاعم والمشارب والملابس... كلها تزول، كما يزول عمر الإنسان وجاهه.

وخلاصة القول: إن زينة الدنيا تحدث فساداً في قوة الحب والإرادة في النفس. فبدلاً من أن يحب الإنسان الله ويحب ما يحبه الله، يحب الدنيا وزينتها. وبدلاً من أن تتجه إرادته إلى طاعة الله، تتجه إلى طلب زينة الدنيا. وهذا هو عين الفساد.

ولباس التقوى هو الزينة الحقيقية التي لا تخدع العين: قال تعالى: {وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ}. وقال في سورة آل عمران تعقيباً على ذكر زينة الدنيا: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}. فلباس التقوى هو الزينة الحقيقية، التي لا تخدع العين، ويرزق صاحبها نوراً يبصر به حقائق الأشياء.

{وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ}: المرحلة الرابعة... فساد قوة الغضب والتعاظم

التفاخر هو التباهي والتفاخر على الآخرين. وهو يتعلق بقوة الغضب في النفس، وهي القوة التي جعلها الله في الإنسان ليدفع بها الأذى عن نفسه. ولكن هذه القوة حين تفسد تتحول إلى كبر وتعاظم وتفاخر على الآخرين.

والدنيا تدعو إلى التفاخر: كل واحد يريد أن يكون أفضل من الآخر. فلان يتفاخر بماله، وفلان يتفاخر بنسبه، وفلان يتفاخر بمنصبه، وفلان يتفاخر بقبيلته. وهكذا تتحول الدنيا إلى ساحة للتفاخر والتطاول بين الناس بالمال والثروات والسلطة والجاه. وهذا التفاخر يفسد حياة المجتمعات، وينشر فيها الطبقات المتناحرة: طبقة الأغنياء تحتقر طبقة الفقراء وتنظر إليهم أنهم أقل منزلة، وطبقة الفقراء تحقد على طبقة الأغنياء. ويسود الظلم، فيستبد القوي بالضعيف ويذل الغني الفقير. وينتشر الكبر والحقد والكراهية والتعالي والحسد، وهذه من أسباب تهديم الحضارات وانهيار الأمم.

وكل هذه النعم التي يتفاخر بها الناس لا تدوم. إنها تزول ولو وصلت بأهل الرغبة إلى ما يريدون. فـ المال يزول، والسلطة تزول، والجاه يزول. بل إنها تذل صاحبها حين تزول عنه، فيعيش في تعاسة بعد أن كان يعيش في نعيم.

{وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ}: المرحلة الخامسة... التكاثر والسعي وراء الكثرة

هذا هو الوصف الخامس والأخير من أوصاف الدنيا، وهو المرحلة النهائية من التعلق بها. التكاثر هو السعي إلى تكثير الأموال والأولاد، ومباهاة الآخرين بها. والمكاثرة هي المباهاة بالكثرة. فالناس كانوا يتباهون بكثرة الأموال، لأن المال في نظرهم قوة. وكانوا يتباهون بكثرة الأولاد، لحاجتهم إليهم في القتال وشد الأزر. وهكذا يتحول الإنسان إلى آلة لجمع المال وإنجاب الأولاد، دون أن يفكر في الغاية الحقيقية من الحياة.

والتكاثر في الأموال والأولاد يملأ القلب بالانشغال بالدنيا، وينسيه الآخرة. وهو من أسباب قسوة القلوب، لأن القلب إذا امتلأ بحب الدنيا والحرص عليها، لم يعد فيه متسع لحب الله والخشوع لذكره. وقد ذم الله التكاثر في سورة خاصة: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}.

الأوصاف الخمسة وتقسيم قوى النفس:

هذه الأوصاف الخمسة للدنيا ترتبط بقوى النفس الإنسانية الأربع:

١.قوة الشهوة) الحب(: وهذه القوة تفسدها الدنيا من خلال وصف "الزينة"، فتجعل الإنسان يحب الدنيا وزينتها بدلا ً من حب الله.

٢.قوة الإرادة: وهذه القوة تفسدها الدنيا من خلال وصف "اللعب واللهو"، فتجعل الإنسان يصرف إرادته في اللعب واللهو بدلا ً من صرفها في طاعة الله.

٣.قوة الغضب: وهذه القوة تفسدها الدنيا من خلال وصف "التفاخر"، فتجعل الإنسان يستخدم غضبه في الكبر والتعاظم على الناس بدلا ً من استخدامه في نصرة الحق.

٤.قوة العقل: وهذه القوة تفسدها الدنيا من خلال وصف "التكاثر"، فتجعل الإنسان يسعى وراء الكثرة دون تفكر في الغاية.

وكمال هذه القوى يكون بتوجيهها نحو الله: فكمال قوة الشهوة يكون بالعفة، وكمال قوة الإرادة يكون بالجد في طاعة الله، وكمال قوة الغضب يكون بالتواضع ونصرة الحق، وكمال قوة العقل يكون بالتفكر في آيات الله.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: أوصاف الدنيا الخمسة تفسد قوى النفس الإنسانية (الشهوة، الإرادة، الغضب، العقل) وتجعل الإنسان عبداً للدنيا بدلا ً من أن يكون عبداً لله.
• الرسالة النفسية: التعلق بزينة الدنيا والتفاخر والتكاثر يجلب القلق والحسد والتنافس المذموم، بينما الزهد في الدنيا يجلب السكينة والطمأنينة.
• الرسالة التربوية: علم أبناءك أن القيمة الحقيقية للإنسان ليست بكثرة ماله ولا بكثرة أولاده، بل بتقواه وعمله الصالح.
• المهارة الحياتية: تدرب على تقليل التعلق بزينة الدنيا، واجعل زينتك الحقيقية هي تقوى الله.
• المهارة المعرفية: ادرس قوى النفس الإنسانية الأربع (الشهوة، الإرادة، الغضب، العقل) وتعلم كيف تزكيها وتوجهها نحو ما يرضي الله.

المحور الثالث

{كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}

المثال الزراعي... حين يرسم القرآن صورة زوال الدنيا بمشهد بصري مؤثر
تحليل لغوي وبلاغي للمثال... ودلالة لفظ "الكفار"

{كَمَثَلِ غَيْثٍ}: تشبيه الدنيا بالمطر والنبات

بعد أن ذكر الله أوصاف الدنيا الخمسة، ضرب مثلا ً حسياً يبين سرعة زوالها وفنائها. قال: {كَمَثَلِ غَيْثٍ}. الغيث هو المطر. والمعنى: أن مثل الدنيا في سرعة زوالها كمثل مطر نزل على أرض، فأنبتت نباتاً...

{أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ}: من هم الكفار هنا؟ وما سر اختيار هذا اللفظ؟

{أَعْجَبَ} أي أعجبهم وسرهم. {الْكُفَّارَ} هنا لهم تفسيران:

التفسير الأول: الكفار هم الزُرّاع. والعرب تسمي الزارع كافراً، لأنه يحجب الحبة ويغطيها بالتراب. و الكفر في اللغة: التغطية والستر. ومنه سمي الكافر كافراً لأنه يغطي الحق ويستره. فهنا المعنى: أن الزارع أعجبه نباته الذي خرج من الأرض بعد أن غطى البذور. وهذا الإعجاب بالنبات والخضرة و الجمال هو إعجاب مؤقت، سرعان ما يزول.

التفسير الثاني: الكفار هم الكافرون بالله، الذين لا يؤمنون بالآخرة. فهؤلاء الكفار ينظرون إلى الدنيا بعين الإعجاب والاغترار، لأنهم لا يؤمنون بما بعدها. وهم مثل الزارع الذي يعجب بنباته ثم يفاجأ بزواله.

واللفظ القرآني {الْكُفَّارَ} يحمل المعنيين معاً: الزارع الذي يغطي البذور، والكافر الذي يغطي الحق. وفي هذا إشارة بلاغية بديعة: إن الكافر بالدين يكون معجباً بالدنيا وما فيها من زينة وشهوات، مثل الزارع الذي يكون معجباً بنزول المطر وخروج البذور والخضرة والحلاوة. وكما أن إعجاب الزارع لن يدوم، فإعجاب الكافر بالدنيا لن يدوم.

{ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا}: مرحلة الذبول والموت

{ثُمَّ يَهِيجُ} أي ييبس ويذبل بعد خضرته ونضارته. {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} أي تراه متغير اللون إلى الصفرة بعد أن كان أخضر يانعاً. وهذا هو حال الدنيا: بعد الشباب والقوة والجمال، يأتي الهرم والضعف والذبول. وبعد الخضرة والنضارة، يأتي الاصفرار واليبس.

{ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}: النهاية الحتمية

{ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} أي يتحطم ويتكسر ويصير فتاتاً. بعد أن كان نباتاً أخضر يانعاً، أصبح يابساً أصفر، ثم تحطم وتكسر. وهذه هي نهاية الدنيا: مهما طال عمرها، ومهما بلغت زينتها، فمصيرها إلى فناء وتحطم. وهكذا الإنسان: مهما طال عمره، ومهما بلغت قوته وثراؤه، فمصيره إلى الموت والفناء.

التصوير البلاغي في هذا المثال:

هذا المثال القرآني من أبلغ التصويرات الفنية في القرآن. إنه يرسم صورة بصرية متحركة، تبدأ بمشهد المطر ينزل، ثم الأرض تخضر، ثم النبات ينمو ويكتمل، ثم يذبل ويصفر، ثم يتحطم ويتفتت. وهذه الصورة المرئية تجعل الحقيقة الغيبية (زوال الدنيا) ماثلة أمام العين، فكأن المشاهد يرى الدنيا وهي تنمو ثم تذبل ثم تموت. وهذا الأسلوب البصري من أعظم أساليب التأثير في النفوس.

دلالة المثال: سرعة زوال الدنيا وحتمية فنائها

المثال يدل على أن الدنيا – بكل زينتها وجمالها – زائلة لا محالة. وكما أن النبات مهما كان أخضر يانعاً فإنه إلى اصفرار وتحطم، فالدنيا مهما كانت جميلة مغرية فإنها إلى زوال وفناء. وهذا هو الدرس الذي ينبغي أن يستقر في قلب المؤمن: لا تغتر بالدنيا، فإنها زائلة، واشتغل بما يبقى وهو العمل للآ خرة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: الدنيا زائلة فانية، وما ضربه الله من مثل الغيث والنبات إلا لتقريب هذه الحقيقة إلى العقول.
• الرسالة النفسية: لا يغتر الإنسان بصحته وشبابه وماله، فكل ذلك إلى زوال، كما يزول النبات بعد

خضرته.
• الرسالة التربوية: استخدم الأمثلة الحسية والبصرية في تعليم أبنائك، فهي أبلغ في التأثير وأقرب إلى الفهم.
• المهارة الحياتية: حين ترى الزرع يخضر ثم يصفر ثم يتحطم، تذكر أنه مثل الدنيا، ومثلك فيها، فلا تغتر.
• المهارة المعرفية: ادرس آيات الأمثلة في القرآن، وتأمل كيف يستخدم الله التصوير الحسي لتقريب الحقائق الغيبية.

المحور الرابع

{وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}

الموازنة بين الدنيا والآخرة... وحقيقة الدنيا النهائية
حين يختار العاقل بين عذاب الآخرة ومغفرة الله ورضوانه

{وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ}: الموازنة العادلة

بعد أن كشف الله حقيقة الدنيا، ذكر حقيقة الآخرة. وفي الآخرة أمران لا ثالث لهما:
.١عذاب شديد: للذين اغتروا بالدنيا وآثروها على الآخرة، وكفروا وكذبوا بآيات الله.
.٢مغفرة من الله ورضوان: للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وزهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة.

وهذه الموازنة بين الدنيا والآخرة، وبين العذاب والمغفرة، هي منتهى العدل والإنصاف. الله يبين لنا الحقيقتين معاً، ويترك لنا حرية الاختيار. فمن اختار الدنيا فله العذاب، ومن اختار الآخرة فله المغفرة والرضوان. والله لا يظلم أحداً.

وتأمل أن الآية ذكرت "المغفرة" أولا ً ثم "الرضوان". المغفرة إزالة العقاب، والرضوان هو أعلى من ذلك: إنه رضا الله عن العبد. وفي هذا ترقّ: المؤمن لا يطلب فقط أن يغفر الله له، بل يطلب أن يرضى الله عنه. وشتان بين من ينال المغفرة وبين من ينال المغفرة والرضوان معاً.

{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}: الحقيقة النهائية للدنيا

وهنا تصل الآية إلى ختامها المهيب: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}. "ما" نافية، و"إلا" للحصر. و المعنى: ليست الحياة الدنيا إلا متاعاً مؤقتاً، يتمتع به الناس قليلا ً ثم يزول. وهو متاع الغرور، لأنه يغر الناس ويخدعهم، فيظنونه باقياً وهو فان، ويظنونه نعيماً وهو وبال، ويظنونه غاية وهو وسيلة.

"متاع الغرور": المتاع هو الشيء الذي يتمتع به ويُنتفع به مدة مؤقتة ثم يزول. والغرور هو الخداع. فالدنيا متاع خادع، يتمتع به الإنسان مدة يسيرة، ثم يكتشف أنه كان مخدوعاً. وهذا هو عين ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: "الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة".

العلاقة بين التعلق بالدنيا وقسوة القلوب:

الآن – يا صاحبي – نصل إلى العلاقة التي أشارت إليها السورة بين هذه الآية وآية "ألم يأن". إن التعلق بالدنيا والاغترار بزينتها هو من أعظم أسباب قسوة القلوب. لماذا؟

· لأن القلب إذا امتلأ بحب الدنيا، لم يعد فيه متسع لحب الله.
· ولأن الانشغال بزينة الدنيا والتفاخر والتكاثر يملأ القلب بالغفلة، والغفلة تقسي القلب.
· ولأن الإعجاب بالدنيا ينسي الآخرة، ومن نسي الآخرة قسا قلبه عن ذكر الله.

فالعلاج إذن هو الزهد في الدنيا، لا بمعنى تركها بالكلية، بل بمعنى ألا تكون في القلب، وأن تكون في اليد فقط. المؤمن يعيش في الدنيا بجسده، ولكن قلبه معلق بالآخرة. يسعى في الدنيا ويكسب ويعمل ويعمر الأرض، ولكنه لا يجعل الدنيا غايته، بل يجعلها وسيلة إلى الآخرة.

علاج قوى الشهوة والحب والإرادة:

الآية تقدم علاجاً متكاملا ً لقوى النفس الإنسانية:

· علاج قوة الشهوة (الحب): أن تجعل حب الله هو المسيطر على قلبك، وليس حب الدنيا. وميزان حب الله يمنع الانزلاق في مصيدة زينة الدنيا.
· علاج قوة الإرادة: أن تصرف إرادتك في طاعة الله والعمل للآخرة، لا في اللعب واللهو. واجعل لك هدفاً محدداً: الفوز بالآخرة.
· علاج قوة الغضب: أن تستخدم غضبك في نصرة الحق والتواضع للمؤمنين، لا في التفاخر والكبر على الناس.
· علاج قوة العقل: أن تستخدم عقلك في التفكر في آيات الله والتدبر في القرآن، لتبصر حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة.

ومن كان يريد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فهذا هو الذي يوفق للجمع بين حب الله وحب ا لآخرة، وبين الزهد في الدنيا والعمل فيها. والمحبة الصادقة لله تحمي الإنسان من سلطان الشيطان، وتجعل عقله قوياً متصلا ً بالله، وتجعله زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، خائفاً من العذاب طامعاً في المغفرة والرضوان.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: الآخرة فيها إما عذاب شديد وإما مغفرة ورضوان. والعاقل هو الذي يختار المغفرة والرضوان على متاع الدنيا الزائل.
• الرسالة النفسية: لا تجعل الدنيا في قلبك. الدنيا متاع الغرور، ومن جعلها في قلبه خدعته وغررته.
• الرسالة التربوية: رب أبناءك على أن الدنيا وسيلة والآخرة غاية، وعلى أن المؤمن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً.
• المهارة الحياتية: وازن في حياتك بين العمل للدنيا والعمل للآخرة. لا تنس نصيبك من الدنيا، ولا تنس الآخرة.
• المهارة المعرفية: اقرأ في الزهد والرقائق، وتأمل في سير الزاهدين من الصحابة والتابعين، لتتعلم كيف يعيش المؤمن في الدنيا بقلب معلق بالآخرة.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

١.تحرير القلب من أسر الدنيا:
في عصر الماديات والاستهلاك، حيث تحاصرنا الإعلانات والمغريات من كل جانب، تأتي هذه الآية لتحرر قلوبنا من أسر الدنيا، وتذكرنا بأنها مجرد متاع مؤقت، فلا تستحق أن نرهن قلوبنا لها.

٢.إعادة تعريف النجاح:
الدنيا ليست معياراً للنجاح. النجاح الحقيقي ليس في كثرة المال ولا في المنصب ولا في الشهرة، بل في رضا الله والفوز بالجنة. هذه الآية تصحح المفاهيم المغلوطة عن النجاح التي يروج لها الإعلام المعاصر.

٣.مواجهة ثقافة التفاخر والتكاثر:
وسائل التواصل الاجتماعي أصبحت ساحة للتفاخر والتكاثر: كل واحد يعرض ما عنده من مال وجمال وأولاد وسفر. هذه الآية تكشف حقيقة هذا التفاخر، وتبين أنه من أوصاف الدنيا المذمومة التي تقسي القلوب.

٤.الاستعداد للآخرة في زمن الغفلة:
في زمن كثرت فيه الملهيات والمشغلات، تدعونا الآية إلى عدم الاغترار بالدنيا، والاستعداد للآخرة بـ العمل الصالح، قبل أن يأتي الموت فجأة ونحن في غفلة.

رسائل وتوجيهات:

• لا تجعل الدنيا أكبر همك، فيقسو قلبك ويضعف إيمانك.
• تفكر كل يوم في زوال الدنيا، وتذكر أنك ستموت وتترك كل شيء.

• اجعل الآخرة نصب عينيك، واعمل لها بجد واجتهاد.
• لا تقارن نفسك بالآخرين في أمور الدنيا، بل قارنهم في أمور الآخرة.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: الدنيا ليست غاية بل وسيلة
الآية ترسخ مفهوماً فكرياً مهماً: الدنيا ليست غاية في ذاتها، بل هي وسيلة إلى الآخرة. ومن جعل الدنيا غايته فقد أخطأ الطريق، ومن جعلها وسيلته إلى رضا الله فقد وفق. وهذا المفهوم يغير نظرة ا لإنسان إلى الحياة كلها.

المفهوم النفسي: الباعث الفطري لاستصغار الدنيا
الله سبحانه وتعالى فطر الإنسان على استصغار كل ما هو زائل، وعلى طلب غاية أعلى. فالإنسان لم يخلق عبثاً، بل خلق لغاية عظيمة هي عبادة الله. وهذا الباعث الفطري هو دليل وجداني يرشد الإ نسان إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا، وإلى أن هناك حياة أخرى هي الحياة الحقيقية. والآية تخاطب هذا الباعث الفطري، لتحرره من قيود الدنيا وزينتها.

المفهوم التربوي: التربية على التوازن بين الدنيا والآخرة
الآية تعلمنا أن نربي أنفسنا وأبناءنا على التوازن: نعمل للدنيا ولا ننسى الآخرة. نأخذ من الدنيا ما أحل الله، ولكن لا نجعلها في قلوبنا. نزرع الأرض ونعمرها، ولكن نعلم أن الحياة الحقيقية هي في الآ خرة.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نحقر الدنيا في قلوبنا
الله يريد منا ألا نعظم الدنيا، بل نحقرها ونهون من شأنها في قلوبنا. يريد أن ننظر إليها على أنها متاع مؤقت، لا يستحق أن نضحي من أجله بالآخرة.

الإرادة الثانية: أن نستخدم عقولنا لإدراك حقيقة الدنيا
الله يريد منا أن نتفكر ونتدبر، لا أن ننجرف وراء الشهوات والعواطف. يريد أن نستخدم عقولنا لنرى حقيقة الدنيا، ونميز بين ما يبقى وما يفنى.

الإرادة الثالثة: أن نختار المغفرة والرضوان على العذاب
بعد أن بين لنا حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، يريد منا أن نختار: إما العذاب الشديد، وإما المغفرة و الرضوان. وهو يدعونا بكل رحمة إلى اختيار المغفرة والرضوان.

الإرادة الرابعة: ألا نغتر بالدنيا
يريد منا ألا نكون من المخدوعين بالدنيا. يريد أن نكون يقظين، متنبهين، مدركين لحقيقة الدنيا، فلا نغتر بزينتها ولا نركن إليها.

المحور الثامن

أبعاد الآية وآفاقها

البعد الإيماني: تعلق القلب بالله وحده
الآية تربط القلب بالله وحده، وتجعل محبة الله هي محور حياة المؤمن، لا محبة الدنيا.

البعد الأخلاقي: الزهد في الدنيا والسخاء في العطاء

الآية تبني خلق الزهد في الدنيا، وهو ليس ترك الدنيا، بل ترك التعلق بها. كما تبني خلق السخاء و الكرم، لأن من زهد في الدنيا سهل عليه أن ينفق منها.

البعد الحضاري: بناء حضارة تعمر الدنيا ولا تغتر بها
حضارة الإسلام تقوم على التوازن: تعمر الدنيا، وتزرع، وتصنع، وتبني... ولكن لا تغتر بالدنيا ولا تجعلها غاية. هذه الحضارة المتوازنة هي التي تنجو من الانهيار الذي أصاب الحضارات المادية التي جعلت الدنيا غايتها.

المحور التاسع

تحويل الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة
الآية تبني إنساناً قلبه معلق بالله والدار الآخرة، لا بالدنيا وزينتها. هذا الإنسان هو الذي يصلح لقيادة المجتمع وبناء الحضارة.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتراحم لا المتفاخر
مجتمع يقرأ هذه الآية سيكون مجتمعاً متراحماً متوادا، لا مجتمعاً متفاخراً متكاثراً. سيكون مجتمعاً يسوده التعاون والتكافل، لا التنافس على الدنيا.

المسار الثالث: بناء الحضارة المتوازنة
حضارة تقوم على هذه الآية هي حضارة تعمر الدنيا وتعمل للآخرة. لا تهمل الدنيا بحجة الزهد، ولا تغتر بالدنيا بحجة التقدم. إنها حضارة متوازنة، تسعى في الأرض وتطلب رضا الله.

المحور العاشر

كيف تحول الآية إلى واقع معاش؟ (المهارات الحياتية والمعرفية والعملية)

هذه الآية ليست مجرد نص يتلى، بل هي منهج حياة كامل. وإليك المهارات التي تستخرجها منها لتحولها إلى واقع معاش في حياتك اليومية:

المهارة الحياتية الأولى: مهارة تذكير النفس بحقيقة الدنيا كل يوم.
تعلم كيف تجعل هذه الآية حاضرة في ذهنك كل يوم. اقرأها في وردك اليومي، وتأمل معانيها، وذكر نفسك بأن الدنيا لعب ولهو وزينة... ثم تزول. في كل مرة ترى فيها شيئاً من زينة الدنيا تبهرك، قل لنفسك فوراً: {وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}. هذه المهارة البسيطة تحمي قلبك من التعلق بالدنيا، وتجعله حياً بذكر الله. وحين ترى نفسك تنجرف نحو التفاخر على الآخرين بمالك أو منصبك أو أولا دك، تذكر أن التفاخر وصف من أوصاف الدنيا المذمومة، فتراجع نفسك وتتواضع لله.

المهارة الحياتية الثانية: مهارة الموازنة بين العمل للدنيا والعمل للآخرة.
لا تهمل دنياك بحجة الزهد، ولا تغرق في دنياك بحجة العمل. ضع لك في كل يوم وقتاً للعمل الدنيوي، ووقتاً للعمل الأخروي. خطط ليومك بحيث تؤدي واجباتك الدنيوية من عمل أو دراسة أو تجارة، وتؤدي واجباتك الدينية من صلاة وقراءة قرآن وذكر. هذه المهارة تجعلك تعيش حياة متوازنة، لا تطغى فيها الدنيا على الآخرة ولا العكس. وتذكر أن الدنيا وجدت للابتلاء، كما قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.

المهارة الحياتية الثالثة: مهارة استثمار مشاهد الطبيعة للتذكر والاعتبار.
حين تخرج إلى الطبيعة وترى الزرع الأخضر، تذكر المثال القرآني: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}. وقل لنفسك: "هكذا أنا أيضاً: سأخضر يوماً، ثم أصفر، ثم أتحطم". هذا الاستحضار الدائم لحقيقة الموت والفناء يورث القلب خشوعاً ويقظة، ويجعلك لا تغتر بصحتك ولا بشبابك ولا بمالك. فهو علاج نفسي يومي لمرض الغفلة والاغترار بالدنيا.

المهارة المعرفية الأولى: مهارة فهم مراحل العمر من خلال أوصاف الدنيا الخمسة.

تعلم كيف تطابق بين أوصاف الدنيا الخمسة ومراحل عمرك. الطفولة (لعب)، الشباب (لهو)، النضج (زينة)، الكهولة (تفاخر)، الشيخوخة (تكاثر). هذا الفهم يجعلك تعرف في أي مرحلة أنت، وما هو الداء الذي يهددك، وكيف تعالجه. فالشاب في مرحلة اللهو يحتاج إلى شغل وقته بالجد، والكهل في مرحلة التفاخر يحتاج إلى التواضع، والشيخ في مرحلة التكاثر يحتاج إلى الزهد.

المهارة المعرفية الثانية: مهارة تحليل قوى النفس وتوجيهها نحو الله.
ادرس قوى نفسك الأربع (الشهوة، الإرادة، الغضب، العقل) وحلل أيها أفسدته الدنيا. هل تحب الدنيا أكثر من حبك لله؟ (الشهوة). هل تصرف إرادتك في اللعب واللهو؟ (الإرادة). هل أنت ممن يتفاخر على الناس؟ (الغضب). هل عقلك مشغول بالدنيا عن التفكر في آيات الله؟ (العقل). ثم ضع خطة لعلا ج القوة المريضة: حب الله علاج الشهوة، والجد علاج اللهو، والتواضع علاج التفاخر، والتفكر علاج الغفلة.

المهارة العملية الأولى: مهارة تقليل التعلق بالدنيا تدريجياً.
ابدأ بتقليل تعلقك بالدنيا خطوة خطوة. ليس المطلوب أن تترك كل شيء فجأة، بل أن تبدأ بتقليل الا عتماد النفسي على الدنيا. مثلا ً: جرب أن تصوم يوماً لتتعود على تقليل الاعتماد على الطعام. جرب أن تتصدق بجزء من مالك لتتعود على تقليل التعلق بالمال. جرب أن تترك هاتفك ساعة قبل النوم لتتعود على تقليل الاعتماد على وسائل الترفيه. هذه التدريبات العملية الصغيرة تبني فيك الزهد الحقيقي تدريجياً.

المهارة العملية الثانية: مهارة تحويل المباحات إلى طاعات.
لا تحرم نفسك من طيبات الدنيا، ولكن حولها إلى طاعات. حين تأكل، استشعر نعمة الله واشكره عليها. حين تلبس ثوباً جميلا ً، تذكر أن زينة المؤمن هي التقوى، واسأل الله أن يرزقك تقوى تزينك. حين تنجب ولداً، تذكر أنه نعمة من الله وابتلاء، واسأل الله أن يجعله قرة عين لك في الدنيا والآ خرة. بهذه الطريقة تبقى في الدنيا بجسدك، ولكن بقلبك مع الله.

المهارة العملية الثالثة: مهارة الاستعداد اليومي للآخرة.
اجعل لك في كل يوم ورداً من الأعمال الصالحة التي تذكرك بالآخرة وتقربك منها: قيام ليل، تلاوة قرآن بتدبر، صدقة سر، تفكر في خلق الله، زيارة مريض، تشييع جنازة. هذه الأعمال تذكرك بأن الدنيا فانية والآخرة باقية، وتجعل قلبك معلقاً بالله لا بالدنيا. وكلما شعرت أن قلبك بدأ يقسو، فزد من هذه الأعمال.

خاتمة: بين زوال الدنيا وبقاء الآخرة... اختيار العقلاء

أيها القارئ الكريم...

لقد انتهت رحلتنا مع هذه الآية الكريمة، ولكن رسالتها ينبغي ألا تنتهي في قلبك. لقد رأينا كيف أن الله خاطب عقولنا لندرك حقيقة الدنيا. ورأينا كيف أن الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، وأنها كلها إلى زوال. ورأينا المثال الزراعي الذي يصور سرعة فنائها. ورأينا أن الآخرة فيها إما عذاب شديد وإما مغفرة ورضوان.

والسؤال الآن – يا صاحبي – هو: ماذا ستختار؟ هل تختار الدنيا التي هي متاع الغرور، فتنال العذاب الشديد؟ أم تختار الآخرة التي فيها المغفرة والرضوان، فتنال الجنة ونعيمها؟

إن العاقل هو الذي يختار ما يبقى على ما يفنى. وإن من تفكر في الدنيا وعرف حقيقتها، فلن يقبل بها بديلا ً عن الآخرة، ولن يتسابق عليها مع الناس. وسيجعلها وسيلة إلى رضا الله، لا غاية في حد ذاتها.

فاجعل – يا أخي – هذه الآية نبراساً لك في حياتك. كلما رأيت الدنيا تخدعك بزينتها، فاقرأ: {وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}. وكلما رأيت الناس يتفاخرون ويتكاثرون، فاذكر: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}. وكلما تذكرت الآخرة، فقل: "اللهم إني أسألك مغفرة منك ورضواناً".

المبحث الرابع
تفسير الآية (21) من سورة الحديد

(سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

حين يفتح الله باب المسابقة... وحين تكون الجنة بعرض السماوات والأرض
وحين تدرك أن الفوز بهذا كله فضل من الله يؤتيه من يشاء
رحلة من همة المسابقة إلى سعة الجنة إلى عظمة الفضل الإلهي

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من سورة الحديد ومن جدلية التحول من الدنيا إلى الآخرة

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل ضرورية قبل أن تدخل إلى رحاب هذه الآية الكريمة، التي تمثل نقطة تحول عظيمة في مسار السورة. لقد مضت بنا السورة تعالج قضايا القلوب: من النفاق وقسوته، إلى العتاب على بطء الخشوع، إلى بيان وسائل حياة القلوب من قرآن وصدقة، إلى كشف حقيقة الدنيا وزيفها في الآية السابقة. لقد انتهينا من الآية (20) وقد تقرر في قلوبنا أن الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، وأنها متاع الغرور، وأن مصيرها إلى زوال.

والآن، وبعد أن كشف الله لنا حقيقة الدنيا وحقرها في أعيننا، يأتي الأمر الإلهي المباشر: {سَابِقُوا}. إنها نقلة عظيمة من العلم إلى العمل، ومن المعرفة إلى السلوك، ومن التحقير إلى التشمير. بعد أن عرفت حقيقة الدنيا، ماذا يبقى لك؟ يبقى أن تسابق إلى ما يبقى. بعد أن عرفت أن الدنيا زائلة، يبقى أن تسابق إلى ما هو باق: مغفرة من ربك وجنة عرضها كعرض السماء والأرض.

تأمل – يا صاحبي – هذا الانتقال البديع في السورة. في الآية (20) قال: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}. وفي هذه الآية يقول: {سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}. هناك أمر بالعلم، وهنا أمر بالعمل. هناك كشف للحقيقة، وهنا حث على المسارعة. إنه المنهج القرآني في التربية: العلم أولاً، ثم العمل ثانياً. المعرفة تقود إلى السلوك، والحقيقة تقود إلى الحركة. فلا قيمة لعلم لا يغير سلوكاً، ولا لمعرفة لا تحدث عملاً.

وقد جاءت الآية بأسلوب "المسابقة" لا "المسارعة" فقط. والفرق بينهما عظيم: المسارعة هي أن تسرع أنت، أما المسابقة فهي أن تسرع ويتسارع معك غيرك، وأن يكون بينكم تنافس في الخير. فالله يريد من المؤمنين ألا يكتفوا بالمسارعة الفردية، بل يريدهم أن يتسابقوا معاً، وأن ينافس بعضهم بعضاً في طلب المغفرة والجنة. هذا هو روح الجماعة المؤمنة: تنافس في الخير، وتسابق إلى الله.

وهكذا تنقلنا هذه الآية من مشهد الدنيا الفانية إلى مشهد الجنة الباقية، ومن ذم الدنيا وتحذيرها إلى الترغيب في الآخرة والتحفيز عليها. إنها آية تجمع بين الوعد والتحفيز، وبين الترغيب والترهيب، وبين بيان الجائزة وبيان السبيل إليها.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآية الكريمة:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

١.الأمر الإلهي بالمسابقة:} سَابِقُوا ...{ليس مجرد أمر بالمسارعة، بل أمر بالمسابقة والتنافس في الخير.
٢.الهدف الأول للمسابقة: مغفرة من الله:} إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ...{المغفرة هي الهدف الأول، لأنها تمحو الذنوب وتزيل العقاب.
٣.الهدف الثاني: جنة عرضها كعرض السماء والأرض:} وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ...{وصف للجنة بسعتها وعظمتها، بما يحرك الشوق إليها.
٤.الجنة معدة للمؤمنين:} أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ...{بيان أن الإيمان بالله ورسله هو طريق الجنة.
٥.الجنة فضل من الله:} ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ...{تذكير بأن دخول الجنة ليس بأعمالنا فقط، بل هو فضل من الله.
٦.الله ذو الفضل العظيم:} وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ...{ختم الآية بتعظيم فضل الله، ليزداد المؤمن رغبة وطمعاً في فضله.

مقاصد الآية وأهدافها:

١.تحفيز المؤمنين على المسابقة والتنافس في طلب المغفرة والجنة.

.٢بيان سعة الجنة وعظمها، لترغيب المؤمنين فيها.
.٣تذكير المؤمنين بأن الجنة أعدها الله لمن آمن به وبرسله.
.٤قطع العجب عن المؤمنين، بتذكيرهم أن دخول الجنة فضل من الله وليس بأعمالهم فقط.
.٥ربط العمل بالإيمان، وبيان أن الإيمان هو أساس قبول العمل.

المحور الأول

{سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم}

الأمر الإلهي بالمسابقة... والفرق بين المسابقة والمسارعة
حين يتحول التنافس من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية

وقفة مع الأسلوب: {سَابِقُوا}... لماذا لم يقل "سارعوا"؟

دعنا نقف – يا صاحبي – عند هذه الكلمة الافتتاحية البديعة: {سَابِقُوا}. إنه فعل أمر بصيغة المفاعلة (سابقَ يُسابِقُ). والمفاعلة تقتضي المشاركة والتنافس بين اثنين فأكثر. فلماذا لم يقل "سارعوا"؟ هذا سؤال مهم ينبغي أن نتأمله.

الفرق بين المسابقة والمسارعة:

· المسارعة: هي الإسراع الفردي في فعل الشيء. تقول: "سارعتُ إلى كذا"، أي أسرعتُ إليه وحدي.
· المسابقة: هي الإسراع مع التنافس. تقول: "سابقتُ فلاناً إلى كذا"، أي تسابقنا نحن الاثنان أينا أسرع.

فاللهُ لم يقل "سارعوا"، بل قال: {سَابِقُوا}. وهذا يعني أنه يريد من المؤمنين أن يتنافسوا في الخير، لا أن يكتفي كل واحد بالإسراع منفرداً. إنه يدعوهم إلى أن يكونوا في حالة تسابق وتنافس دائم: أيهم أسبق إلى المغفرة؟ أيهم أكثر عملا ً صالحا؟ أيهم أقرب إلى الله؟

وهذا الأسلوب يبني في الأمة روح التنافس الإيجابي. فبدلا ً من التنافس على الدنيا (كما ذكر في ا لآية السابقة: تفاخر وتكاثر)، يأتي الأمر بالتنافس على الآخرة. حول الله طاقة التنافس الموجودة في النفس البشرية من التنافس المذموم على الدنيا إلى التنافس المحمود على الآخرة. وهذا من أعظم أساليب التربية: توجيه الطاقات الموجودة بدلا ً من محاولة كبتها.

الدلالة التربوية للأمر "سابقوا":

هذا الأمر الإلهي يحمل دلالات تربوية عظيمة:

.١تحويل طاقة التنافس إلى الخير: الإنسان مفطور على حب التفوق والتميز .فبدلا ً من أن يتفوق في جمع المال أو في المظاهر، ليتفوق في طلب المغفرة والجنة.

.٢بناء روح الجماعة: المسابقة تعني أن هناك آخرين يشاركونك، فتشعر أنك في مضمار واحد مع إخوانك المؤمنين، تتسابقون معاً إلى الله.

.٣بث روح الحماسة: المسابقة تولد حماسة أكبر من المسارعة الفردية .فحين ترى غيرك يسبقك، تزداد همة لتلحق به.

{إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم}: الهدف الأول من المسابقة

والآن، إلى أين المسابقة؟ {إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم}. "إلى" حرف جر يدل على انتهاء الغاية. فكأن المغفرة هي الغاية التي ينتهي إليها السابقون. والمغفرة هي ستر الذنوب ومحوها والعفو عنها. وهي من أعظم ما يطلبه المؤمن، لأن الذنوب هي التي تثقله وتبعده عن الله.

وتأمل قوله: {مِن رَّبِّكُمْ}. المغفرة هنا من الرب، وليس من أحد سواه. والرب هو المربي والمنعم و المالك. فالمغفرة تصدر من ربكم الذي رباكم بنعمه، والذي يعلم ضعفكم وتقصيركم. وهذا يجعل المؤمن يطمع في مغفرة الله، لأنه يعلم أن ربه رحيم به، وأنه هو الذي رباه وأحسن إليه.

والمغفرة تحتاج إلى سبب، والسبب هو الأعمال الصالحة التي يتسابق فيها المؤمنون. فهم يتسابقون في الأعمال الصالحة (الصلاة، الصيام، الصدقة، الذكر، الجهاد...)، لأجل أن ينالوا المغفرة من الله.

ترتيب الأهداف: المغفرة أولا ً ثم الجنة

لاحظ أن الآية ذكرت المغفرة أولا ً، ثم ذكرت الجنة ثانياً: {إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ}. وهذا ترتيب منطقي: فالمغفرة تسبق الجنة. لا يدخل أحد الجنة إلا بعد أن يغفر الله له ذنوبه. المغفرة هي إزالة المانع (الذنوب)، والجنة هي إثبات المطلوب (النعيم). فابدأ بالمغفرة، تصل إلى الجنة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: التنافس بين المؤمنين ينبغي أن يكون على الآخرة، لا على الدنيا. حول طاقتك التنافسية إلى ما يبقى.
• الرسالة النفسية: وجودك في جماعة تتسابق إلى الله يزيد من همتك ويقوي عزيمتك.
• الرسالة التربوية: رب أبناءك على التنافس في الخير، لا على التنافس في الدنيا. قل لهم: "أيكم أكثر حفظاً للقرآن؟ أيكم أكثر صدقة؟".
• المهارة الحياتية: اجعل لك رفيقاً في طريق الله، تسابقان معاً إلى المغفرة، وتتنافسان في الخيرات.

المحور الثاني

{وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}

الجنة... تلك الجائزة العظمى التي عرضها كعرض السماء والأرض
كيف يصف القرآن الجنة؟ وكيف يحرك الشوق إليها؟

{وَجَنَّةٍ}: الهدف الثاني من المسابقة

{وَجَنَّةٍ} معطوفة على {مَغْفِرَةٍ}، فهي الهدف الثاني. والجنة هي دار النعيم، التي أعدها الله لعباده المؤمنين. وقد وصفها الله هنا بوصف واحد فقط: عرضها كعرض السماء والأرض. وهذا الوصف وحده كافٍ لتحريك الشوق إليها.

{عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}: ماذا يعني هذا الوصف؟

تأمل هذا الوصف العظيم: {عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}. "عرضها" أي سعتها. فالجنة عرضها واتساعها كعرض السماء والأرض مجتمعتين. وهذا تشبيه للعرض لا للطول. فإذا كان العرض بهذه السعة، فكيف بالطول؟!

وقد ورد عن بعض السلف أنهم قالوا: "إذا كان عرض الجنة كعرض السماوات والأرض، فأين النار؟". فكان الجواب: "إذا جاء الله بالجنة، أينما شاء أن يضعها وضعها، وحينئذٍ لا يكون هناك شيء إلا الجنة". وهذا يدل على سعة الجنة وعظمها، وأنها تستوعب كل المؤمنين عبر العصور.

وهذا الوصف للجنة بسعتها يحرك الشوق إليها من عدة جهات:

١.السعة: الإنسان بطبعه يحب السعة والفضاء، ويكره الضيق والحبس .فالجنة واسعة لا ضيق فيها.
٢.العظمة: كون عرضها كعرض السماء والأرض يدل على عظمتها، وعظمة ما فيها من النعيم.
٣.المقارنة بالدنيا: الدنيا ضيقة محدودة، والجنة واسعة لا حدود لها .فلمن يضيق صدره بالدنيا وهمومها، تفتح الجنة ذراعيها.

{أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}: الجنة معدة للمؤمنين

{أُعِدَّتْ} أي هُيئت وجُهزت. فالجنة موجودة الآن، ومعدة ومهيأة للمؤمنين. وهي تنتظرهم. وهذا يعطي المؤمن شعوراً بالترقب والشوق: الجنة في انتظاره، فليسرع إليها.

{لِلذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ}... هذا هو وصف من أعدت لهم الجنة. هم الذين آمنوا بالله ورسله. والإيمان بالله ورسله هو أساس الدين، وهو الشرط الأول لدخول الجنة. ومن آمن بالله ورسله، فلا بد أن يعمل صالحاً، لأن الإيمان الحقيقي يثمر العمل.

ولم يذكر هنا أعمالاً محددة، لأن الأعمال الصالحة كثيرة ومتنوعة، وكلها تدخل في الإيمان. فالمهم هو الإيمان الصادق، الذي يدفع إلى العمل الصالح.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: الجنة واسعة جداً، تتسع لكل من آمن بالله ورسله. فلا تظن أنها حكر على فئة معينة.
• الرسالة النفسية: إذا شعرت بضيق الدنيا وهمومها، فتذكر سعة الجنة، فينشرح صدرك وتطمئن نفسك.
• الرسالة التربوية: حدث أبناءك عن الجنة، وعن سعتها وجمالها، ليزدادوا شوقاً إليها وحرصاً على العمل لها.
• المهارة الحياتية: اجعل الجنة نصب عينيك في كل عمل تعمله. اسأل نفسك: هل هذا العمل يقربني من الجنة أم يبعدني عنها؟

المحور الثالث

{ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}

تنبيه مهم... الجنة فضل من الله لا ثمن لعمل
حين يقطع الله العجب عن المؤمنين... ويفتح باب الطمع في فضله

{ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ}: إشارة إلى أن الجنة فضل لا حق

بعد أن وصف الله الجنة وصفاً عظيماً، وذكر أنها أعدت للمؤمنين، جاء بهذا التعقيب المهم: {ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ}. اسم الإشارة "ذلك" يعود على الجنة وما فيها من نعيم. وقوله: {فَضْلُ اللهِ} أي أن هذا كله فضل من الله وتفضل، وليس هو ثمن لأعمال المؤمنين.

وهذا تنبيه مهم جداً: الجنة ليست ثمناً لأعمالنا، بل هي فضل من الله. مهما عمل المؤمن من أعمال صالحة، فإنها لا تفي بحق نعمة واحدة من نعم الله، فكيف تفي بثمن الجنة؟! قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته".

فهذه الآية تقطع العجب عن المؤمنين. لا يظن أحد أنه يستحق الجنة بعمله، بل هي فضل من الله. وهذا يورث المؤمن تواضعاً، فلا يعجب بعمله، ولا يمن به على الله. بل يظل خائفاً طامعاً: خائفاً من أ لا يتقبل الله عمله، طامعاً في فضل الله ورحمته.

{يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ}: مشيئة الله في إيتاء الفضل

{يُؤْتِيهِ} أي يعطيه. {مَن يَشَاءُ} أي لمن يشاء من عباده. وهذا لا يعني أن الله يعطي الجنة جزافاً، بل هو سبحانه يشاء إيتاءها لمن آمن وعمل صالحاً. فالمشيئة هنا مربوطة بأسباب، ولكنها في النهاية ترجع إلى فضل الله وإرادته.

وذكر المشيئة يورث المؤمن خوفاً وطمعاً: يخاف ألا يكون ممن شاء الله أن يؤتيهم فضله، فيجتهد في العمل. ويطمع أن يكون منهم، فيرجو رحمة الله.

{وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}: ختم الآية بتعظيم فضل الله

وهذا هو الختام المهيب للآية: {وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}. "ذو" بمعنى صاحب. والله صاحب الفضل العظيم، الذي لا يحد ولا يوصف. والفضل العظيم يشمل كل ما يتفضل به الله على عباده: من نعم الدنيا والآخرة. ولكن أعظمه وأجله هو الجنة.

وهذا الختام يفتح باب الأمل والرجاء على مصراعيه. فإذا كان الله ذا فضل عظيم، فلماذا لا تطمع في فضله؟ لماذا لا تسأله من فضله؟ لماذا لا ترجوه وتطلب منه الجنة؟

التوازن بين الخوف والرجاء:

الآية تحقق توازناً بين الخوف والرجاء:

· الخوف: من خلال التذكير بأن الجنة فضل من الله، لا ثمن لعمل. وهذا يجعل المؤمن يخاف من تقصيره.
· الرجاء: من خلال التذكير بأن الله ذو الفضل العظيم، يؤتيه من يشاء. وهذا يجعل المؤمن يرجو فضل الله ويطمع فيه.

وهذا التوازن هو الذي يبقي المؤمن في حالة عبودية صحيحة: لا يأمن مكر الله فيترك العمل، ولا يقنط من رحمة الله فييأس. بل يعمل خائفاً طامعاً، راجياً فضل ربه.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: الجنة فضل من الله، وليست ثمناً لأعمالنا. فلا يعجب أحد بعمله.
• الرسالة النفسية: عش بين الخوف والرجاء. اعمل خائفاً من تقصيرك، طامعاً في فضل ربك.
• الرسالة التربوية: علم أبناءك التواضع، وألا يعجبوا بأعمالهم، وأن يطلبوا دائماً فضل الله ورحمته.
• المهارة الحياتية: أكثر من دعاء: "اللّهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل".

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

١.تحويل التنافس من الدنيا إلى الآخرة:
في عصر أصبح التنافس فيه على الدنيا ضارياً، تدعونا الآية إلى أن ننافس في الخير، وأن نجعل همنا هو الجنة لا الأموال والشهرة.

٢.تجديد الشوق إلى الجنة:
في عصر نسيناه أو كدنا ننسى الجنة، تدعونا الآية إلى أن نعيش الشوق إليها، وأن نجعلها نصب أعيننا.

٣.التواضع وعدم الاغترار بالعمل:
الآية تقطع الطريق على العجب والرياء، وتعلمنا أن نكون متواضعين، عارفين أن الجنة فضل من الله.

٤.التوازن بين الخوف والرجاء:
تدعونا الآية إلى أن نترك اليأس من جهة، والأمن من مكر الله من جهة أخرى، ونعيش بين الخوف و الرجاء.

رسائل وتوجيهات:

• حول تنافسك من الدنيا إلى الآخرة.
• عش الشوق إلى الجنة، واجعلها حاضرة في ذهنك.
• لا تعجب بعملك، بل اطلب فضل الله.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: التنافس الإيجابي على الآخرة

الآية ترسخ مفهوماً فكرياً مهماً: أن التنافس ليس مذموماً في ذاته، بل المذموم هو التنافس على الدنيا. أما التنافس على الآخرة فهو محمود ومطلوب.

المفهوم النفسي: التوازن بين الخوف والرجاء
الآية تبني في النفس توازناً بين الخوف من التقصير والطمع في فضل الله، وهذا التوازن هو عين الصحة النفسية الإيمانية.

المفهوم التربوي: التربية على التواضع
الآية تعلمنا التواضع، وألا نرى لأعمالنا قيمة أمام فضل الله، وهذا من أهم دروس التربية.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نسابق إلى المغفرة والجنة
الله يريد منا أن نكون في سباق دائم إلى الخير، لا أن نتوقف أو نتراخى.

الإرادة الثانية: أن ننافس إخواننا في الخير
يريد منا أن نتنافس في الخيرات، لا أن ننعزل عن الجماعة.

الإرادة الثالثة: أن نعيش الشوق إلى الجنة
يريد منا أن نشتاق إلى الجنة، وأن نجعل هذا الشوق دافعاً للعمل.

الإرادة الرابعة: ألا نعجب بأعمالنا
يريد منا أن نعيش متواضعين، عارفين أن الجنة فضل من الله.

المحور السابع

أبعاد الآية وآفاقها

البعد الإيماني: تجديد الإيمان بالله واليوم الآخر
الآية تجدد الإيمان بالله وبرحمته، وباليوم الآخر وجنته.

البعد الأخلاقي: التواضع وعدم العجب
الآية تبني خلق التواضع، وتنهى عن العجب والرياء.

البعد الحضاري: بناء مجتمع يتنافس في الخير
حضارة تقوم على هذه الآية هي حضارة يتنافس أفرادها في الخير، فيكثر فيها الصالحون، وتعمها البركة.

المحور الثامن

تحويل الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان السابق إلى الخيرات
الآية تبني إنساناً دائم السباق إلى الله، لا يقنع بالدون، ولا يرضى بالوسط.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتنافس في الخير
مجتمع يقرأ هذه الآية سيكون مجتمعاً يتنافس أفراده في حفظ القرآن، في الصدقة، في بر الوالدين، في كل خير.

المسار الثالث: بناء الحضارة الراجية فضل الله
حضارة تبنيها هذه الآية هي حضارة تعمل وتجد، ولكنها لا تغتر بعملها، بل ترجو فضل الله.

المحور التاسع

كيف تحول الآية إلى واقع معاش؟ (المهارات الحياتية والمعرفية والعملية)

المهارة الحياتية الأولى: مهارة تحويل التنافس من الدنيا إلى الآخرة.
انظر إلى نفسك: أين تتنافس؟ هل تتنافس في جمع المال؟ في شراء سيارة أفخم؟ في السفر إلى مكان أبعد؟ حول هذا التنافس إلى الآخرة. قل لنفسك: "بدلاً من أن أتنافس مع فلان في شراء سيارة جديدة، سأتنافس معه في حفظ القرآن". هذه المهارة تغير مجرى حياتك، وتجعل تنافسك في شيء يبقى، لا في شيء يفنى.

المهارة الحياتية الثانية: مهارة جعل الجنة نصب العينين.
ضع صورة ذهنية للجنة في عقلك. كلما هممت بعمل، اسأل نفسك: "هل هذا العمل يقربني من الجنة؟". وكلما شعرت بفتور، ذكر نفسك بالجنة ونعيمها. هذه المهارة تجعل الجنة دافعاً دائماً لك للعمل.

المهارة العملية الأولى: مهارة اختيار رفيق في السباق.
اختر صديقاً صالحاً يكون رفيقك في السباق إلى الله. اتفق معه على أهداف: ختم القرآن، قيام الليل، صيام الاثنين والخميس، صدقة أسبوعية. وتنافسا معاً، وشجع كل منكما الآخر. هذه الرفقة تعينك على الثبات وتزيد من همتك.

المهارة العملية الثانية: مهارة الدعاء الدائم بالجنة.
اجعل دعاءك مليئاً بطلب الجنة. قل في كل صلاة: "اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل". وقل: "اللهم اجعلني من السابقين إلى الجنة". هذا الدعاء يذكرك بالهدف، ويفتح لك أبواب الأمل.

المهارة المعرفية: مهارة دراسة أوصاف الجنة في القرآن والسنة.
اقرأ في أوصاف الجنة في القرآن والسنة، وتأمل فيها. كلما زادت معرفتك بالجنة، زاد شوقك إليها، وزادت همتك للعمل لها. اقرأ سورة الواقعة، وسورة الرحمن، وسورة الإنسان، وتأمل في أوصاف الجنة فيها.

خاتمة: سباق إلى الله... والجائزة جنة عرضها السماوات والأرض

أيها القارئ الكريم...

لقد انتهت رحلتنا مع هذه الآية الكريمة. لقد سمعت فيها نداء الله لك: {سَابِقُوا}. لقد دعاك ربك إلى سباق عظيم، سباق ليس على دنيا فانية، بل على جنة عرضها كعرض السماء والأرض. سباق لا يخسر فيه أحد، بل كل من شارك فيه فهو رابح.

فانطلق – يا صاحبي – في هذا السباق. لا تنتظر أحداً. لا تؤجل. لا تتكاسل. تذكر أن الجنة تنتظرك، وأن فضل الله عظيم. واسأل الله أن يجعلك من السابقين، وأن يؤتيك فضله، وأن يسكنك جنته.
المبحث الخامس
تفسير الآيات (22-24) من سورة الحديد

(مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

حين يتحول الإيمان بالقضاء والقدر إلى طمأنينة وسكينة
وحين تتحرر النفس من أسر الحزن على الماضي والفرح المذموم بالحاضر
وحين يُكشف النقاب عن مرض البخل وعلاقته بمرض القلوب

رحلة من صحيفة القدر إلى يقين التسليم... إلى غنى النفس بالله الغني الحميد

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من سورة الحديد ومن جدلية الإيمان بالقدر والتحرر من أسر الدنيا

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل ضرورية قبل أن تلج إلى رحاب هذه الآيات الثلاث الكريمة، التي تُعد من أعمق ما نزل في القرآن في باب التهذيب النفسي والتربية على التسليم والرضا. إنك تقف الآن أمام روشتة إلهية، ووصفة ربانية، تستهدف مركز الألم في النفس البشرية، ومركز الطمع فيها. لقد مضت بنا السورة، ورأينا كيف حثنا الله على المسابقة إلى المغفرة والجنة، تلك الجنة التي عرضها السماوات والأرض. إنه سباق عظيم، لكنه سباق محفوف بالمزالق والنكسات. فكيف يثبت المؤمن في هذا المضمار؟ كيف لا ييأس حين يصاب بمصيبة؟ كيف لا يبطر حين ينال نعمة؟ كيف يتخفف من أثقال الماضي وهموم المستقبل لينطلق خفيفاً في سباقه إلى الله؟

تأتي هذه الآيات لتقدم العلاج. إنها تنقلنا نقلة نوعية في الفهم. تعلمنا أن كل ما يجري، من مصائب ا لأرض والأنفس، مكتوب في كتاب، مقدر قبل الخلق. إنها فلسفة كونية عظيمة، تجعل المصيبة ليست أمراً عارضاً طارئاً، بل هي جزء من نظام دقيق محكم، {فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا}. وإذا كان الأمر كذلك، فعلامَ الحزن المفرط؟ وعلامَ الفرح المذموم؟

والناظر في سياق السورة يلحظ أن هذه الآيات تأتي مباشرة بعد الأمر بالمسابقة، لتُهيئ نفس المؤمن للسباق. فالذي يعلم أن المصائب بقدر، وأن الفوات بعلم الله، هو وحده القادر على أن يسابق دون أن تثقله الأحزان، ودون أن تبطره الأفراح. إنها آيات تبني القوة النفسية، أو ما يمكن أن نسميه "القوة الداخلية"، والتي بدونها لا يمكن حمل "الحديد" الذي سيأتي ذكره في الآية التالية مباشرة. وكأن السياق يقول: لا يمكنكم حمل السلاح المادي (الحديد) ما لم تمتلكوا أولاً السلاح المعنوي، وهو الإ يمان بالقضاء والقدر، والتحرر من أسر الدنيا، وغنى النفس عن المال. إنها معادلة إلهية دقيقة: التسليم بالقدر أولاً، ثم القوة بالحديد ثانياً.

ثم تكشف الآيات عن العلة الأصلية: لماذا يجزع الإنسان ويفرح فرحاً مذموماً؟ لأنه متعلق بالدنيا، ولأ نه يظن أن ما عنده هو ملك له. إنه {مُخْتَالٍ فَخُورٍ}، يبخل بماله، ويأمر غيره بالبخل. إنه قلب مريض بحب الذات والمال. وهنا يضع القرآن يده على الجرح: البخل هو رأس الخطيئة في هذا المقام. البخل ليس مجرد إمساك للمال، بل هو إمساك للقلب عن الله، وثمرة من ثمرات حب الدنيا وعدم الثقة في عوض الله. وفي مقابل ذلك، يختم السياق بآية "الغني الحميد" ليملأ القلب ثقة وطمأنينة بأن العطاء لا ينقص خزائن الله شيئاً.

إنها رحلة تطهيرية للنفس من الحزن والفرح المذموم، ومن البخل والخوف من الفقر، لتستعد لحمل الأ مانة العظيمة، أمانة الدين والمنهج، بقوة وثبات.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآيات الثلاث، لتكون على بصيرة وأنت تخوض في غمار هذه المعاني العميقة:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

١.شمولية القدر:} مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ ...{كل ما يحدث في الكون وفي النفس مكتوب ومسجل قبل حدوثه، لا يقع شيء عبثاً أو صدفة.
٢.سبق الكتابة على الخلق:} مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ...{تدبير الله أزلي، سابق على إيجاد الخلق، مما يغرس الطمأنينة في القلب بأن كل شيء يجري بتقدير حكيم.
٣.الهدف التربوي من الإخبار بالقدر:} لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ...{العلم بالقدر ليس لمجرد المعرفة، بل ليؤتي ثمرته النفسية: التحرر من الحزن المفرط على الماضي، والفرح المذموم بالحاضر.
٤.ذم صفات المتعلقين بالدنيا:} وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ...{الذي يحزن ويجزع ويفرح فرحاً مذموماً إنما يفعل ذلك لأنه مختال فخور، معجب بنفسه، ويثني عليها.
٥.تشخيص مرض البخل:} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ...{البخل هو المظهر العملي للمرض القلبي .البخيل لا يكتفي ببخله، بل يدعو غيره إليه، لأنه يراه حكمة وتدبيراً، بينما هو في الحقيقة مرض في الإرادة والمحبة.
٦.غنى الله المطلق:} وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ...{الله غني عن طاعة العباد وعن أموالهم، محمود بذاته، لا يحتاج إلى أحد .وهذا هو الأساس الذي يبني عليه المؤمن سلوكه.

مقاصد الآيات وأهدافها:

١.تربية النفس المؤمنة على التسليم للقدر، لتحصيل الأمن النفسي والطمأنينة القلبية.
٢.علاج آفتي الجزع والفرح المذموم، وهما من أكبر معوقات السير إلى الله.
٣.كشف العلاقة بين الكبر والبخل، وبيان أنهما وجهان لعملة واحدة هي التعلق بالدنيا.
٤.بناء القوة الداخلية للمؤمن تمهيداً لحمل أعباء الدعوة والجهاد) الحديد.(
٥.إقامة العقيدة الصحيحة في صفات الله) الغني الحميد (وأثرها في تزكية النفس.

المحور الأول

{مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}

صحيفة القدر... حيث تُكتب المصائب قبل وقوعها
فلسفة الطمأنينة التي تصنع القوة الداخلية في قلب المؤمن

وقفة مع الأسلوب: {مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ}

دعنا نقف – يا صاحبي – عند صدر هذه الآية التي تفيض بالسكينة: {مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ}. "ما" هنا نافية، و"من" زائدة لتأكيد العموم والشمول. أي: لم يصب ولن يصب أي مصيبة، صغيرة كانت أم كبيرة. والمصيبة في اللغة مأخوذة من "صاب السهم" أي أصاب الهدف ولم يخطئه، فكل ما يقع فهو مصيب للهدف الذي قدر له بدقة.

ثم تأمل التقسيم القرآني الدقيق للمصائب: {فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ}. إن المصائب نوعان لا ثالث لهما: مصائب أرضية كونية عامة: كالزلازل، والفيضانات، والقحط، والأوبئة التي تحل بالكون. ومصائب نفسية خاصة: كالمرض، والفقر، وموت الأحبة، والهم والغم، وفقدان الولد، وكل ما يصيب ذات الإنسان. فلم يترك البيان القرآني شاردة ولا واردة إلا وقد دخلت تحت هذا التقسيم. وفي هذا الإجمال بعد التفصيل طمأنة شاملة: كل ما يؤذيك، سواء كان من خارجك أم من داخلك، فهو في كتاب.

{إِلَّا فِي كِتَابٍ}: ما هو هذا الكتاب؟

{إِلَّا فِي كِتَابٍ}... "إلا" هنا للحصر، والمعنى: ما من مصيبة إلا وهي مسجلة في كتاب. وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض. إن المصيبة التي تؤلمك اليوم لم تأتِ صدفة، ولم تقع فجأة دون سابق علم. إنها مكتوبة، مقدرة، مرسومة في صحيفة الغيب قبل وجودك. وفي هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة".

ولم يقل "إلا بقدر" أو "إلا بعلم"، بل قال: {إِلَّا فِي كِتَابٍ}. لماذا؟ لأن الكتابة تعطي معنى التوثيق والإحكام والثبات. فالأمر ليس مجرد علم سابق، بل هو كتاب مدون، وسجل محفوظ، لا يزيد فيه ولا ينقص، لا تمحى كلمة منه ولا تبدل.

{مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا}: سبق الكتابة على الخلق

والآن تأمل هذه اللمسة البيانية العجيبة: {مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا}. "نبرأها" أي نخلقها. والضمير (ها) يعود إلى المصيبة، أو إلى الأرض والأنفس، والمعنيان متقاربان. فأصل الخلقة، وقبل أن توجد أنت، وقبل أن توجد الأرض والسماء... كانت المصيبة مكتوبة. فكأن الله يقول لك: لا تحزن على ما فات، ولا تجزع مما هو آت، فالأمر كله قد فرغ منه. أنت لم تخلق بعد، وكانت مصيبتك قد سطرت في الكتاب. هذه ليست دعوة للاستسلام السلبي، بل دعوة للاستسلام الإيماني الذي يبعث القوة. فما دامت المصيبة قد قدرت قبل أن توجد، فعلامَ التمرد؟ وعلامَ الاعتراض؟ إنها قمة التحرر النفسي.

{إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}: سهولة الأمر على الله

ثم تأتي الخاتمة المطمئنة: {إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}. "ذلك" إشارة إلى كتابة المصائب وتقديرها قبل

الخلق. وهذا أمر يسير على الله، لا يكلفه شيئاً. إنه سبحانه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير. فعلمه محيط، وقدرته شاملة، فلا يعجزه أن يكتب كل ما كان وما سيكون، ولا أن يحصي دقائق الأ مور. وإذا كان هذا الأمر العظيم (إحصاء المصائب وتقديرها) يسيراً على الله، فبالتأكيد أن تعويضك عما أصابك، وأن يأتيك بالفرج، هو أيسر عليه سبحانه.

هذا هو المعنى الإيماني العميق: إن الذي قدر المصيبة هو نفسه الذي سيعوضك. والذي كتب الحزن هو الذي سيملأ قلبك فرحاً. فلِمَ تحزن وكأن الأمر بيد غير الله؟!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: عقيدة القضاء والقدر ليست قدرية جبرية، بل هي عقيدة تحرير وبناء. إنها تعطيك تفسيراً للكون والحياة يريح عقلك وقلبك.
• الرسالة النفسية: حين تعلم أن المصيبة كانت مكتوبة قبل وجودك، يهدأ جزعك، وتتوقف عن تأنيب نفسك أو لوم غيرك، أو عتاب القدر. تقول كما قال الصالحون: "قدر الله وما شاء فعل".
• الرسالة التربوية: علم أبناءك أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم. هذا يربيهم على الشجاعة والإقدام، ف لا يخافون من المستقبل، ولا يتحسرون على الماضي.
• المهارة الحياتية: درب نفسك على الاسترجاع (إنا لله وإنا إليه راجعون) عند كل مصيبة، وتأمل معنى أنها في كتاب، فيهدأ قلبك ويثبت.

المحور الثاني

{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}

الهدف التربوي للإخبار بالقدر... التحرر من أسر الماضي وغرور الحاضر
كيف نتعامل مع الفوات والإيتاء؟ وما هو الفرح المذموم؟

{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ}: علة الإخبار بالقدر

هنا يصل البيان القرآني إلى الذروة. اللام في {لِكَيْلَا} هي لام التعليل. إنها تعلن بوضوح: "أخبرتكم أن كل مصيبة في كتاب من قبل أن نبرأها، وكل ذلك لأجل ألا تحزنوا!". العلة والهدف هو سلامة قلوبكم، هو طمأنينتكم. لم يخبرنا الله بالقدر ليجعلنا سلبيين، بل ليجعلنا أقوياء، غير أسارى للأحزان.

{تأسَوْا} من الأسى، وهو أشد الحزن. والفعل مضارع، يفيد الاستمرار. والمعنى: لئلا تستمروا في الحزن الشديد على ما فاتكم من خير الدنيا. ما مضى لن يعود، والحزن عليه لن يغيره، فلماذا تحرق قلبك على أمر قد فرغ منه؟ إن ما فاتك من رزق أو زواج أو نجاح أو صحة... كان مقدراً أن يفوتك، لأنه مكتوب في صحيفة قدرك منذ الأزل. فلا تأسَ. هذه ليست قسوة، بل هي رحمة بك. لأن الله يعلم أن الحزن المستمر يهدم النفس، ويضعف الجسد، ويعطل الحياة. إنها دعوة للحياة العملية، لا للاستسلا م.

{وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}: الفرح المذموم... ما هو؟

والجانب الثاني من العلاج: {وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}. الفرح المنهي عنه هنا ليس مطلق الفرح. فالله يقول: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا}. والفرح بفضل الله ورحمته مطلوب. ولكن الفرح المذموم هنا هو فرح البطر والأشر، فرح الاختيال والفخر، الفرح الذي يجعل صاحبه يظن أنه حصل على ما حصل بحوله وقوته وذكائه، لا بفضل الله. هذا الفرح هو ابن النسيان؛ نسيان أن النعمة من الله، ونسيان أن ما آتاك الله عرضة للزوال. إنه الفرح الذي قال فيه قارون: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي}. فالآية تعالج نغمة "أنا" و"لي" و"بجهدي" التي تظهر في قلب الإنسان حين يغمره الله بنعمة. فليفرح المؤمن، ولكن فرح شاكر، لا فرح بطر.

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}: وصف من يفرح ويفخر

ثم يأتي التعقيب المكشوف: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}. هنا يرتفع النقاب عن حقيقة القلب الذي لا يدرك معنى القدر. ذلك الذي يأسى ويحزن ويجزع، وذلك الذي يفرح ويبطر، كلاهما يشتركان في صفة قلبية واحدة: إنه قلب {مُخْتَالٍ فَخُورٍ}. المختال هو شديد الخيلاء والكبر، والمختال في مشيته،

المعجب بنفسه. والفخور هو كثير الفخر على الناس بما يملكه. إن حزنه على فوات الشيء إنما هو حزن على فوات حظ لنفسه العزيزة عنده، وفرحه بالشيء إنما هو فرح بأنه صار مميزاً عن غيره. فمحور الحركة في الحالين هو "الأنا"، هي النفس المتضخمة. لهذا لا يحب الله هذا القلب. إنه يريد قلباً متواضعاً، يعلم أن ما به من نعمة فمن الله، وأن ما فاته فبتقدير الله، فيسلم ويرضى.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: التوازن العاطفي ثمرة من ثمرات الإيمان بالقدر. المؤمن لا ينهار في الملمات، ولا يطغى في النعم.
• الرسالة النفسية: لا تظلم نفسك بالحزن على ما لا يمكن تغييره. ولا تفسد فرحتك بالبطر والغرور. كن عبداً لله في الحالين.
• الرسالة التربوية: درّب أبناءك منذ الصغر على ألا يحزنوا بشدة على فقد لعبة، وألا يختالوا على أقرانهم بلعبة جديدة. ذكرهم بأن الله هو المعطي المانع.
• المهارة الحياتية: راقب مشاعرك. إن وجدت نفسك في حالة أسى مفرط، فذكرها بالقدر. وإن وجدت نفسك في حالة فرح مختال، فذكرها بفضل الله واشكره.

المحور الثالث

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}

من تشخيص المرض إلى وصف الدواء... حين يكون البخل ثمرة الكبر
وحين يكون اليقين بغنى الله هو الشفاء من الخوف من الفقر

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ}: وجه آخر للمختال الفخور

بعد أن وصف الله القلب المختال الفخور، كشف عن أبرز مظاهره العملية: إنه البخل. {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ}... إنه وصف آخر للمختالين الفخورين. فالمختال بماله أو علمه أو جاهه، شديد الحرص عليه، لا يعطيه إلا بحساب، ويظنه هو سر تفوقه. البخيل ليس مجرد ممسك للمال، بل هو ممسك للعطاء بكل صوره. يمتنع عن العطاء خوفاً من الفقر، أو كبراً على المحتاجين، أو ظناً منه أن استمرار النعمة مرهون بإمساكها.

وهنا مكمن الخطر في سياق السورة. لقد أمر الله بالإنفاق في مواضع كثيرة، وجعل الصدقة قرضاً حسناً، وجعلها سبباً من أسباب حياة القلوب. والآن يكشف لنا أن ضد الإنفاق، وهو البخل، هو علامة على مرض القلب وموته. البخيل قلبه ميت أو مريض، لا يشعر بلذة العطاء، ولا يثق في خلف الله وعوضه. إنه يعبد المال من حيث لا يشعر، لأنه يظن أن المال هو الذي يحفظ له مكانته وتميزه.

{وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}: تزيين المرض للآخرين

وهنا تتجلى العلة بشكل أعمق: البخيل لا يكتفي ببخله، بل {يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}. لماذا يأمر البخيل غيره بالبخل؟ لأنه يرى البخل "حكمة" و"تدبيراً" و"ذكاءً"، ويريد للآخرين أن يكونوا مثله. بل ربما لأنه يشعر بالذنب في قرارة نفسه، فيريد أن يشرك غيره معه في هذه الصفة ليهدأ ضميره. أو ربما لأنه لا يريد لأحد أن يسبقه إلى الخير أو أن يكون أكرم منه. إن هذه العقلية الخطيرة (أمر الآخرين بالبخل) هي التي تفسد المجتمعات، وتقضي على روح التكافل، وتزرع بذور الأنانية والجشع. إنها قمة الأنانية أن تحبس خيرك، وتحبس خير غيرك أيضاً.

{وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}: الآية التي تزلزل عرش البخل

وفي ختام هذا المقطع يأتي العلاج الحاسم، والصاعقة التي تنسف كل أعذار البخلاء: {وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}. "ومن يتول" أي يعرض عن طاعة الله، وعن الإنفاق، وعن أوامر الله. لماذا لا يضره ذلك؟ لأنه {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}. تأمل بلاغة القصر في {هُوَ الْغَنِيُّ}. الله وحده هو الغني الكامل. غناه ذاتي، لا يحتاج إلى أموالكم ولا إلى طاعتكم. أنتم الفقراء إليه. إنفاقكم لا يزيد في ملكه شيئاً، وبخلكم لا ينقص من ملكه شيئاً.

ثم تأمل وصف {الْحَمِيدُ}. هو المحمود بذاته، حتى لو كفر به الكافرون. هو محمود على نعمه، محمود

في أفعاله، محمود في أسمائه وصفاته. فإذا كان الله هو الغني الذي لا يحتاجك، وهو الحميد الذي له الحمد كله... فلماذا تبخل على نفسك بالخير؟ لماذا تتوهم أن إمساكك للمال سيغني شيئاً؟ إن الله يدعوك لتنفق، لا لأنه يحتاج، بل لأنك أنت المحتاج لتزكية نفسك، ولأنه يريد أن يغفر لك ويثيبك. إنها قمة الحماقة أن تتولى معرضاً عن الغني الحميد، لتتشبث بمالك الفاني!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: البخل ليس تدبيراً اقتصادياً، بل هو مرض قلبي، ونتيجة لعدم الثقة بالله الغني الحميد.
• الرسالة النفسية: أكبر حافز للإنفاق والسخاء هو اليقين بأن الله غني عنك، وأنه هو الذي سيعوضك. السخي قوي القلب، والبخيل ضعيف القلب.
• الرسالة التربوية: إذا رأيت ابنك يبخل بألعابه، لا تعنفه فقط، بل علمه معنى "الغني الحميد"، وازرع فيه حب العطاء لأنه هو المنتفع.
• المهارة الحياتية: كلما وسوس لك الشيطان بالفقر، فقل: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}. وكلما هممت بصدقة، تذكر أنها قرض للغني الحميد الذي لا يضيع عنده أجر المحسنين.

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

١.تعزيز الصحة النفسية بالإيمان بالقدر:
في عصر كثرت فيه الأمراض النفسية الناتجة عن القلق والاكتئاب، تقدم هذه الآيات العلاج الرباني: الإيمان بأن ما أصاب لم يكن ليخطئ، وما أخطأ لم يكن ليصيب. هذا يحرر الإنسان من وهم السيطرة الكاملة، ومن جلد الذات على ما فات.

٢.علاج ظاهرة "الاستعراض" والتفاخر:
وسائل التواصل حوّلت حياتنا إلى ساحة للتفاخر والفرح المذموم. هذه الآية تضع حداً لذلك؛ فلا تفرح فرح البطر بما آتاك من متاع زائل، ولا تختل على الناس بما تملك، فيكون مصيرك أن يفقدك الله محبته.

٣.مواجهة ثقافة البخل والأنانية:
العالم اليوم يمجّد "حب الذات" و"جمع الثروة" بأي طريقة. وتأتي هذه الآيات لتقول: إن البخل وأمر الناس به جريمة أخلاقية. وإن التولي عن أوامر الله لا يضر الله شيئاً، بل يضر صاحبه.

٤.بناء القوة الداخلية قبل القوة المادية:
قبل أن تبني قوتك المادية، ابنِ قوتك النفسية بالتسليم لله. المجتمع الذي ينهار أفراده عند أول مصيبة، أو يبطرون عند أول نعمة، هو مجتمع هش لا يستطيع حمل "الحديد" ولا مواجهة التحديات.

رسائل وتوجيهات:

• في زمن القلق، تعلق بالقدر.
• في زمن الاستهلاك والتفاخر، الزم التواضع والشكر.
• في زمن الأنانية، كن كريماً سخياً، وادعُ إلى الكرم.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: شمولية العلم الإلهي وأزليته
الآيات ترسخ مفهوم أن العلم الإلهي أزلي، محيط، مدوّن. لا يعزب عنه شيء. وهذا يريح العقل من الأسئلة الوجودية المعقدة حول "لماذا أنا؟" و"لماذا الآن؟"، ويجعل المؤمن يوقن بأن هناك حكمة عليا.

المفهوم النفسي: التوازن العاطفي (الاتزان الوجداني)
الآيات تبني شخصية سوية متزنة، لا تهتز في العواصف، ولا تطيش في النعم. إنها شخصية ثابتة، مستقرة، لأن محورها خارج الذات، محورها في الله. "لنفسي" و"لغيري" و"لله" كلها ترجع إلى التسليم لله.

المفهوم التربوي: التربية على "التسليم النشط"
التسليم للقدر في الإسلام ليس سلبية، بل هو تسليم "نشط". أنا أسلم بما فات، فلا أحزن، لأوفر طاقتي للعمل في المستقبل. أنا أسلم بما أنا فيه، فلا أبطر، لأستمر في الشكر والعمل. إنها تربية تجعل الإنسان فاعلاً، لا مفعولاً به.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نرتاح نفسياً
الله يريد لنا الراحة. يريد أن نلقي بأحزاننا وهمومنا عنده. يريد ألا نتعب أنفسنا في حبس الدنيا. {لِكَيْلَا تَأْسَوْا} هي بشارة راحة وطمأنينة.

الإرادة الثانية: أن نثق بتدبيره
يريد منا ألا نكون مثل الأطفال الذين يغضبون إذا منعهم الطبيب عن طعام يضرهم. يريدنا أن نثق أنه الرحمن الرحيم، الذي قدر علينا المصيبة لحكمة، وأنه الذي سيعوضنا.

الإرادة الثالثة: أن نكون أسخياء، لا بخلاء
يريدنا أن نتحرر من عبودية المال، ومن مرض البخل. يريدنا أن نكون كرماء، لا لأن الكرم فضيلة اجتماعية فقط، بل لأنه دليل صحة القلب وثقته بالغني الحميد.

المحور السابع

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد العقدي: إثبات صفة العلم والكتابة لله
الآية ترسخ الإيمان بعلم الله، وباللوح المحفوظ، وسبق المشيئة، مما يبني عقيدة راسخة.

البعد الأخلاقي: استئصال صفات الخيلاء والفخر والبخل
الآيات تجتث من النفس أصول الرذائل: الكبر وحب الذات، وتغرس بدلها فضائل التواضع والكرم و الرضا.

البعد الحضاري: صناعة الإنسان القوي الأمين
حضارة تقوم على هذه المعاني تنتج إنساناً صلباً في المواقف، كريماً في عطائه، متواضعاً في انتصاره. هذا الإنسان هو الذي يبني الحضارة الحقيقية، لا إنسان الترف المختال.

المحور الثامن

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان المطمئن
الآيات تبني إنساناً لا يزلزله الفقد، ولا يطغيه الغنى. قلبه معلق بالله، ينظر إلى كل شيء على أنه قدر، فيعيش في سلام دائم.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتكافل
مجتمع يتشرب هذه الآيات سيكون مجتمعاً كريماً، يُرى فيه الإيثار لا البخل، ويُسمع فيه الأمر بـ

المعروف والإنفاق، لا الأمر بالبخل. مجتمع يدرك أن أمواله ليست له، بل هي أمانة من الغني الحميد.

المسار الثالث: بناء الحضارة الثابتة
حضارة تنهض على أكتاف رجال ونساء لا تهزهم الأزمات الاقتصادية، ولا تذلهم الحاجة، ولا يبطرهم النصر... هذه الحضارة هي التي تستحق البقاء.

المحور التاسع

كيف تحول الآيات إلى واقع معاش؟ (المهارات الحياتية والمعرفية والعملية)

المهارة الحياتية الأولى: مهارة التحكم في ردود الفعل.
تدرب على ألا تصدر منك ردة فعل عنيفة عند المصيبة، ولا فرحة هستيرية عند النعمة. علمتنا الآية أن الفعل الصحيح هو الاسترجاع (إنا لله وإنا إليه راجعون) عند المصيبة، والشكر (الحمد لله) عند النعمة. اجعل هذه المهارة عادة يومية. في كل موقف صغير أو كبير، درب نفسك على الهدوء و التسليم والشكر.

المهارة الحياتية الثانية: مهارة الإنفاق الفوري لعلاج البخل.
كلما شعرت بتعلق قلبك بشيء تحبه من مال أو طعام أو لباس، جرب أن تتصدق بجزء منه فوراً. هذه المهارة تقتلع جذور البخل من نفسك. البخل مرض لا يعالج إلا بفعل ضدّه. إذا وسوس لك الشيطان بأنك ستحتاجه غداً، تذكر: {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}. الإنفاق ليس نقصاً للمال، بل هو تطهير للنفس وزيادة للبركة.

المهارة الحياتية الثالثة: مهارة تحويل الحزن إلى خطة عمل.
علمتنا الآية ألا نأسى على ما فات. لكن هذا لا يعني عدم التعلم من الأخطاء. إذا فاتك قطار، أو فشل مشروع، أو ضاعت فرصة.. لا تحزن حزناً مزمناً. بل مارس مهارة "تحليل الماضي بموضوعية". قل: "هذا قدر الله، ماذا أفعل الآن؟". حول طاقة الحزن إلى طاقة تخطيط للمستقبل. هذا هو التسليم النشط.

المهارة العملية الأولى: كتابة "يوميات النعم والشكر".
حتى لا تقع في فخ الفرح المذموم، اكتب كل ليلة ثلاث نعم أنعم الله بها عليك في يومك، وقل: "الحمد لله، هذا من فضل ربي". هذه المهارة تمنع النفس من الاختيال والفخر، وتجعلها دائمة الشكر وا لاعتراف بفضل الله.

المهارة العملية الثانية: تعويد اللسان على التسبيح والتحميد.
الغني الحميد... كرر هذه الكلمات كثيراً. سبحان الله الغني الحميد. كلما شعرت بالخوف من الفقر، أو الطمع فيما عند الآخرين، قل: "حسبي الله لا إله إلا هو، هو الغني الحميد". هذا الذكر يملأ قلبك غنى، ويمنع عنك وساوس الشيطان.

خاتمة: رحلة إلى ساحل الطمأنينة

أيها القارئ الكريم...

ها قد ودعنا هذه الآيات العظيمة، وقد أخذت بيدنا إلى ساحل الطمأنينة. لقد قلبت لنا مفاهيمنا رأساً على عقب. علمتنا أن المصيبة التي نخافها ليست شؤماً، بل هي قدر كتب قبل أن نخلق. وعلمتنا أن الخسارة المالية ليست فقراً، بل الفقر الحقيقي هو فقر القلب وبخله.

فلنحفر في قلوبنا هذا المعنى العظيم: كل شيء بقدر، فلا داعي للأسى المدمر. كل ما عندنا زائل، فلا داعي للفرح المذموم. لنكن أسخياء، لا بخلاء، ولنعلم أن الله هو الغني الحميد، الذي يعطي ولا ينقص من ملكه شيء، ويحب عباده المنفقين الكرماء. بهذا الإيمان نستطيع أن نعبر الحياة، ونحن نحمل في أيدينا "حديد" العزم والقوة، وفي قلوبنا سكينة الإيمان والتسليم.
القسم الخامس
المبحث الأول

تفسير الآية (25) من سورة الحديد

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

حين يتنزل الوحي والميزان والحديد... وحين تتكامل عناصر القيام بالقسط
وحين يكون الجهاد بالغيب هو الامتحان... والقوة والعزة لله وحده
رحلة من البينات إلى الحديد... ومن إقامة العدل إلى نصرة الله بالغيب

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من سورة الحديد ومن جدلية القوة المادية والقوة المعنوية

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل ضرورية قبل أن تدخل إلى رحاب هذه الآية العظيمة، التي هي بحق قلب سورة الحديد النابض، والآية التي سميت السورة باسمها. لقد مضت بنا السورة في رحلة طويلة، بدأت من تسبيح الله في السماوات والأرض، مروراً بالحث على الإنفاق والجهاد، وكشفت لنا عن المنافقين وأسباب هلاكهم، وعاتبت المؤمنين على بطء خشوعهم، وبينت وسائل حياة القلوب من قرآن وصدقة، وحقرت الدنيا في أعيننا، وأمرتنا بالمسابقة إلى الجنة، وثبتت قلوبنا بالإيمان بـ القضاء والقدر. وها نحن الآن نصل إلى الذروة، إلى الآية التي تجمع كل هذه الخيوط في نسيج واحد محكم.

تأمل – يا صاحبي – هذا الترتيب الإلهي البديع. لقد سبق هذه الآية مباشرة الحديث عن البخلاء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وختمت الآية السابقة بقوله: {وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}. وفي هذه الآية يأتي الحديث عن إنزال الحديد، الذي يحتاج إلى بذل وإنفاق وتضحية. وكأن السياق يقول: "من تولى وبخل بماله ونفسه، فـالله غني عنه. أما من أراد أن ينصر الله ورسوله، فهذا هو سبيله: البينات، والكتاب، والميزان، والحديد". إنها معادلة ربانية دقيقة: التمكين يحتاج إلى أمرين معاً: الحجة والبيان (الكتاب والميزان)، والقوة والسلطان (الحديد). ولا يمكن أن يقوم الدين بواحد منهما دون الآخر.

وهكذا نجد أنفسنا أمام آية جامعة، ترسم خريطة كاملة لقيام الحق في الأرض. إنها تذكرنا بأركان أربعة: البينات (المعجزات والآيات)، والكتاب (الوحي والتشريع)، والميزان (العدل والإنصاف)، والحديد (القوة والرادع). هذه الأركان الأربعة هي التي بها تقوم السماوات والأرض، وبها تقوم حياة الناس على الاستقامة. إنها دستور الحضارة، ومنهج التمكين، وطريق النصر.

ثم تختم الآية ببيان الحكمة من كل ذلك: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ}. إنه الابتلاء... إنه الا متحان. من الذي سينصر دين الله وهو لا يرى الله؟ من الذي سيبذل ماله ونفسه وهو يؤمن بالغيب؟ ومن الذي سيحمل الحديد في سبيل الله إيماناً واحتساباً؟ إنها قضية "النصرة بالغيب" التي هي مدار السورة كلها. ثم يأتي الختام المهيب: {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}، ليذكر الجميع بأن القوة الحقيقية لله، وأن النصر من عنده، فلا يغتر أحد بحديده، ولا يخاف أحد من حديد عدوه.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآية الكريمة، لتكون على بصيرة وأنت تخوض في غمار معانيها:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

١.إرسال الرسل بالبينات:} لقدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ...{كل رسول أرسله الله مؤيداً بالآيات الواضحات والحجج القاطعات، لإقامة الحجة على الناس.
٢.إنزال الكتاب والميزان:} وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ...{الكتاب فيه شرع الله وأحكامه، والميزان هو العدل الذي توزن به الأمور.
٣.الهدف الأسمى: إقامة القسط:} لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...{الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب هي أن يعيش الناس بالعدل في كل شؤونهم.
٤.إنزال الحديد:} وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ...{امتنان من الله بإنزال الحديد، وفيه إشارة إلى أنه من عند الله، وليس من صنع البشر وحده.
٥.البأس الشديد والمنافع:} فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ...{الحديد ذو وجهين: قوة رادعة في الحرب ، ومنافع جمة في السلم.
٦.حكمة الابتلاء:} وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ...{الله يختبر عباده، ليرى من ينصر دينه

إيماناً بالغيب.
.٧صفات الله:} إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ...{القوة والعزة لله وحده، فلا حول ولا قوة إلا به.

مقاصد الآية وأهدافها:

.١بيان أن الدين يقوم على الحجة والقوة معاً، فلا انفصال بينهما.
.٢تذكير الناس بنعمة الحديد، التي هي آية من آيات الله ونعمة عظيمة.
.٣الحث على إقامة العدل، فهو غاية الرسالات السماوية.
.٤بيان أن الجهاد والقتال مشروع لإقامة القسط وردع الظلم.
.٥توجيه المؤمنين إلى أن النصرة الحقيقية هي نصرة الله ورسله بالغيب، لا نصرة الذات.
.٦ربط القوة بالله وحده، لئلا يغتر الإنسان بقوته.

المحور الأول

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}

الركنان الأولان: البينات والكتاب والميزان... أساس إقامة العدل
حين تتنزل الشرائع ليقوم الناس بالقسط

وقفة مع الأسلوب: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا}... توكيد الخبر بثلاثة مؤكدات

دعنا نقف – يا صاحبي – عند صدر هذه الآية المهيبة: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا}. اللام موطئة للقسم، و"قد" حرف تحقيق، وفعل "أرسلنا" بصيغة العظمة. ثلاثة مؤكدات في بداية الآية: القسم المقدر، واللام، وقد. وهذا التوكيد المتعدد يدل على عظم الخبر وأهميته. فالله سبحانه يقسم على أنه أرسل الرسل، ليؤكد هذه الحقيقة ويقررها في النفوس. إنها ليست قضية هامشية، بل هي قضية محورية في العقيدة: الإيمان بالرسل.

{رُسُلَنَا}: إضافة تشريف للرسل

{رُسُلَنَا}... أضافهم الله إليه، فقال "رسلنا". وهذه إضافة تشريف وتكريم. هم رسل الله، اصطفاهم واختارهم لتبليغ دينه. وفيهم من قص الله علينا قصصهم، وفيهم من لم يقصص. وكلهم جاءوا بهذه الأركان الأربعة التي ستذكرها الآية.

{بِالْبَيِّنَاتِ}: الآيات والحجج الواضحات

{بِالْبَيِّنَاتِ} جمع بينة، وهي الدليل الواضح الذي يبين الحق ويفرق بينه وبين الباطل. والرسل ما أرسلوا إلا بالبينات: معجزات حسية (كعصا موسى وناقة صالح)، وحجج عقلية (كجدال إبراهيم لقومه)، وآيات قرآنية باقية. والبينات هي التي تقطع الحجة على الناس، فلا يبقى لأحد عذر بعدها. وفي هذا إشارة إلى أن الدين لا يفرض بالقوة أولاً، بل بالحجة والبيان أولاً. فالبينات هي الأساس.

{وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ}: الركن الثاني... الكتاب المشتمل على الشرع

{وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ}. "أنزلنا" فيه إشارة إلى أن الكتاب منزل من عند الله، وليس من عند الرسل أنفسهم. والكتاب: جنس يشمل كل الكتب السماوية: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن. والكتاب فيه شرع الله وأحكامه، وفيه الحلال والحرام، وفيه قصص الأولين، وفيه المواعظ.

وتأمل قوله: {مَعَهُمُ}. الكتاب أنزل معهم، أي مصاحباً لهم. فهم لم يأتوا بآيات فقط، بل أتوا معها بكتاب يتلى ويدرس ويحفظ. فالآيات (البينات) تخاطب العين والحس، والكتاب يخاطب العقل والقلب. كلاهما ضروري.

{وَالْمِيزَانَ}: الركن الثالث... العدل الذي توزن به الأمور

{وَالْمِيزَانَ}... ما هو الميزان؟ فيه قولان مشهوران:
الأول: الميزان هو العدل نفسه. سمي العدل ميزاناً لأن به توزن الحقوق وتعدل. والمعنى: أن الله أنزل

مع الرسل العدل، ليتحاكم الناس إليه.
الثاني: الميزان هو الآلة الحسية التي يوزن بها. ولكن الأظهر هو القول الأول، لأن سياق الآية في إقامة القسط والعدل. فالميزان هو كل ما توزن به الأمور: من أحكام الشرع، وقواعد العدل، وموازين القيم. إنه المبدأ الذي يمنع الظلم ويحقق الإنصاف.

{لِيَقُومَ النَاسُ بِالقِسْطِ}: الغاية الكبرى... إقامة العدل

وهنا تصل الآية إلى بيان الغاية من كل ما سبق: {لِيَقُومَ النَاسُ بِالقِسْطِ}. اللام للتعليل. أي: أرسلنا الرسل، وأنزلنا الكتاب والميزان، لأجل أن يقوم الناس بالقسط. والقسط هو العدل. والمعنى: ليعيش الناس بالعدل في حياتهم، طائعين لا مكرهين. ولكن لما كان الناس لا يلتزمون العدل باختيارهم دائماً، جاء الحديد كما سيأتي.

وتأمل أن الآية قالت: {لِيَقُومَ النَاسُ بِالقِسْطِ}. لم يقل "ليقيموا القسط" فقط، بل "ليقوموا به". أي ليكون القسط صفة لازمة لهم، ومنهج حياة يعيشونه، لا مجرد قضاء يحكمون به. إنهم يقومون، أي ينهضون بأعباء القسط، ويحملون مسؤوليته. إنها إقامة شاملة، في النفس، والأسرة، والمجتمع، والدولة. قيام حقيقي، لا قعود عن الحق.

العلاقة بين البينات والكتاب والميزان:

البينات هي الأساس: تثبت صدق الرسول.
الكتاب هو الدستور: يبين الأحكام.
الميزان هو المبدأ: يضبط العلاقات.
وهذه الثلاثة تكفي لإقامة العدل لو أن الناس كلهم أهل خير. ولكن لما كان في الناس من يظلم ويعتدي، جاء الركن الرابع.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: الدين جاء لإقامة العدل في الأرض. والعدل هو الغاية من إرسال الرسل.
• الرسالة النفسية: المؤمن يعيش للقسط، ويسعى لإقامته في نفسه وفي مجتمعه.
• الرسالة التربوية: رب أبناءك على حب العدل وبغض الظلم. علمهم أن يقيموا القسط في لعبهم، وفي تعاملهم مع إخوتهم.
• المهارة الحياتية: كن عادلا ً في كل شيء. في حكمك على الناس، في كلمتك، في تعاملك. تذكر أن القسط هو غاية الرسالات.

المحور الثاني

{وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَاس}

الركن الرابع: الحديد... الوجه الآخر للحقيقة
حين تجتمع القوة إلى جانب الحجة... وحين يصبح الحديد رحمة للناس

{وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ}: لماذا قال "أنزلنا" ولم يقل "خلقنا"؟

تأمل – يا صاحبي – هذا التعبير القرآني الفريد: {وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ}. "أنزلنا" فعل يدل على الإنزال من علو. وهذا يستوقف العقل: هل الحديد نزل من السماء؟ العلم الحديث يؤكد أن الحديد لا يمكن أن يتكون داخل المجموعة الشمسية، بل يحتاج إلى طاقة هائلة لا تتوفر إلا في النجوم العملاقة. فـ الحديد عنصر "غريب" على الأرض، نزل إليها من السماء على شكل نيازك، أو أن أصله من باطن الأ رض الذي أخرجه الله لنا. وقد قال بعض المفسرين قديماً: إن الله أنزل الحديد مع آدم عليه السلام.

وهذا التعبير – {أَنزَلْنَا} – يوحي بأمرين:
.١أن الحديد نعمة من الله أنزلها، لا من صنع البشر .فالبشر استخرجوه وصنعوه، ولكن أصله من الله.
.٢الربط بين إنزال الكتاب وإنزال الحديد: كلاهما "أنزل" .الكتاب أنزل من السماء لهداية القلوب .و الحديد أنزل من السماء) أو من باطن الأرض بإخراج الله (ليكون قوة في أيدي الناس .فالهداية و النصر من مصدر واحد: من الله .وكما قال ابن تيمية: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" .فـ

الكتاب يهدي، والحديد يحمي.

{فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}: الوجه الأول للحديد... القوة الرادعة

{فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}... البأس هو القوة والشدة في الحرب. والحديد هو أساس صناعة السلاح: السيوف، والرماح، والدروع، والمراكب الحربية. وفيه بأس شديد، أي قوة رهيبة يرهب بها العدو. وهذا البأس الشديد هو الذي يحمي الدين، ويحمي الدولة، ويردع الظالمين. فالحديد هو الرادع لمن لم يرتدع بـ الكتاب والميزان. من لم يقم بالقسط طوعاً، أقيم عليه بالحديد قسراً. وهذه حكمة إلهية: أن من لا يصلحه القرآن، يصلحه الحديد.

{وَمَنَافِعُ لِلنَّاس}: الوجه الثاني للحديد... النفع في السلم

ولكن الحديد ليس كله حرباً وبأساً. {وَمَنَافِعُ لِلنَّاس}. إنه أيضاً أداة من أدوات الحياة اليومية. انظر حولك: البناء، الجسور، السيارات، القطارات، السفن، الآلات، الأدوات المنزلية... كلها من الحديد. حتى أدوات الزراعة والصناعة والطب، كلها من الحديد. فالحديد هو عصب الحياة المعاصرة، وعماد التقدم التقني. وفي هذا إشارة إلى أن القوة ليست للتدمير فقط، بل للبناء والتعمير. فمنافع الحديد في السلم ربما تفوق منافعه في الحرب.

الجمع بين البأس والمنفعة: التوازن القرآني

هذا الوصف القرآني للحديد بأنه ذو وجهين (بأس ومنافع) هو منتهى الدقة والبلاغة. إنه يبين فلسفة الإسلام في القوة: القوة ليست غاية في ذاتها، بل هي وسيلة: تارة لردع الظلم (البأس)، وتارة لبناء الحياة (المنافع). والمؤمن مطالب بأن يحسن استخدام الحديد في الحالين. ففي الحرب، هو بأس شديد على الأعداء. وفي السلم، هو منافع للناس في العمران.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: القوة ضرورية لحماية الدين وإقامة العدل. لا يمكن أن يقوم الدين بلا قوة تحميه.
• الرسالة النفسية: لا تظن أن الحديد شر كله. هو نعمة من الله، إذا أحسنت استخدامه صار رحمة.
• الرسالة التربوية: علم أبناءك أن يكونوا أقوياء، ولكن قوتهم للخير لا للشر. القوة في الحق، لا في الباطل.
• المهارة الحياتية: استخدم القوة في موضعها. وازن بين اللين والشدة، وبين الحجة والقوة.

المحور الثالث

{وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ ۚ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}

الغاية من الابتلاء... نصرة الله ورسله بالغيب
حين يكون الجهاد امتحاناً للقلوب... والقوة لله وحده

{وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ}: الحكمة من وراء الابتلاء بالحديد

هنا تصل الآية إلى ذروتها في بيان الحكمة: {وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ}. الواو للعطف، واللا م للتعليل. أي: وأنزلنا الحديد، وجعلنا فيه هذا البأس، ليبتلي الله عباده، وليظهر علمه في الواقع: من الذي ينصر دينه ورسله بالغيب؟

وقوله: {وَلِيَعْلَمَ اللهُ} لا يعني أن الله لم يكن عالماً قبل ذلك. فاللّه سبحانه يعلم كل شيء قبل وقوعه. ولكن هذا العلم علم ظهور وتحقق، لا علم كشف. أي ليقع الأمر الذي سبق في علمه، فيظهر في الواقع، ويجازي الناس عليه. إنه علم تنفيذ الجزاء، لا علم اكتشاف. والله يعلم في الأزل من سينصره، ولكنه يريد أن يظهر هذا العلم في الواقع، فيثيب المنصورين ويعاقب المتخلفين.

{مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ}: النصرة بالغيب... ما هي؟

{مَن يَنصُرُهُ} أي ينصر دين الله. {وَرُسُلَهُ} أي ينصر رسل الله. والنصرة تكون بالمال والنفس واللسان و

السنان. ولكن ما معنى {بِالغَيْبِ}؟

{بِالغَيْبِ} أي وهم لا يرون الله. ينصرونه إيماناً به، وثقة بوعده، دون أن يروه. هذه هي حقيقة الإيمان: أن تعمل لله وأنت لا تراه، وأن تجاهد في سبيله وأنت لا ترى ملكوته ولا جنوده، ولكنك توقن بأنه معك، وأنه يراك، وأنه سينصرك. فالنصرة بالغيب هي النصرة الخالصة لله، التي لا تشوبها مصلحة دنيوية، ولا طلب شهرة، ولا رياء. إنها نصرة القلب قبل نصرة الجسد.

والحديد هو أداة هذه النصرة. فحين يحمل المؤمن السيف، أو يركب الدبابة، أو يصنع السلاح، وهو يفعل ذلك إيماناً بالله وتصديقاً لوعده، فهذه هي "النصرة بالغيب". وهو امتحان صعب: لأن العدو يخيف، والموت يهدد، والشيطان يثبط، والنفس تجزع. ولكن المؤمن الحقيقي هو الذي يثبت، لأنه ينصر ربه بالغيب.

{إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}: ختام الآية... القوة لله وحده

ثم تأتي الخاتمة المهيبة: {إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}. "قوي" لا يعجزه شيء، ولا يغلبه أحد. "عزيز" لا يذل ولا يقهر، بل هو الغالب الذي لا يغلب. وهذا الختام يوجه القلوب إلى مصدر القوة الحقيقي. بعد أن ذكر الحديد والبأس الشديد، وذكر نصرة الله... يختم بتذكير المؤمنين: لا تظنوا أن النصر بحديدكم! إنما النصر من الله القوي العزيز. هو الذي خلق الحديد، وهو الذي يمنح النصر. فلا تغتروا بقوتكم، ولا تخافوا من قوة عدوكم.

إنها معادلة إيمانية دقيقة: أنت مطالب بإعداد الحديد (القوة)، ولكنك بعد إعداده تتوكل على الله القوي العزيز. لا تتكل على الحديد، بل تتكل على رب الحديد. وهذا هو سر التوازن في الإسلام: بين الأخذ بالأسباب والتوكل على مسبب الأسباب.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: الجهاد والنصرة امتحان إلهي، ليظهر المؤمن الصادق من المنافق.
• الرسالة النفسية: تذكر أنك إن جاهدت بالغيب، فإن الله يراك وسيجزيك. جاهد وأنت موقن أن الله معك.
• الرسالة التربوية: رب أبناءك على معنى "النصرة بالغيب". علمهم أن ينصروا الحق وهم لا يرون ثواباً عاجلاً.
• المهارة الحياتية: في كل عمل تعمله لله، استحضر أنك تنصر دينه بالغيب. هذا الاستحضار يخلص نيتك ويقوي عزيمتك.

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

١.الجمع بين العلم والقوة:
الآية تدعونا إلى الجمع بين "الكتاب" (العلم والمعرفة) و"الحديد" (القوة والتقنية). لا يمكن لأمة أن تنهض بالعلم وحده بلا قوة تحميه، ولا بالقوة وحدها بلا علم يرشدها. النهضة الحقيقية هي الجمع بينهما.

٢.مشروعية إعداد القوة:
في عصر يعتبر البعض أن القوة شر، تأتي هذه الآية لتقرر أن الحديد نعمة من الله، وأن فيه بأساً شديداً ومنافع للناس. الأمة مطالبة بأن تكون قوية، لا لتعتدي، بل لتردع العدوان وتحمي المستضعفين.

٣.إقامة القسط في كل المجالات:
{لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ}... هذه الآية تدعونا إلى السعي لتحقيق العدل في كل شيء: في القضاء، في الاقتصاد، في التعليم، في الأسرة، في العلاقات الدولية. العدل هو الغاية التي خلق الله من أجلها السماوات والأرض.

٤.النصرة بالغيب في زمن الشهود:

في زمن كثرت فيه المغريات والماديات، تدعونا الآية إلى أن نكون ممن ينصرون الله ورسله بالغيب. أن نعمل لله حيث لا يرانا أحد، وأن نجاهد أنفسنا وأموالنا في سبيله إيماناً به.

رسائل وتوجيهات:

• كن من طلاب العلم، وكن قوياً في الحق.
• أسهم في إقامة العدل في محيطك.
• اعمل لله بالغيب، واجعل النية خالصة.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: تكامل الحجة والقوة
الآية ترسخ مفهوماً فكرياً مهماً: أن الدين لا يقوم إلا بالحجة والقوة معاً. من فصل بينهما أخطأ. الحجة بلا قوة تموت، والقوة بلا حجة تطغى. لا بد من "الكتاب" الذي يهدي، و"الحديد" الذي يحمي.

المفهوم النفسي: النصرة بالغيب وقوة اليقين
النصرة بالغيب تحتاج إلى قوة يقين. المؤمن الذي يجاهد ولا يرى النصر، الذي ينفق ولا يرى الثواب، هو مؤمن قوي اليقين. وهذا اليقين هو زاد القلب في طريق الجهاد الطويل.

المفهوم التربوي: التربية على القوة والعدل معاً
الآية تعلمنا أن نربي أبناءنا على القوة البدنية والنفسية، وعلى حب العدل وإقامته. لا نريد ضعيفاً يظلم، ولا قوياً يطغى. بل قوياً عادلاً، يضع القوة في خدمة القسط.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نعد القوة المستطاعة
الله يريد منا أن نعد القوة بكل أنواعها. وأن نستخدم الحديد في الخير، لا في الشر.

الإرادة الثانية: أن نقيم القسط في أنفسنا ومجتمعنا
يريد منا أن نكون عباداً لله مقسطين، عادلين في كل أمورنا.

الإرادة الثالثة: أن ننصر دينه بالغيب
يريد منا أن نكون جنوداً له، ننصره وننصر رسله، دون أن نرى جزاءً عاجلاً. أن نعمل ونجاهد وننفق إيماناً به.

الإرادة الرابعة: أن نثق به وحده
يريد منا بعد كل هذا الإعداد ألا نعتمد على الحديد، بل نعتمد على رب الحديد. أن نوقن أنه القوي العزيز.

المحور السابع

أبعاد الآية وآفاقها

البعد العقدي: الإيمان بأن القوة من الله
الآية تؤصل لعقيدة أن القوة من الله، وأن الحديد من عنده، وأن النصر بيده.

البعد الحضاري: بناء حضارة العلم والقوة والعدل

الآية تقدم دستوراً للحضارة: علم (الكتاب)، وقيم (الميزان)، وقوة (الحديد)، وغاية (القسط). هذه هي أركان الحضارة الإسلامية التي إن قامت عليها الأمة سادت العالم.

البعد الاجتماعي: مجتمع العدل والتكافل
{لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}... هذا نداء لبناء مجتمع العدل، حيث يعيش الناس متساوين في الحقوق و الواجبات، لا ظالم ولا مظلوم.

المحور الثامن

تحويل الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان القوي العادل
الآية تبني إنساناً قوياً في عقله (الكتاب)، قوياً في أخلاقه (الميزان)، قوياً في جسده (الحديد). وهذا الإنسان هو عماد الأمة.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتماسك
مجتمع يقرأ هذه الآية سيكون مجتمعاً متماسكاً، قوياً برباط العقيدة، عادلاً في علاقاته الداخلية، قوياً في مواجهة أعدائه.

المسار الثالث: بناء الحضارة المتوازنة
حضارة القرآن والحديد... تجمع بين الروح والمادة، بين الدين والدنيا، بين العبادة والعمل. هذه هي الحضارة التي تصلح لقيادة البشرية.

المحور التاسع

كيف تحول الآية إلى واقع معاش؟ (المهارات الحياتية والمعرفية والعملية)

المهارة الحياتية الأولى: مهارة الجمع بين العلم والقوة في حياتك الشخصية.
لا تكن عالماً ضعيفاً، ولا قوياً جاهلاً. تعلم العلم الشرعي وعلم الدنيا (الكتاب)، وفي نفس الوقت اهتم بصحتك وقوتك البدنية (الحديد). مارس الرياضة، وتعلم فنون الدفاع عن النفس، وكن قوياً لتستطيع حماية دينك وأهلك ووطنك. هذه المهارة تجعل منك إنساناً متكاملاً.

المهارة الحياتية الثانية: مهارة تطبيق العدل في محيطك.
ابدأ بنفسك: اعدل في تقييمك لأفعالك. ثم مع أسرتك: اعدل بين أولادك. ثم في عملك: اعدل بين زملائك. {لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} تبدأ من الفرد ثم المجتمع. درب نفسك على الحياد والإنصاف. إذا حكمت بين اثنين، استمع للطرفين، وانظر في الأدلة، واحكم بما هو حق، ولو كان على نفسك.

المهارة الحياتية الثالثة: مهارة العمل لله بالغيب.
خصص أعمالاً خفية لا يعلمها إلا الله. صدقة سر، قيام ليل، استغفار في الخلوات. تعود أن تعمل العمل ولا تنتظر من الناس شكراً ولا مدحاً. هذه المهارة تقوي إيمانك، وتخلص نيتك، وتجعلك ممن ينصرون الله بالغيب.

المهارة العملية الأولى: تعلم مهنة أو تقنية تفيد الناس.
الحديد فيه منافع للناس. وفي عصرنا، التقنيات الحديثة هي "حديد" العصر. تعلم البرمجة، أو الهندسة، أو الطب، أو أي تقنية تفيد بها الأمة. كن صاحب منفعة للناس، فهذا من تطبيق قوله: {وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}.

المهارة العملية الثانية: المساهمة في إعداد القوة للأمة.
بدعم المؤسسات الخيرية التي تعد الشباب، بنشر ثقافة القوة والعزة، برفض ثقافة الذل والاستسلام. كن جزءاً من مشروع إعداد القوة، ولو بكلمة حق تقولها.

المهارة المعرفية: دراسة سيرة النبي والصحابة في الجهاد والنصرة.
اقرأ في كتب السيرة، وتأمل كيف جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين "الكتاب" و"الحديد". كيف كان

يربي أصحابه بالقرآن، ثم يعدهم للجهاد. هذه المعرفة تزيدك يقيناً بأن هذا هو طريق التمكين.

خاتمة: أمة الحديد والقرآن

أيها القارئ الكريم...

ها نحن نودع هذه الآية العظيمة، وهي ترن في آذاننا بندائها: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}. لقد أخذتك الآية في رحلة من علياء السماء حيث تتنزل البينات والكتب، إلى جوف الأرض حيث يستخرج الحديد. لقد علمتك أنك لا تستطيع أن تقيم دينك إلا بالحجة والقوة معاً. وأن واجبك أن تنصر الله ورسوله بالغيب، وأن القوة لله جميعاً.

فاخرج من رحاب هذه الآية وأنت مؤمن بأنك جندي في جيش الله. جيش لا يغتر بسلاحه، بل يتوكل على ربه. جيش يعمل بالغيب، ويخلص النية، ويعد القوة، وينتظر النصر من عند الله القوي العزيز. هذا هو دستور التمكين، وهذه هي وصية السماء للأرض. فاحملها، وبلغها، وعش بها حتى تلقى الله.

المبحث الثاني

تفسير الآيتين (26-27) من سورة الحديد

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ . ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)

حين تتصل حلقات الرسالات من نوح وإبراهيم إلى عيسى
وحين تفيض القلوب رأفة ورحمة ثم تبتدع الرهبانية
وحين يُفرّق بين المهتدين والفاسقين... ويُعطى المؤمنون أجرهم
رحلة في أعماق التاريخ النبوي... ومواقف الأمم من رسالات السماء

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من سورة الحديد ومن جدلية وحدة الرسالات وتنوع مواقف الناس

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل ضرورية قبل أن تلج إلى رحاب هاتين الآيتين الكريمتين. إنك الآن تقف أمام مشهد من أعمق مشاهد التاريخ الإيماني، مشهد يتصل فيه الماضي بالحاضر، وتتجلى فيه وحدة الرسالات السماوية، وتتنوع فيه مواقف الناس من الحق. لقد مضت بنا السورة في الآية السابقة تؤكد أن الله أرسل رسله بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان، وأنزل الحديد، ليقوم الناس بالقسط. وها هي الآن تعود إلى الوراء، تستعرض تاريخ الرسالات، لتثبت هذه الحقيقة وتؤكدها.

إن هاتين الآيتين تقدمان لنا إطلالة بانورامية على تاريخ النبوات. تبدأ من نوح عليه السلام، أبي البشرية الثاني، الذي أرسله الله بعد الطوفان، ثم تنتقل إلى إبراهيم عليه السلام، أبي الأنبياء، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب. إنهما الأبوان العظيمان اللذان تفرعت منهما شجرة النبوة المباركة. ثم تمضي الآيات لتذكر "الرُسل" بشكل عام، ثم تصل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، الذي آتاه الله الإنجيل، وجعل في قلوب أتباعه رأفة ورحمة.

لكن القصة لا تنتهي هنا. فالآيات تسجل ظاهرة خطيرة حدثت في أتباع عيسى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا}. إنها الرهبانية، ذلك الابتداع الذي اخترعه الناس من عند أنفسهم، ظناً منهم أنهم يتقربون به إلى الله. لم يكتبه الله عليهم، لكنهم التزموه ابتغاء رضوان الله. ولكنهم مع ذلك {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}. إنها مأساة التدين المغالي الذي يخترعه البشر، ثم لا يستطيعون الوفاء به، فيجمعون بين بدعة الاختراع وتقصير التطبيق.

ثم يأتي ختام الآيتين ليضع النقاط على الحروف: {فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}. إنه التقسيم الإلهي العادل عبر التاريخ: مؤمنون أوتوا أجرهم، وفاسقون خرجوا عن الطريق. وهكذا ترينا الآيتان أن سنة الله في خلقه واحدة لا تتبدل: يرسل الرسل بالحق، فيهتدي من يهتدي، ويفسق من يفسق. ثم يكون الجزاء بعد ذلك.

وهكذا ترتبط هذه الآيات بقلب سورة الحديد: وحدة الرسالة، ضرورة الإيمان والعمل، خطورة الابتداع

في الدين، وأهمية الرعاية الحقة لما التزم به العبد. إنها آيات تربط الماضي بالحاضر، وتجعل من قصص الأولين مرآة يرى فيها المؤمن نفسه، فيحذر أن يكون من الفاسقين، ويطمع أن يكون من المهتدين المؤمنين الذين أوتوا أجرهم.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيتين ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هاتين الآيتين الكريمتين:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

١.إرسال نوح وإبراهيم كأصلين للرسالات:} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ...{إشارة إلى أبوة نوح للبشرية بعد الطوفان، وأبوة إبراهيم للأنبياء من بعده.
٢.جعل النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم:} وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ...{تكريم لإبراهيم بأن جعل الأنبياء والكتب من نسله.
٣.انقسام الناس إلى مهتدٍ وفاسق:} فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ...{ليس كل من ينتمي إلى نسل الأنبياء يكون مهتدياً، بل فيهم الفاسق أيضاً.
٤.تتابع الرسل وصولاً إلى عيسى:} ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ...{إظهار اتصال حلقات الهداية الإلهية، وختامها بعيسى كنبي عظيم قبل محمد صلى الله عليه وسلم.
٥.إيتاء عيسى الإنجيل:} وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ...{الإنجيل هو الكتاب المنزل على عيسى، وهو نور وهدى.
٦.الرأفة والرحمة في قلوب أتباع عيسى:} وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ...{مدح لأتباع عيسى بما جبلهم الله عليه من لين القلب ورقته.
٧.ظاهرة الرهبانية:} وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ...{نقد للابتداع في الدين، وتفريق بين ما يكتبه الله وما يخترعه البشر.
٨.التقصير في الرعاية:} فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ...{حتى ما ابتدعوه بأنفسهم لم يستطيعوا الوفاء به.
٩.الجزاء العادل:} فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ...{إعطاء المؤمنين أجرهم، وبيان أن كثيراً من الناس فاسقون.

مقاصد الآيتين وأهدافهما:

١.بيان وحدة الرسالات السماوية واتصالها عبر التاريخ.
٢.تكريم نوح وإبراهيم بصفتهما أبوي البشرية والأنبياء.
٣.التحذير من الابتداع في الدين، والتنبيه إلى خطورة اختراع عبادات لم يشرعها الله.
٤.بيان أن المبالغة في التدين قد تؤدي إلى التقصير، وأن الأولى التزام ما شرعه الله دون زيادة ولا نقصان.
٥.إظهار عدل الله في الثواب والعقاب، وأن الجزاء يكون على الإيمان والعمل، لا على الأنساب والانتماءات.
٦.دعوة المسلمين إلى التمسك بالكتاب المنزل، وترك الابتداع.

المحور الأول

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}

الأبوان العظيمان... نوح وإبراهيم
وكيف تناسلت منهما النبوات والكتب... ثم تنوعت مواقف الناس

وقفة مع الأسلوب: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا}... تأكيد الإرسال وتشريف المرسَلين

دعنا نقف – يا صاحبي – عند صدر هذه الآية الكريمة: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ}. الواو للعطف، واللام موطئة للقسم، و"قد" حرف تحقيق، و"أرسلنا" بصيغة العظمة. أربعة مؤكدات في كلمتين. وهذا التوكيد المتعدد يلفت الانتباه إلى عظم هذا الخبر وأهميته. إنه ليس خبراً عادياً، بل هو إعلان عن حقيقة تاريخية محورية: إرسال الأبوين العظيمين.

والملاحظ أن الآية بدأت بنوح ثم إبراهيم. لم تبدأ بآدم، مع أنه أبو البشر. لماذا؟ لأن الحديث هنا عن

"الرسالة" وليس عن أصل الخلق. فنوح هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض بعد الطوفان. وقد قال بعض العلماء: "نوح هو آدم الثاني، لأن البشرية كلها من ذريته بعد الطوفان". وأما إبراهيم فهو أبو الأنبياء، فكل الأنبياء الذين جاؤوا بعده هم من ذريته. فجمع الله بينهما هنا لأنهما الأصلان اللذان تفرعت منهما النبوات.

{وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}: تكريم الذرية بالوحي

{وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}. "ذرّيتهما" أي نسلهما. والنبوة: هي الاصطفاء للوحي والرسالة. و الكتاب: هو الشرع المكتوب المنزّل. والمعنى: أن الله جعل في نسل نوح وإبراهيم الأنبياء والكتب. وهذا فضل عظيم لهما، وتشريف لذريتهما. فمن ذرية إبراهيم: إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، أيوب، يونس، زكريا، يحيى، عيسى، ومحمد... صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. كل هؤلاء من ذرية إبراهيم. وكل الكتب السماوية (التوراة، الإنجيل، الزبور، القرآن) نزلت في ذريته. وهذا تحقيق لوعد الله لإبراهيم: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}.

{فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}: التنوع في مواقف الذرية

ولكن الآية لا تقف عند حد التكريم للذرية، بل تنتقل إلى بيان الحقيقة المرة: {فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}. "فمنهم" أي من تلك الذرية التي جعلت فيها النبوة والكتاب. "مهتد" أي ثابت على الهداية، متبع للحق. "وكثير منهم فاسقون" أي خارجون عن طاعة الله، معرضون عن الهدى. وهذه حقيقة تاريخية: مجرد الانتساب إلى نبي لا ينفع إذا لم يقترن بالإيمان والعمل. فاليهود ينتسبون إلى إبراهيم، ومعظمهم فاسقون. والنصارى ينتسبون إلى إبراهيم روحياً، ومعظمهم ضالون. والمسلمون هم أحق الناس بإبراهيم لأنهم اتبعوا ملته. فالآية تقطع دابر الفخر بالأنساب، وتجعل المعيار هو الهداية أو الفسق.

الدلالة التربوية: خطر الفخر بالأنساب

هذا المقطع يعلمنا ألا نغتر بأنسابنا ولا بانتسابنا. ليس كل من انتسب إلى نبي يكون من أهل الجنة. ليس كل من قال "أنا مسلم" يكون مهتدياً. العبرة بالهداية القلبية والعملية. الهداية ليست وراثة، بل هي كسب ومنحة من الله. والفسق ليس قدراً على أحد، بل هو اختيار وتوجه. فاختر لنفسك أن تكون من المهتدين، لا من الفاسقين.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: وحدة الرسالات الإلهية تتجلى في كونها كلها من مشكاة واحدة، ومن أبوين عظيمين: نوح وإبراهيم.
• الرسالة النفسية: لا تغتر بنسبك ولا بانتمائك. الهداية عمل وقرار، لا وراثة وانتساب.
• الرسالة التربوية: رب أبناءك على أن قيمتهم الحقيقية بإيمانهم وأعمالهم، لا بأسرهم وأنسابهم.
• المهارة الحياتية: راجع نفسك: هل أنت مهتدٍ حقيقة، أم أنك تعيش على إيمان الآباء دون وعي ولا عمل؟

المحور الثاني

{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً}

تتابع الرسل عبر العصور... وصولاً إلى عيسى ابن مريم
حين تجتمع الرأفة والرحمة في قلوب الأتباع

{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا}: مسيرة الرسل المتتابعة

{ثُمَّ} للتراخي الزمني. {قَفَّيْنَا} من "قفّى" أي أتبع وألحق. {عَلَىٰ آثَارِهِم} أي على آثار نوح وإبراهيم و الذرية. {بِرُسُلِنَا} أي برسل كثيرين، يتبع بعضهم بعضاً. والمعنى: أن الله أرسل بعد نوح وإبراهيم رسلاً متتابعين، كل منهم على آثار من سبقه، يدعون إلى الله، ويكملون المسيرة. وهؤلاء الرسل هم:

إسحاق، يعقوب، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، وغيرهم... حتى انتهت المسيرة إلى عيسى.

{وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}: ختام الرسل قبل محمد

{وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}... خص الله عيسى بالذكر بعد العموم، لعظم شأنه، ولأنه خاتم أنبياء بني إسرائيل قبل محمد صلى الله عليه وسلم. وعيسى هو "ابن مريم"، ينسب إلى أمه، إشارة إلى معجزة ولادته من غير أب. وهو رسول عظيم، من أولي العزم من الرسل، وقد جاء مصدقاً للتوراة ومبشراً بمحمد عليه الصلاة والسلام.

{وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ}: الكتاب المنزل على عيسى

{وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ}... الإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى، كما أنزل التوراة على موسى، و الزبور على داود، والقرآن على محمد. والإنجيل فيه هدى ونور، وتصديق للتوراة، وبشارة بالنبي الخاتم. وقد كان الإنجيل الأصلي كتاب حق، ولكن أهل الكتاب حرّفوه وبدّلوه فيما بعد.

{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً}: منّة إلهية على أتباع عيسى

وهنا تأتي اللمسة القلبية العميقة: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً}. هذا مدح من الله لأ تباع عيسى الحقيقيين (الحواريين ومن تبعهم بإحسان). "جعلنا" تدل على أن الله هو الذي وضع في قلوبهم هذه الصفات. و"الرأفة" هي أشد الرحمة، وهي الرقة التي تصل إلى حد التألم لألم الآخرين. و "الرحمة" هي العطف والشفقة والإحسان. والفرق بينهما: الرأفة أخص وأشد، فهي رحمة مع عناية خاصة. والمعنى: أن الله منّ على أتباع عيسى بقلوب رقيقة، متعاطفة، متراحمة، بعكس قلوب اليهود التي كانت قاسية.

وهذه منقبة عظيمة لأتباع عيسى. ولكن كما سيأتي، فإنهم لم يحسنوا استخدام هذه الرأفة والرحمة، بل أدخلوا فيها الغلو، فانحرفوا عن الجادة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

- الرسالة الفكرية: الرسل متتابعون، كل منهم يكمل مسيرة من قبله، والدين عند الله واحد.
- الرسالة النفسية: الرأفة والرحمة هبة من الله، فاسأله أن يرزقك قلباً رقيقاً رحيماً.
- الرسالة التربوية: رب أبناءك على الرأفة والرحمة، وكن قدوة لهم في ذلك.
- المهارة الحياتية: تعلم كيف توازن بين الرحمة والثبات على المبدأ. الرحمة لا تعني التخلي عن الحق.

المحور الثالث

{وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}

ظاهرة الرهبانية... الابتداع في الدين بدافع التقرب إلى الله
حين يخترع البشر عبادات لم يكتبها الله... ثم لا يستطيعون الوفاء بها

{وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا}: ما هي الرهبانية؟ ولماذا ابتدعوها؟

الآن – يا صاحبي – وصلنا إلى قضية محورية في هذه الآيات: قضية الرهبانية. {وَرَهْبَانِيَّةً} منصوبة على أنها مفعول به لفعل محذوف، أو معطوفة على "رأفة ورحمة". والرهبانية مأخوذة من "الرهبة" وهي الخوف. والرهبانية: هي المبالغة في التعبد والانقطاع عن الدنيا، وترك الملذات، والترهب في الصوامع والديارات. وقد ابتدعها النصارى من عند أنفسهم، ولم يفرضها الله عليهم.

ولكن لماذا ابتدعوها؟ الآية تجيب: {إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ}. "إلا" هنا استثناء منقطع، أو بمعنى "لكن". و المعنى: ما كتبناها عليهم، لكنهم ابتدعوها لأجل أن يبتغوا بها رضوان الله. أي أن دافعهم الأول كان حسناً: أرادوا التقرب إلى الله. لكن المشكلة أنهم تقربوا إلى الله بما لم يشرعه، بما لم يكتبه عليهم. وهذا هو جوهر الابتداع: حسن النية لا يبرر اختراع عبادات لم يأذن بها الله. فالمشرع هو الله وحده، وليس لأحد أن يشرع في الدين ما لم يأذن به الله، ولو كان بحسن نية.

أنواع الرهبانية التي ابتدعوها:

ذكر المفسرون أن الرهبانية التي ابتدعها النصارى شملت:
• الانقطاع عن الزواج (التبتل).
• الانعزال في الصوامع والأديرة.
• المبالغة في الصيام والقيام بما يشق على النفس.
• تحريم الطيبات التي أحلها الله.
• ترك الجهاد والانشغال بالعبادة المحضة.

وهذه كلها لم يكتبها الله عليهم، بل هم الذين ألزموا بها أنفسهم.

{فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}: التقصير فيما التزموه بأنفسهم

ثم تأتي الفاجعة الثانية: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}. أي أنهم بعد أن ابتدعوا هذه الرهبانية، والتزموا بها... لم يستطيعوا الوفاء بها. "ما رعوها" أي ما حافظوا عليها. "حق رعايتها" أي كما ينبغي أن ترعى. وهذا منتهى التناقض: هم الذين اخترعوا العبادة، ومع ذلك لم يستطيعوا القيام بها على الوجه المطلوب. لقد حملوا أنفسهم ما لا تطيق، ثم قصروا فيه. فجمعوا بين بدعة الاختراع وتقصير التطبيق.

وهذا فيه درس عظيم: أن الإنسان إذا التزم شيئاً لله، وجب عليه أن يفي به. ولكن الأعظم من ذلك: ألا يلتزم إلا بما أذن الله به. لأن الالتزام بما لم يكتبه الله غالباً ما يؤدي إلى التقصير، وإلى الحرج و المشقة.

الدلالة النفسية: خطر التدين غير المنضبط

هذه الآية تكشف عن ظاهرة نفسية خطيرة: التدين العاطفي غير المنضبط بالوحي. الإنسان قد يدفعه حماسه الديني إلى اختراع عبادات، ظناً منه أنه يتقرب إلى الله. ولكن هذا الحماس إن لم ينضبط بشرع الله، تحول إلى بدعة، ثم إلى مشقة لا تطاق، ثم إلى تقصير وفشل. وهذا ما حدث لكثير من النصارى: بدأوا بحسن نية (ابتغاء رضوان الله)، وانتهوا ببدعة ما رعوها حق رعايتها. فكم من مسلم اليوم يفعل مثل ذلك؟ يلتزم بأوراد وأذكار وعبادات لم ترد في السنة، ثم لا يستطيع المداومة عليها، فيعيش في تأنيب ضمير دائم.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: حسن النية لا يكفي لقبول العمل. لا بد أن يكون العمل موافقاً لشرع الله. والابتداع في الدين مرفوض مهما كان الدافع.
• الرسالة النفسية: لا تحمل نفسك فوق طاقتها في العبادة. خير العمل أدومه وإن قل. والتزم المشروع، فهو المضمون.
• الرسالة التربوية: علم أبناءك أن الحب لله لا يعني اختراع عبادات، بل يعني اتباع ما شرعه الله ورسوله.
• المهارة الحياتية: راجع عباداتك. هل فيها شيء من الابتداع؟ التزم بما ورد في الكتاب والسنة، واترك ما لم يرد.

المحور الرابع

{فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}

العدالة الإلهية... تفريق بين المؤمنين والفاسقين
وإعطاء كل ذي حق حقه

{فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ}: الفاء للنتيجة... إعطاء المؤمنين أجرهم

الفاء هنا للتفريع والنتيجة. بعد أن بين الله قصة الرهبانية وما آل إليه أمر المبتدعين، يبين حكمه العادل في الجميع. {فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ} أي من أتباع عيسى. {أَجْرَهُمْ} أي ثوابهم على إيمانهم وعملهم الصالح. لم يظلمهم الله شيئاً، بل أوفاهم أجرهم كاملا ً. وهذا وعد لكل مؤمن: أن الله لا

يضيع أجر من أحسن عملا ً، وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

{وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}: بيان الحال العام

{وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}... هذا هو الحكم على الأكثرية. كثير من أتباع عيسى فسقوا وخرجوا عن طاعة الله. سواء بتحريف الإنجيل، أو بالابتداع، أو بالتقصير، أو بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد بعثته. فلم ينتفعوا بما عندهم من علم، بل فسقوا وضلوا.

وهذا التقسيم (مؤمنون لهم أجرهم، وكثير فاسقون) هو سنة الله في كل الأمم. ليس كل من انتسب إلى نبي يكون مهتدياً. بل في كل أمة مهتدون وفاسقون. والجزاء يكون على الإيمان والعمل، لا على النسب والانتساب.

ربط الآيتين بسياق السورة:

هذا الختام يذكرنا بما سبق في السورة من ذكر المنافقين والكافرين، ومن عتاب المؤمنين. فالأمة الإسلامية أيضاً فيها مهتدون وفيها فاسقون. والسورة كلها تدعو إلى أن نكون من المهتدين المؤمنين، الذين يعملون الصالحات، وينفقون في سبيل الله، ويجاهدون بأنفسهم وأموالهم. فلا نغتر بانتسابنا للإسلام، بل نعمل بجد لنكون من أهل الأجر والثواب.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: عدل الله مطلق، لا يظلم أحداً. المؤمن ينال أجره كاملا ً، والفاسق يحاسب على فسقه.
• الرسالة النفسية: لا تنظر إلى كثرة الفاسقين، بل كن من القلة المؤمنة التي أوتيت أجرها.
• الرسالة التربوية: ذكر أبناءك دائماً أن الله عادل، وأن الجزاء على العمل، وشجعهم على أن يكونوا من المهتدين.
• المهارة الحياتية: تفكر في نهاية المطاف. أين تريد أن تكون؟ في زمرة المؤمنين الذين أوتوا أجرهم، أم في زمرة الفاسقين؟

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآيتان في الواقع المعاصر

١.التمسك بالكتاب والسنة ونبذ الابتداع:
في عصر كثرت فيه البدع والخرافات، تدعونا الآيتان إلى أن نلتزم بما كتبه الله علينا، وألا نخترع عبادات من عند أنفسنا بحسن نية. فالنية الصالحة لا تبرر العمل غير المشروع.

٢.التوازن في التدين:
تدعونا الآيتان إلى التوازن: فلا إفراط (كابتداع الرهبانية) ولا تفريط (كعدم رعايتها). خير الأمور أوسطها. التزم بما أمر الله، ولا تحمل نفسك ما لا تطيق.

٣.الوفاء بالالتزامات:
إذا التزمت شيئاً لله، فأوف به. {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} توبيخ للمقصرين. فكن ممن يرعون عهودهم و التزاماتهم.

٤.التحلي بالرأفة والرحمة:
{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً}... تدعونا الآية إلى أن نطلب من الله أن يرزقنا قلوباً رقيقة رحيمة، بعيدة عن القسوة والغلظة.

رسائل وتوجيهات:

• لا تبتدع في الدين، واتبع ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم.
• وازن بين العبادة والعمل الدنيوي، ولا تترهبن.
• إذا قطعت عهداً لله، فأوف به.

• كن رفيقاً رحيماً بالناس.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين

المفهوم الفكري: اتصال الرسالات ووحدة الدين
الآيتان ترسخان مفهوماً فكرياً عظيماً: أن الدين عند الله واحد، وأن الرسل إخوة، كلهم يدعون إلى التوحيد والإيمان والعمل الصالح. وما حدث من اختلافات فهو من البشر، لا من أصل الرسالة.

المفهوم النفسي: الرهبانية هروب من الواقع
الآيتان تقدمان فهماً نفسياً عميقاً: الرهبانية التي ابتدعها النصارى هي نوع من الهروب من مواجهة الحياة ومشكلاتها. بدلاً من مواجهة الفتن والثبات فيها، اختاروا الانعزال. ولكن الإسلام لا يعرف الرهبانية، بل يدعو إلى الجهاد في الحياة، وإلى مخالطة الناس والصبر على أذاهم.

المفهوم التربوي: التربية على الاتباع لا الابتداع
الآيتان تبنيان مفهوماً تربوياً مهماً: التربية الدينية الصحيحة هي التربية على "الاتباع" لا على "الابتداع". اتباع ما جاء به النبي، لا اختراع عبادات جديدة. هذا هو المنهج الذي يضمن السلامة والاستمرارية.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هاتين الآيتين؟

الإرادة الأولى: أن نعرف تاريخ الرسالات لتثبت قلوبنا
يريد منا أن ندرس قصص الأنبياء والأمم السابقة، لنأخذ منها العبر، ولنعلم أن طريق الدعوة طريق طويل، يحتاج إلى صبر ويقين.

الإرادة الثانية: ألا نبتدع في دينه
يريد منا أن نلتزم بما شرعه، وألا نزيد في الدين ما ليس منه. "ما كتبناه عليهم" أي ما فرضناه. فلنلتزم بالمفروض، ونتجنب المبتدع.

الإرادة الثالثة: أن نرعى ما التزمنا به
يريد منا إذا التزمنا شيئاً لله، أن نرعاه حق رعايته. سواء كان نذراً، أو يميناً، أو عمل تطوعي. الوفاء بالعهد صفة المؤمنين.

الإرادة الرابعة: أن نكون من المهتدين المؤمنين
يريد منا أن نكون من الفئة التي آمنت وأوتيت أجرها، لا من الفئة الفاسقة. وهذا يحتاج إلى مجاهدة دائمة.

المحور الثامن

أبعاد الآيتين وآفاقهما

البعد التاريخي: فهم مسيرة الأنبياء عبر العصور
الآيتان تقدمان خريطة تاريخية للرسالات، من نوح إلى عيسى، مما يساعد على فهم تاريخ الأديان والعلاقة بينها.

البعد الفقهي: حكم الابتداع في الدين
الآيتان أصل في ذم البدع والابتداع في الدين. فكل عبادة لم يكتبها الله علينا هي رهبانية مبتدعة. وهذا البعد له آثار فقهية كبيرة.

البعد الأخلاقي: الرأفة والرحمة كقيم إيمانية
الآيتان تؤسسان لقيم الرأفة والرحمة في الأمة، وهي قيم تحتاجها البشرية في كل عصر.

المحور التاسع

تحويل الآيتين إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان المتبع لا المبتدع
الآيتان تبنيان إنساناً ملتزماً بالكتاب والسنة، لا يخترع عبادات من عنده، ولا يحمل نفسه فوق طاقتها. هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصحيح.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتراحم
مجتمع يتربى على هذه الآيات سيكون مجتمعاً متراحماً، كما أثنى الله على أتباع عيسى بما في قلوبهم من رأفة ورحمة. الرحمة هي روح المجتمع الحي.

المسار الثالث: بناء الحضارة الوفية بعهودها
الآيتان تبنيان حضارة تفي بالتزاماتها. {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} نقد للمقصرين. فأمتنا يجب أن تكون أمة وفية بعهودها ومواثيقها والتزاماتها.

المحور العاشر

كيف تحول الآيتين إلى واقع معاش؟ (المهارات الحياتية والمعرفية والعملية)

المهارة الحياتية الأولى: مهارة الاتباع والتمييز بين السنة والبدعة.
تعلم كيف تفرق بين العبادة المشروعة والعبادة المبتدعة. قبل أن تلتزم بعمل تعبدي، اسأل نفسك: هل ورد هذا في الكتاب أو السنة؟ هل فعله النبي صلى الله عليه وسلم أو أمر به؟ إذا لم تجد دليلاً، فالأولى تركه. هذه المهارة تحميك من الوقوع في الرهبانية المعاصرة بأشكالها المختلفة.

المهارة الحياتية الثانية: مهارة التوازن في العبادة والحياة.
لا تكن متطرفاً: لا في الانعزال عن الدنيا (كالنصارى المبتدعين)، ولا في الانغماس في الدنيا (كالكفار). تعلم كيف توازن بين عملك وعبادتك، بين دنياك وآخرتك. نظم وقتك بحيث تعطي كل ذي حق حقه. هذه المهارة تجعلك تعيش حياة متوازنة مستقرة.

المهارة الحياتية الثالثة: مهارة الوفاء بالالتزام.
إذا التزمت عملاً لله، سواء كان نذراً، أو صياماً، أو صدقة، أو وعداً... فأوف به. {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} توبيخ. فلا تكن ممن يلتزمون ولا يفون. درب نفسك على الوفاء بالعهود الصغيرة قبل الكبيرة.

المهارة العملية الأولى: مراجعة أورادك وعباداتك.
خذ ورقة وقلماً، واكتب كل العبادات والأوراد التي تلتزم بها يومياً أو أسبوعياً. ثم راجعها: هل هي مشروعة بكتاب أو سنة؟ هل تستطيع المداومة عليها؟ إذا وجدت شيئاً ليس له أصل، أو شيئاً يشق عليك ولا تستطيع رعايته، فعدل قائمتك. التزم بما هو ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبما تستطيع المداومة عليه.

المهارة العملية الثانية: تدريب القلب على الرأفة والرحمة.
خصص وقتاً لزيارة مريض، أو مساعدة محتاج، أو رعاية يتيم، أو إطعام جائع. هذه الأعمال ترقق القلب، وتدخلك في زمرة الذين في قلوبهم رأفة ورحمة. وادع الله دائماً: "اللهم هب لي قلباً رقيقاً رحيماً".

المهارة المعرفية: قراءة تاريخ الأديان من منظور إسلامي.
اقرأ في قصص الأنبياء، وفي تاريخ اليهودية والنصرانية، من مصادر إسلامية موثوقة. هذه المعرفة تزيدك يقيناً بصحة الإسلام، وتعلمك كيف انحرفت الأمم السابقة، لتتجنب أسباب انحرافها.

خاتمة: بين نوح وعيسى... مسيرة هداية وابتلاء

أيها القارئ الكريم...

لقد انتهت رحلتنا مع هاتين الآيتين الكريمتين. لقد سافرنا عبر الزمن، من فجر البشرية بعد الطوفان مع نوح، إلى إبراهيم أبي الأنبياء، إلى مسيرة الرسل المتتابعة، حتى وصلنا إلى عيسى ابن مريم وكتابه الإنجيل. ورأينا كيف انقسم الناس عبر هذه المسيرة الطويلة بين مهتدين وفاسقين. ورأينا ظاهرة الرهبانية التي ابتدعها النصارى، وكيف أنهم لم يرعوها حق رعايتها.

فليكن لنا في هذه القصص عبرة. لنسأل أنفسنا: أين نحن من هذه المسيرة؟ هل نحن من المهتدين الذين اتبعوا الحق، أم نحن من الفاسقين الذين خرجوا عن الطريق؟ هل نلتزم بما كتبه الله علينا، أم نخترع عبادات من عندنا؟ هل نرعى التزاماتنا، أم نقصر فيها؟

لقد علمتنا هذه الآيات أن الله عادل، يؤتي المؤمنين أجرهم، ويحاسب الفاسقين على فسقهم. فلنختر أي الفريقين نكون. ولنعمل بجد لنكون من الذين آمنوا وأوتوا أجرهم، لا من الفاسقين الخاسرين.

المبحث الثالث
تفسير الآيتين (28-29) من سورة الحديد

(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ ۙ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ)

حين يفتح الله أبواب الرحمة للمؤمنين برسوله
وحين يمنحهم كفلين من رحمته... ونوراً يمشون به
وحين يعلم أهل الكتاب أن الفضل بيد الله وحده
رحلة من التقوى إلى الكفلين... ومن الإيمان إلى النور والمغفرة

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من سورة الحديد ومن جدلية وحدة الرسالات وختامها

قف معي – يا رعاك الله – وقفة تأمل ضرورية قبل أن تدخل إلى رحاب هاتين الآيتين الكريمتين اللتين تختتمان سورة الحديد ختاماً يفيض بالرحمة والنور والوعد الكريم. لقد مضت بنا السورة في رحلة طويلة، بدأت بتسبيح الله في السماوات والأرض، ومرت بالحث على الإنفاق والجهاد، وكشفت عن المنافقين وأسباب هلاكهم، وعاتبت المؤمنين على بطء خشوعهم، وبينت وسائل حياة القلوب، وحقرت الدنيا في أعيننا، وأمرتنا بالمسابقة إلى الجنة، وثبتت قلوبنا بالإيمان بالقضاء والقدر، وأكدت على أهمية القوة والحديد لإقامة القسط. وفي الآيتين السابقتين مباشرة، استعرضت السورة تاريخ الرسالات من نوح وإبراهيم إلى عيسى ابن مريم، وبينت كيف أن الرسل متتابعون، وكيف انحرف أتباعهم عبر الزمن.

والآن، وبعد هذا الاستعراض التاريخي الطويل، تقف السورة بنا على أعتاب ختامها المهيب. وتتوجه بـ الخطاب إلى المؤمنين – أمة محمد صلى الله عليه وسلم – بهذا النداء الحبيب: {يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا}. إنه نداء التكريم والتشريف والتكليف. إنه يخاطبهم بعد أن عرض عليهم تاريخ الأمم، ليقول لهم: أنتم الآن في موقع الشاهد على الأمم، أنتم الأمة الخاتمة، فاتقوا الله، وآمنوا برسوله، لتنالوا ما لم ينله غيركم.

وهاتان الآيتان تتضمنان وعداً عظيماً خاصاً بهذه الأمة: {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ}. إنه الضعف المضاعف من الرحمة. ضعفان، لا ضعف واحد. وهذا مما اختص الله به أمة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث آتاهم أجرهم مرتين: مرة لإيمانهم بنبيهم، ومرة لإيمانهم بمن سبقه من الأنبياء. وفي هذا إشارة إلى أن أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ينالون كفلين من الرحمة: كفلا ً لإيمانهم بأنبيائهم السابقين، وكفلا ً لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

ثم تأتي الآية الأخيرة لتضع النقطة النهائية في النقاش مع أهل الكتاب: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ}. لقد كان أهل الكتاب يظنون أن الفضل حكر عليهم، وأن النبوة و

الرحمة محصورة فيهم. فتأتي هذه الآية لتقطع هذا الوهم: الفضل كله بيد الله، يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

وهكذا تختم سورة الحديد، التي بدأت بالحديث عن الله وما له من ملك السماوات والأرض، وتختم بـ الحديث عن فضل الله العظيم. إنها سورة الفضل الإلهي من بدايتها إلى نهايتها.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيتين ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – يا أخي القارئ – أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هاتين الآيتين الكريمتين:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

١.نداء المؤمنين ودعوتهم إلى تقوى الله:} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ...{خطاب مباشر للأمة بعد استعراض تاريخ الأمم، وفيه تكليف وتشريف.
٢.الأمر بالإيمان برسوله:} وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ...{تجديد الدعوة إلى الإيمان الكامل بالرسول صلى الله عليه وسلم.
٣.الوعد بالكفلين من الرحمة:} يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ...{بشارة عظيمة بمضاعفة الأجر، واختصاص هذه الأمة بضعفين من الرحمة.
٤.النور الذي يمشون به:} وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...{وعد بنور في الدنيا والآخرة، يهديهم ويثبتهم.
٥.المغفرة الإلهية:} وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...{ختم الوعد بالمغفرة، مع التذكير بصفتي الغفور الرحيم.
٦.قطع أوهام أهل الكتاب:} لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ...{بيان أن أهل الكتاب لا يملكون شيئاً من فضل الله.
٧.الفضل بيد الله:} وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ...{تقرير أن الفضل كله بيد الله، يمنحه لمن يشاء.
٨.عظمة الفضل الإلهي:} وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ...{ختام السورة بتعظيم فضل الله، ليبقى القلب متعلقاً بالله طامعاً في فضله.

مقاصد الآيتين وأهدافهما:

١.ترغيب المؤمنين في التقوى والإيمان، ووعدهم بالأجر المضاعف.
٢.إظهار خصوصية هذه الأمة وفضل الله عليها.
٣.إقامة الحجة على أهل الكتاب، وبيان أن فضل الله لا يحتكره أحد.
٤.تثبيت المؤمنين وبث الطمأنينة في قلوبهم، بأن لهم نوراً ورحمة ومغفرة.
٥.ختم السورة بتعظيم فضل الله، ليعيش المؤمن حياته بين رجاء الفضل وخوف التقصير.

المحور الأول

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ}

النداء الخاتم... دعوة إلى تجديد التقوى والإيمان
حين يخاطب الله المؤمنين بعد استعراض تاريخ الأمم

وقفة مع الأسلوب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}... نداء التكريم والتكليف

دعنا نقف – يا صاحبي – عند صدر هذه الآية الكريمة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}. إنه النداء القرآني الشهير ، الذي يتكرر في مواضع كثيرة، ولكنه هنا يأتي في موقع خاص. لقد سبق هذا النداء استعراض طويل لتاريخ الرسل والأمم، من نوح وإبراهيم إلى موسى وعيسى. وبعد هذا الاستعراض، يتوجه الخطاب إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وكأن الله يقول لهم: "رأيتم كيف كانت مسيرة الرسل، وكيف انحرفت الأمم، وكيف اختلف الناس... وأنتم الآن – أيها المؤمنون – عليكم أن تستجيبوا وأن تثبتوا".

وقد جمع النداء بين معنيين عظيمين: التكريم والتكليف. أما التكريم ففي وصفهم بـ "الذين آمنوا"،

وهو تشريف لهم وتذكير بنعمة الإيمان. وأما التكليف ففي الأمرين الجليلين: {اتقوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ}.

{اتقوا اللهَ}: الأمر الأول... دوام التقوى وتجديدها

{اتقوا اللهَ}... التقوى هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بفعل الأوامر واجتناب النواهي. و التقوى ليست مقاماً واحداً يصل إليه المؤمن ثم يقف، بل هي مراتب ودرجات. والمؤمن مطالب بدوام التقوى وتجديدها. ولهذا جاء الأمر هنا بصيغة المضارع المستمر: {اتقوا} أي داوموا على تقوى الله في كل حال.

وهذا الأمر بالتقوى بعد ذكر تاريخ الأمم فيه إشارة إلى أن التقوى هي التي تحفظ الأمة من الا نحراف الذي أصاب الأمم السابقة. فالأمم السابقة انحرفت لأنها تركت التقوى واتبعت الهوى. فإذا أردتم – أيها المؤمنون – ألا تكونوا مثلهم، فالزموا تقوى الله.

{وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ}: الأمر الثاني... تجديد الإيمان بالرسول

{وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ}... هنا يأتي الأمر الثاني: الأمر بالإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وقد يسأل سائل: أوليس المخاطبون هم "الذين آمنوا"؟ فكيف يؤمرون بالإيمان وهم مؤمنون أصلا ً؟

والجواب: أن الإيمان درجات، والمؤمن مطالب بتجديد إيمانه وترقيته. فـ {آمِنُوا} هنا بمعنى: اثبتوا على الإيمان، وزادوا إيماناً، وجددوا إيمانكم. أو بمعنى: آمنوا به إيماناً كاملا ً شاملا ً، لا إيماناً جزئياً. أو أن الخطاب لمن آمن بالله من أهل الكتاب، فأمروا أن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

والأمران معاً (اتقوا الله، وآمنوا برسوله) يجمعان أصول الدين: تقوى الله (حق الله)، والإيمان بالرسول (حق الرسول). ومن جمع بينهما فقد استكمل الإيمان.

الدلالة التربوية: تجديد الإيمان باستمرار

في هذا المقطع درس تربوي مهم: الإيمان ليس حالة ثابتة، بل هو شيء يزيد وينقص، ويحتاج إلى تجديد. والمسلم حتى لو كان مؤمناً، فإنه يحتاج إلى أن يُذكر بالتقوى والإيمان. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك". فالمؤمن يخاف على إيمانه، ويجتهد في تجديده.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

- الرسالة الفكرية: الإيمان ليس شعاراً يرفع، بل هو عمل وتقوى وتجديد مستمر.
- الرسالة النفسية: لا تأمن على إيمانك. جدد إيمانك كل يوم. اسأل الله الثبات.
- الرسالة التربوية: درب نفسك وأبناءك على تجديد الإيمان، من خلال الأذكار، والتفكر، والتوبة اليومية.
- المهارة الحياتية: اجعل لك ورداً يومياً تسأل الله فيه الثبات على التقوى والإيمان.

المحور الثاني

{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

الوعد العظيم... كفلان من الرحمة ونور ومغفرة
بشارات ثلاث للمتقين المؤمنين برسول الله

{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ}: الوعد الأول... ضعفان من الرحمة

هذا هو الجزاء الأول على التقوى والإيمان: {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ}. "يؤتكم" أي يعطكم. و"الكفل" هو الضعف والنصيب. و"كفلين" أي ضعفين، أو نصيبين مضاعفين. و{مِن رَّحْمَتِهِ} أي من رحمته الواسعة.

وهذا الوعد بالكفلين خاص بهذه الأمة. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن أهل الكتاب قالوا: "نحن

لنا أجران، ولكم أجر واحد". فنزلت هذه الآية تبين أن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم لهم أيضاً كفلان من الرحمة، بل هم أحق بهما.

والمعنى: أن المؤمنين من هذه الأمة يؤتون أجرهم مرتين: مرة لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومرة لإيمانهم بمن سبقه من الأنبياء. أما غيرهم من الأمم، فلم يؤمنوا إلا بأنبيائهم فقط. أو أن المعنى: يضاعف الله لهم الأجر ضعفين، تفضلا ً منه ورحمة.

وتأمل – يا صاحبي – أن الآية قالت: {مِن رَحْمَتِهِ} ولم تقل "من أجره" أو "من ثوابه". وذلك لأن الرحمة أعم وأشمل. فالأجر شيء، والرحمة شيء آخر. الرحمة تشمل الأجر وزيادة. وهي من أعظم ما يطلبه المؤمن من ربه.

{وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}: الوعد الثاني... نور يمشون به في الدنيا والآخرة

ثم تأتي البشرى الثانية: {وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}. هذا النور ما هو؟ فيه أقوال:

.١هو نور في الدنيا: وهو نور العلم والبصيرة والهداية، الذي يميز به المؤمن بين الحق والباطل، ويبصر به طريق الصواب.

.٢هو نور في الآخرة: وهو النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم على الصراط، كما ورد في أول السورة:} يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم.{

.٣هو نور شامل في الدنيا والآخرة: نور في القلب، ونور في الوجه، ونور في القبر، ونور في المحشر ، ونور على الصراط.

والنور هنا وعد من الله لمن اتقاه وآمن برسوله. وهذا النور هو الذي يجعل المؤمن يعيش في ضياء، مهما أحاطت به الظلمات. إنه نور البصيرة الذي يميز به بين الحق والباطل، ونور اليقين الذي يثبت قلبه، ونور الهداية الذي يرشده إلى الصواب. وهو وعد كريم من الله، يربط هذه الآية بما سبق في أول السورة من حديث النور.

{وَيَغْفِرْ لَكُمْ}: الوعد الثالث... مغفرة الذنوب

ثم تأتي البشرى الثالثة: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ}. المغفرة هي ستر الذنوب ومحوها والعفو عنها. وهذا هو أعظم المطالب: أن يغفر الله لك. لأنك إن غفر لك، فلا يضرك بعد ذلك شيء. وإن لم تغفر لك، فلا ينفعك شيء.

وهذه المغفرة وعد لمن اتقى وآمن. وهي المغفرة الشاملة لكل الذنوب، صغيرها وكبيرها، ما دام العبد قد تاب واستقام. وفي الوعد بالمغفرة طمأنة لقلوب المؤمنين الذين يخافون من ذنوبهم وتقصيرهم.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}: ختم البشارات بذكر صفتي المغفرة والرحمة

ثم تختم البشارات بهذا التعقيب: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. "غفور" صيغة مبالغة: كثير المغفرة، عظيمها. "رحيم" كثير الرحمة، واسعها. وفي ختم البشارات بهاتين الصفتين إشعار بأن هذه الموعودات (الكفلين، النور، المغفرة) صادرة عن غفور رحيم، لا عن غضوب منتقم. إنه يغفر لمن أسرف على نفسه إذا تاب، ويرحم من أناب إليه. فلا تيأسوا من رحمته، ولا تقنطوا من مغفرته.

الترتيب البديع للبشارات الثلاث:

تأمل – يا صاحبي – هذا الترتيب الإلهي البديع:

· الكفلين من الرحمة: إحسان وزيادة.
· النور: هداية وبصيرة.
· المغفرة: تطهير وإزالة للذنوب.

فبدأ بالعطاء (الكفلين)، ثم بالهداية (النور)، ثم بالتطهير (المغفرة). إنه ترتيب منطقي: أعطاهم الرحمة، ثم جعل لهم نوراً يبصرون به، ثم غفر لهم ذنوبهم. وهذا كله من فضله وكرمه.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: من اتقى الله وآمن برسوله، فله هذه البشارات الثلاث العظيمة. وهذا وعد من الله لا يخلف.
• الرسالة النفسية: لا تيأس من كثرة ذنوبك. الله غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وآمن.
• الرسالة التربوية: بشر أبناءك بهذه البشارات، ورغبهم في التقوى والإيمان، ليحيوا بالأمل والرجاء.
• المهارة الحياتية: استحضر هذه البشارات الثلاث كلما شعرت بضعف أو تقصير. واجعلها دافعاً لك للا ستمرار في طريق التقوى.

المحور الثالث

{لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}

الغاية من هذا البيان... قطع أوهام أهل الكتاب
وتقرير أن الفضل كله بيد الله وحده

{لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ}: صدمة الحقيقة لأهل الكتاب

الآن – يا صاحبي – وصلنا إلى الآية الأخيرة في السورة، وهي التي تختم السورة ختاماً يتناسب مع مطلعها. {لِئَلَّا يَعْلَمَ} اللام هنا لام التعليل. والمعنى: "أعطيناكم – أيها المؤمنون – هذه البشارات، ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله".

و"لا" في {لِئَلَّا} يمكن أن تكون زائدة للتوكيد، فيكون المعنى: "ليعلم أهل الكتاب". ويمكن أن تكون أصلية، فيكون المعنى: "لئلا يظل أهل الكتاب جاهلين، بل ليعلموا". والمعنى على كلا التقديرين: أن الله أعطى المؤمنين هذه البشارات ليعلم أهل الكتاب حقيقة مهمة، وهي أنهم {لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ}.

لقد كان أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يظنون أنهم شعب الله المختار، وأن النبوة والرحمة والفضل محصورة فيهم. قالوا: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ}. وقالوا: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}. فجاءت هذه الآية لتزلزل هذه الدعاوى، وتقرر أن الفضل ليس حكراً على أحد. فضل الله ليس ملكاً لأ هل الكتاب، وليس في أيديهم منه شيء. هم لا يملكون من فضل الله شيئاً، ولا يتحكمون فيمن يؤتيه الله.

{وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ}: الفضل كله بيد الله وحده

وهنا يصل البيان القرآني إلى ذروته: {وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ}. "الفضل" هو العطاء والزيادة والإحسان. وكونه "بيد الله" يعني أنه تحت تصرفه وملكه وسلطانه، لا يشاركه فيه أحد. {يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ} أي يعطيه لمن يختاره من عباده، بحكمته وعدله.

وليس إيتاء الفضل مقصوراً على أمة دون أمة، ولا على شعب دون شعب. إن الله يعطي فضله للمؤمنين من أي أمة كانوا. وقد أعطى فضله للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السابقة، وأعطى فضله لهذه الأمة. والفضل ليس بالأنساب ولا بالادعاءات، بل هو بالإيمان والتقوى و العمل الصالح.

وهذا تقرير مهم: أن الله لم يحرم أحداً من فضله، بل هو يفتح بابه لكل من آمن وأطاع. فأهل الكتاب إن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فلهم نصيبهم من الفضل. وإن كفروا، فهم الذين حرموا أنفسهم.

{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}: الختام العظيم للسورة

وهكذا تختم السورة بهذه الجملة العظيمة: {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}. "ذو" بمعنى صاحب. والله صاحب الفضل العظيم. وعظم فضله لا يحده حد، ولا يصفه واصف. إنه فضل لا ينقطع، ولا ينقص، ولا يحصى. فضل عظيم في الدنيا، وفضل أعظم في الآخرة.

وتأمل – يا صاحبي – كيف بدأت السورة بتسبيح الله: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، وكيف ختمت بذكر فضل الله العظيم. البداية: تنزيه الله وتعظيمه. والنهاية: بيان فضله وإحسانه. فكأن السورة كلها تقول: "هذا هو الله: العزيز الحكيم، ذو الفضل العظيم. فآمنوا به، واتقوه، وآمنوا برسوله، لتنالوا فضله العظيم".

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

• الرسالة الفكرية: فضل الله لا يحتكره أحد، ولا يحجزه شعب، ولا تملكه أمة. هو بيد الله، يؤتيه من يشاء.
• الرسالة النفسية: لا تحزن إن رأيت غيرك قد أوتي من فضل الله. فالفضل بيد الله، وهو يؤتيه من يشاء. واطلب أنت من فضله.
• الرسالة التربوية: رب أبناءك على ألا يظنوا أنهم أفضل من غيرهم. الفضل بيد الله، والعبرة بالتقوى لا بالأنساب.
• المهارة الحياتية: أكثر من دعاء: "اللهم إني أسألك من فضلك العظيم". فـالله هو ذو الفضل العظيم، وهو كريم يعطي من سأله.

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآيتان في الواقع المعاصر

١.تجديد التقوى والإيمان في زمن الفتن:
في عصر تكثر فيه الفتن والمغريات، تدعونا الآية الأولى إلى تجديد تقوى الله وتجديد الإيمان برسوله ، كوسيلة للثبات والنور.

٢.الأمل في رحمة الله وفضله:
في عصر يكثر فيه اليأس والإحباط، تأتي البشارات الثلاث (الكفلين، النور، المغفرة) لتبعث الأمل وتجدد الثقة في فضل الله.

٣.تصحيح المفاهيم عن "شعب الله المختار":
في زمن ما زال فيه بعض أهل الكتاب يظنون أنهم شعب الله المختار، تأتي هذه الآيات لتصحح المفاهيم، وتؤكد أن الفضل بيد الله، وليس حكراً على أحد.

٤.طلب الفضل من الله وحده:
الآيات تدعونا إلى أن نطلب الفضل من الله، لا من غيره. فهو صاحب الفضل العظيم، وهو الذي يعطي ويمنع.

رسائل وتوجيهات:

• جدد إيمانك كل يوم، واسأل الله الثبات على التقوى.
• لا تقنط من رحمة الله، واطلب منه الكفلين والنور والمغفرة.
• لا تغتر بنسبك أو بانتمائك، فالفضل بيد الله.
• أكثر من سؤال الله من فضله.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين

المفهوم الفكري: الفضل الإلهي لا يحتكره أحد
الآيتان ترسخان مفهوماً فكرياً مهماً: أن فضل الله مطلق، لا تحده حدود، ولا يحتكره شعب، ولا تملكه أمة. هو بيد الله وحده. وهذا المفهوم يحرر العقل من أوهام "الشعب المختار" و"الأفضلية العنصرية".

المفهوم النفسي: الأمل والرجاء في فضل الله
الآيتان تقدمان جرعة نفسية عظيمة من الأمل. فبعد كل الحديث عن المنافقين والكافرين والمقصرين، تأتي هذه البشارات لتبعث الأمل وتجدد الرجاء. المؤمن يخطئ، ولكنه إذا تاب وآمن، فـالله يغفر ويرحم ويعطي الكفلين والنور.

المفهوم التربوي: التربية على طلب الفضل من الله
الآيتان تبنيان مفهوماً تربوياً: أن نربي أنفسنا وأبناءنا على طلب الفضل من الله، لا من الناس. فـالله هو ذو الفضل العظيم، وهو الذي يعطي ويمنع. فلا تسأل الناس، واسأل رب الناس.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هاتين الآيتين؟

الإرادة الأولى: أن نتقي الله حق تقاته
يريد منا أن نعيش التقوى في كل جوانب حياتنا. التقوى ليست مجرد كلمة، بل هي منهج حياة.

الإرادة الثانية: أن نؤمن برسوله إيماناً كاملاً
يريد منا أن نجدد إيماننا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأن نتبعه حق الاتباع.

الإرادة الثالثة: أن نطمع في فضله ولا نيأس من رحمته
يريد منا أن نعيش بين الخوف والرجاء. نخاف من تقصيرنا، ونطمع في فضله.

الإرادة الرابعة: ألا نغتر بأنسابنا ولا بانتماءاتنا
يريد منا أن نعلم أن الفضل بيده وحده، وأن العبرة بالإيمان والعمل، لا بالانتساب والادعاء.

المحور السابع

أبعاد الآيتين وآفاقهما

البعد العقدي: تقرير أن الفضل بيد الله وحده
الآيتان ترسخان عقيدة مهمة: أن الله هو المتفضل وحده، وأن ما بالخلق من نعم فمن فضله.

البعد الإيماني: تجديد الإيمان بالرسول
الآيتان تجدد الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، وتحث على اتباعه.

البعد الحضاري: بناء أمة لا تحتكر الفضل لنفسها
هذه الآيات تبني أمة متواضعة، لا تظن أنها الأفضل بعرقها، بل تطلب الفضل من الله، وتوقن أنه بيده.

المحور الثامن

تحويل الآيتين إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الطامع في فضل الله
الآيتان تبنيان إنساناً يعيش بالأمل، طامعاً في فضل الله، راجياً رحمته، خائفاً من تقصيره. هذا الإنسان هو الذي يصلح لبناء الحضارة.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتواضع
مجتمع يتربى على هذه الآيات سيكون مجتمعاً متواضعاً، لا يظن أنه خير أمة أخرجت للناس بذاته، بل بتقواه وعمله.

المسار الثالث: بناء الحضارة الراجية فضل الله
هذه الآيات تبني حضارة تقوم على طلب الفضل من الله، لا على القوة والمال فقط. حضارة تطلب النور كما تطلب القوة، وتطلب المغفرة كما تطلب النصر.

المحور التاسع

كيف تحول الآيتين إلى واقع معاش؟ (المهارات الحياتية والمعرفية والعملية)

المهارة الحياتية الأولى: مهارة تجديد التقوى والإيمان يومياً.
خصص وقتاً كل يوم لمراجعة نفسك: هل أنا على تقوى من الله؟ هل إيماني برسول الله يزداد أم ينقص؟ اقرأ في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وتفكر في أخلاقه وشمائله، ليزداد إيمانك به وحبك له. هذه المهارة تجعل إيمانك حياً متجدداً، لا مجرد عادة موروثة.

المهارة الحياتية الثانية: مهارة العيش بالأمل والرجاء.
كلما شعرت بالإحباط أو اليأس من كثرة ذنوبك، تذكر هذه البشارات الثلاث: الكفلين من الرحمة، والنور ، والمغفرة. وقل لنفسك: "الله وعدني بهذا إن اتقيت وآمنت". هذه المهارة النفسية تمنحك قوة داخلية، وتجعلك تنهض بعد كل سقطة.

المهارة الحياتية الثالثة: مهارة التواضع وعدم احتقار الآخرين.
إذا رأيت إنساناً أقل منك علماً أو عملا ً أو انتساباً، فلا تحتقره. تذكر أن الفضل بيد الله، وأن الله قد يؤتيه ما لم يؤتك. هذه المهارة تجعلك متواضعاً، رحيماً بالآخرين، بعيداً عن الكبر والغرور.

المهارة العملية الأولى: الدعاء اليومي بطلب الكفلين والنور والمغفرة.
اجعل من دعائك اليومي: "اللهم آتني كفلين من رحمتك، واجعل لي نوراً أمشي به، واغفر لي، إنك غفور رحيم". فهذا الدعاء يذكرك بالبشارات، ويفتح لك أبواب الأمل، ويجعلك دائم التعلق بالله.

المهارة العملية الثانية: نشر ثقافة أن الفضل بيد الله.
في أحاديثك مع الناس، وفي تعليمك لأبنائك، وفي كتاباتك على وسائل التواصل، انشر هذا المعنى: أن الفضل بيد الله، وليس حكراً على أحد. لا تحتكر أمة فضل الله، ولا شعب، ولا حزب. هذه الثقافة تحارب العنصرية والطبقية، وتجعل الناس سواسية أمام فضل الله.

المهارة المعرفية: دراسة مفهوم "الفضل" في القرآن.
اجمع الآيات التي تتحدث عن "فضل الله" في القرآن، وادرسها. تأمل كيف يتكرر هذا المفهوم، وكيف يرتبط بالإيمان والعمل. هذه الدراسة تزيدك معرفة بالله، وتجعلك أكثر طمعاً في فضله.

خاتمة: في رحاب فضل الله العظيم

أيها القارئ الكريم...

لقد انتهت رحلتنا مع هاتين الآيتين الكريمتين، ومع سورة الحديد كلها. لقد بدأنا هذه السورة بتسبيح الله العزيز الحكيم، وها نحن نختمها مع "ذي الفضل العظيم". لقد رأينا في هذه السورة كيف أن الله يحب المؤمنين، ويواعدهم بالنور والمغفرة والكفلين من رحمته. ورأينا كيف أنه يدعوهم إلى التقوى وا لإيمان، ويحذرهم من النفاق والفسق. ورأينا كيف أن الفضل كله بيده، يؤتيه من يشاء.

فلنخرج من رحاب هذه السورة ونحن مفعمون بالأمل، مملوؤون بالرجاء، مصممون على التقوى، مجددون للإيمان. ولنسأل الله من فضله العظيم: أن يرزقنا الكفلين من رحمته، وأن يجعل لنا نوراً نمشي به، وأن يغفر لنا ذنوبنا. إنه غفور رحيم، وهو ذو الفضل العظيم.